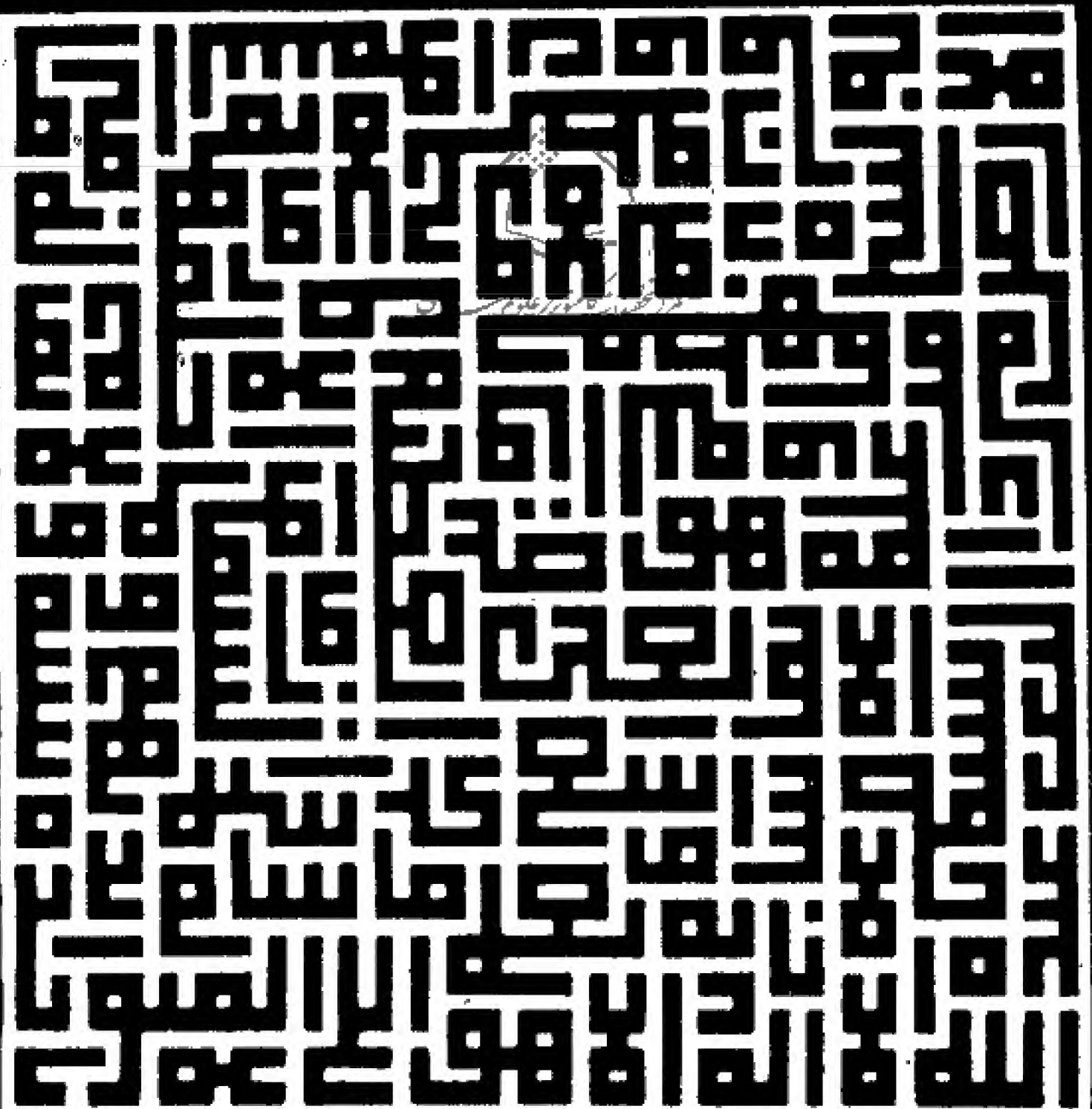


العدد الأول، السنة الأولى، تشرين الثاني/نوفمبر

فصل: در بیان احوال و حال





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق
العدد الأول، السنة الأولى، تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٩

المدير المسؤول
علي عقلة حسان

ميشة التحرير
د. عبد الكريم الياسي
عبد العادي هاشم
د. عدنان درويش
د. نشات حمارنة

سكرتير التحرير
محمود صفيري

كتابخانه
بنیاد وایژه المعارف اسلامی



مرکز تحقیقات کتب ویراث اسلامی

شماره ثبت ٤٧٧٥٦

تاریخ ١٣٥٨/١٢/٠١

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب. : ٢٢٢٠ هاتف : ٤٤٧٠٠ - ٤٤٧٠١

هذه المجلة

عالي عقله عرشه

لا أستطيع ان انكر او اخفي فرحي وانا اكتب هذه الكلمات للعدد الأول من مجلة التراث العربي ، لان صدور هذه المجلة يعني الكثير بالنسبة لي .

يعني ان مرحلة الجهد المصروف في الاتصالات الأولية والاعداد وما استلزم ذلك من صبر قد انتهت الى نتيجة مرضية . ويعني القضاء على بذور شك بإمكان صدور المجلة ، كانت تنمو رغم عوامل الذبول والاضمحلال التي تحيط بها . ويعني أيضاً بحث أمل في نفوس طيبة مجتهدة صادقة كانت تطمح الى إصدار المجلة ، وتعمل من أجل ذلك .

وحيثما نضع العدد الأول من مجلة التراث العربي في متناول القراء الكرام ، لا نزعم اننا وضعنا النموذج الذي نتطلع الى ان تكون عليه مجلة التراث ، ولا نزعم اننا سلكتا النهج القويم الذي نرتضيه لهذه المجلة ، ولكننا نستطيع ان نؤكد اننا بذلنا جهداً صادقاً كي تبرز المجلة الى حيز الوجود ، ولتتقدم بعد ذلك الدين يعنيهم التراث وقضاياها ، تواصل الاجيال العربية معه ، واستلهاها إياه ، والذين يهمهم ان يكون الخلف على صلة بذالك السلف ، ليتقدموا ويأخضوا مكانهم ودورهم حيث يصنعون المجلة في مسارها الذي يحقق اهدافها ويبلور شخصيتها .

ونحن حين فكرنا ، في اتحاد الكتاب العرب ، بان تصدر مجلة للتراث العربي ، كنا نعرف ان هناك مجلات مهتمة بالتراث ، لعبت وتلعب دوراً هاماً في تقديمه وخصمته واثارة ما شغله الظلام منه ، تاتي في طبيعتها مجلة المورد . ونعلم ايضاً بوجود معهد التراث العلمي العربي في حلب وبجهدده . ووجدنا ، رغم ذلك ، ان هناك فراغاً يمكن ان تشغله مجلتنا ، وهوية متميزة يمكن ان تكون لها .

ذلك ان الدافع الرئيس لاحداث المجلة كان الوقوف على بعض ظواهر مؤسسة منها :

● انصراف الاجيال العربية الصاعدة عن التراث ، وخصوصاً لتأثيرات ترمي الى جرّها للحكم عليه دون ان تعرف عنه شيئاً .

- اتهام من بعض المثقفين للتراث ، وصدوف منهم عنه ، وتشكيك بأهميته وبعنوى التواصل معه .
- قلة اقبال الباحثين والدارسين الجدد على الاهتمام بالتراث ، وانصرافهم الى سواه مما يروج ويطلب .
- استثناء حملات الفوز الثقافي الموجه ضد الامة العربية واجيالها ، وتركز ذلك على التشكيك بالتراث ، وبذل محاولات لطمس الدور الحضاري عامة ، والثقافي والعلمي خاصة ، الذي لعبه العرب في الحضارة الانسانية .

وترمي تلك الحملات المستمرة الى ايجاد اجيال ليس لديها مقومات هوية ثقافية واضحة ، تجهل تاريخها الحضاري وكنوزها الفكرية ومكونات شخصيتها الثقافية ، لتسهل بذلك السيطرة عليها وممارسة اشكال الاستعمار الثقافي ضدها .

ونظرا لأهمية هذا الموضوع ، ولتأثيره الكبير في ثقافة الامة العربية وتأكيد اصالتها وهي تواجه متطلبات التقدم وتحدياتها ، ولا يزال روحها القومي ، وتأكيد شخصيتها الحضارية ودورها وتأثيرها في الحضارة الانسانية . ومن اجل الوقوف في وجه حملات التشكيك والمعارضة والإقصاف والفزو التي تشن ضد الكيان القومي والوحدة العربية من خلال الهجوم على مقومات الحضارة والشخصية والعقل العربي ، من اجل ذلك كله جاء مشروع اصدار مجلة فصلية تهتم بالتراث العربي عامة ((التاريخي والأدبي والفلسفي والعلمي)) تتوجه الى المثقفين اكثر مما تتوجه للباحثين المتخصصين في التراث وإن كان هذا التوجه لا يمنع من وجود بعض الأبحاث في كل حقل تهتم بالتخصصين والمستشرقين وينشر بعضها بلغة اجنبية .

على ان توجه المجلة بالدرجة الأولى الى مخاطبة المثقفين من غير المتخصصين بالتراث ، لا يعني اختيار سوية متوسطة في البحث ، وإنما يعني تركيز الدراسات والبحوث في مسائل جوهرية شاملة ، لا تفصيلية تحمل طابع التحقيق والمحاكمة . وذلك كله ليتمكن المجلة من :
 ● إقامة جسور تواصل سالكة مطروقة بين الأجيال العربية والموروث الفكري والمادي للامة العربية بمفهومها الشامل ، بهدف تاصيل ثقافة الإنسان العربي ، وتاصيل استلهامه وتعميقه بكنوز الثقافة والحضارة العربية ومكانتها وقيمتها في تراث الإنسانية وموروثها ، وبيان تأثيرها وتأثيرها ، فاعليتها وانفعالها بذلك الموروث (والتراث) .

● تعريف القارئ العربي بالمخطوطات العربية في مكتبات الوطن العربي والعالم ، تلك المخطوطات التي قد لا يتاح لأجيال ان تراها ، وربما لم يتح لها ان تنشر اصلا .

وتقديم دراسات علمية موسعة حولها ، تبين قيمة محتواها ومكانتها وأهميتها .

● تعريف القارئ بكتب التراث التي تنشرها الجهات المعنية بالتراث العربي في الوطن الكبير والعالم . ونشر دراسات متعمقة من تلك الآثار ، تقديمها للقارئ تقديماً معاصراً ، وتعالجها بمنطق علمي وبفكر متفتح ، وثبت نتيجة التفاعل الموضوعي للفكر والانسان المعاصر معها . وعقد مقارنات بينها وبين سواها من الكتب التي تهتم بالموضوعات نفسها ، والحرص على تقديم تلك الكتب الى القارئ العربي ، تقديماً يثري ثقافته ، ويحفزه على العودة الى الاصول نفسها ليزداد معرفته واطلاعا والتصالا بها ، ولتنشأ بينه وبينها صلة حقيقية ، ولتزداد العنوى من طبع ، وإعادة طبع تلك الكتب .

● إعادة تقويم جهود المستشرقين ونظراتهم الى التراث العربي ، ومناقشة آرائهم فيه واحكامهم له او عليه ، بهدف انصاف تراثنا وانصاف المهتمين به .

● تقويم آراء وججج واقتوال الداهين الى رفض التراث العربي ، واولئك الذين يحكمون عليه ، وتغني تلك الآراء انطلاقا من أسس موضوعية .

● الغاء نظرة عصرية على التراث تحقق احداث التفاعل الايجابي البناء ، بين الفكر الحديث ومقومات الاصالة ، بأسلوب علمي دقيق ، يتوجه كاتبه الى القاري المثقف . وايضاح السياقات التاريخية العام للتراث .

● نشر دراسات تحليلية عن التراث تشرح محتواه ومرتكزاته الفكرية وتبين قيمه وقيمه العلمية ، ونشر دراسات مقارنة بين التراث العربي والتراث الانساني ، وبيان التأثيرات المتبادلة بينهما . والاهتمام من اجل ذلك باللغة العربية ، والسعي لكشف كنوزها وتطويرها وتوحيد مصطلحاتها وتعميق وتحديث اساليب دراستها وتربيتها . وربما افاد في ذلك تشجيع علم الاساليب وبحوثه وعلم اللغة .

وانا اذ نعلن عن طموحات وتطلعات كبيرة لسي اصدار هذه المجلة ، لنؤكد ان تحقيق تلك الطموحات والتطلعات منوط بهمة الباحثين والدارسين المتخصصين والمهتمين بالتراث ، الفيورين عليه ، العارفين اسرارهم ، المبركين لمكانته من تاريخ الامم وتكوينها وصمودها للفرز وتعبئها للهجمات ، ودورها في الحفاظ على وجودها وتطويرها . اولئك الذين يعنيه الامر قبل سواهم ويقدررون عليه ويضطلعون باعبائه . لهم هذا الميدان وهم فرسانه . . وانما نحن اعلننا عن وجود ساحة من ساحاته هنا . ساحة هم فرسانها وحملتها راياتها .

واري من وجهة نظر خاصة ، ان الواجب القومي والانساني يتطلب من الاساندة الكبار الذين لهم باع في التراث خاصة ، والموروث العربي عامة ، اسهاما فريدا ومسؤولا في هذه المجلة لتتمكن من تحديد هوية متميزة وتشبيتها ، ومن تحقيق اهدافها ، وتطلع في سد لفرقة ظاهرة نتائجها ، في الجيل العربي وتكوينه الثقافي ، وليتمكنوا من تكوين جيل من الباحثين والمهتمين بالتراث يواصل جهودهم وجهود من سبقهم في هذا المجال .

وكما قام السابقون من الباحثين والمتخصصين بدور وواجب اديا الى تكوين جيل الباحثين والمتخصصين الحالي ، فينبغي على الجيل الحالي ان يسدل الصفي الجهد في ظروف ، القرو مسبقا انها صعبة جدا ، وهي بالتأكيد اصعب من ظروف السابقين ، ليكونوا خلفا لهم .

ان مجلة التراث العربي بصدد عدها الاول اصيحت خليفة ملموسة ، ويتطلب استمرارها جهد القادرين ومشاركتهم . . ويتحقق لهذه المجلة الدعم المعنوي والمادي اللازمين ، كما لمست فنانة لدى كثيرين ممن يعنيه الامر بضرورة وجودها .

ويقتضي الواجب ان اسجل بالتقدير ، الدعم المادي والرعاية والتشجيع الذي لقيته فكرة انشاء مجلة التراث العربي خاصة ، ولصايا التراث العربي عامته من السيد الرئيس حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية . ومن القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي ممثلة بمكتب الثقافة والدراسات في القيادة القومية . ومن السيد وزير الاعلام .

كما اسجل بالعرفان شكري للاساندة في جامعتي دمشق وحلب ، وفي الجمع العلمي العربي والمهتمين بالتراث ، الذين دعموا فكرة انشاء المجلة وشجعوا عليها . واسجل شكرا خاصا للذين اسهموا في مواد العدد الاول ، وصبروا علينا خلال فترة المصاحف ، ولعضو اتحاد الكتاب العرب السيد محمود الصغري الذي بذل جهدا كبيرا من اجل اصدار هذا العدد . .

واتمنى ان تحقق هذه المجلة اهدافها وان تسد لفرقة في المكتبة العربية .

والله ولي التوفيق .

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية

د. مصطفى الراجحي

الجامعة اللبنانية

تمهيد :



الحضارة تجسيد للنشاط العقلي عند الانسان ، وتاريخ الحضارة سجل لتطور هذا العقل ومدى فعاليتها في مختلف نواحي الحياة ،

من سياسية واجتماعية واقتصادية وادارية وهرية وعمرانية ، ودراسة هذا التاريخ تتناول الى جانب ذلك وسائل انتاج الانسان ومستوى معيشته وفنونه الجميلة ، ومعتقداته الدينية واساطيره وعلومه وآدابه ووسائل كفاحه المستمر مع الطبيعة من أجل البقاء ،

وذلك يعني ان هذا التاريخ لم يعد كما عرفه المؤرخ الانكليزي « ادوارد هريمان » بقوله :

« انه تاريخ السياسة الماضية » بل ان التاريخ بمجمله اصحى ، بحسب النظرة التطورية الحديثة ، هو بالذات تاريخ الحضارة ،

والحضارة فعل نام متحرك كالكائن الحي ، تولد ثم تحبو طفلة طرية العود ، حتى اذا اشتد

ساقاها واينعت ، بدأ عهدا المزدهر أو شابها المعطي ، وتكون في هذا الطور في ابان خصبها ، فاذا استنفدت طاقتها المخزونة بدأت تنحدر نحو الهرم والشيخوخة ، وبدأ عطاؤها يشع وينضب ، الى أن تنقرض ،

في كل حضارة بلا شك بذرة بقاء ، هي الارث الحضاري الذي تتركه وراءها ، وهذا الارث مشاع كالهواء ، يمكن لكل أمة ان تغيد منه ، كما يمكن لكل حضارة نامية ان تتفاعل معه وتجعله لبنة في بنيانها .

ولعله من حسن حظ الانسانية ان يكون الامر كذلك ، لان الحضارة المنغلقة على ذاتها لا يمكن ان تعطي الانسانية شيئا ، فهي مبتلاة بالمقم لان جوهرها يفتقر الى بذرة البقاء .

والتفاعل بين الحضارات أمر لا مفر منه ، فهو مظهر من مظاهر عدوى التقاليد ، وانفتاح كل حضارة على التاريخ ، وأشد ما يكون هذا التفاعل حين تكون الحضارة الناشئة في دور الاقتباس والتلقي ، فاذا ما تجاوزته الى دور الهضم والتمثيل ،

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية

د. مصطفى الراجحي

الجامعة اللبنانية

تمهيد :



الحضارة تجسيد للنشاط العقلي عند الانسان ، وتاريخ الحضارة سجل لتطور هذا العقل ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة ،

من سياسية واجتماعية واقتصادية وادارية وحربية وعمرانية . ودراسة هذا التاريخ تتناول الى جانب ذلك وسائل انتاج الانسان ومستوى معيشته وفنونه الجميلة ، ومعتقداته الدينية واساطيره وعلومه وآدابه ووسائل كفافه المستمر مع الطبيعة من أجل البقاء .

وذلك يعني ان هذا التاريخ لم يعد كما عرفه المؤرخ الانكليزي « ادوارد فريمان » بقوله :

« انه تاريخ السياسة الماضية » بل ان التاريخ بمجمله اضحى ، بحسب النظرة التطورية الحديثة ، هو بالذات تاريخ الحضارة .

والحضارة فعل نام متحرك كالكائن الحي ، تولد ثم تحبو طفلة طرية العود ، حتى اذا اشتد

ساقها وايئعت ، بدأ عهدها المزدهر أو شبابها المعطي ، وتكون في هذا الطور في ابان خصبها . فاذا استنفدت طاقتها المخزونة بدأت تنحدر نحو الهرم والشيخوخة ، وبدأ عطاؤها يشح وينضب ، الى أن تنقرض .

في كل حضارة بلا شك بذرة بقاء ، هي الارث الحضاري الذي تتركه وراءها ، وهذا الارث مشاع كالهواء ، يمكن لكل أمة ان تفيد منه ، كما يمكن لكل حضارة نامية ان تتفاعل معه وتجعله لبنة في بنيانها .

ولعله من حسن حظ الانسانية ان يكون الامر كذلك ، لان الحضارة المنغلقة على ذاتها لا يمكن ان تعطي الانسانية شيئاً ، فهي مبتلاة بالعقم لان جوهرها يفترق الى بذرة البقاء .

والتفاعل بين الحضارات أمر لا مفر منه ، فهو مظهر من مظاهر عدوى التقاليد ، وانفتاح كل حضارة على التاريخ . واشد ما يكون هذا التفاعل حين تكون الحضارة الناشئة في دور الاقتباس والتلقي ، فاذا ما تجاوزته الى دور الهضم والتمثيل ،

استحال ما أخذته الى دم قوي نشيط يساعدها على بدء عملية الخلق والابداع ، هذه العملية التي تعطيها طابعها الخاص وشخصيتها المميزة ، ككائن مستقل واضح الفصائص .

والحضارة العربية واحدة من تلك الحضارات المنفتحة على التاريخ . انها من الحضارات الشاملة التي تأثرت بها شعوب مختلفة ، ولعبت دورها المجيد في سير الحضارة البشرية ، وهي ، عدا عن كونها امتدادا لحضارة اليونان والرومان ، ذات شخصية متميزة ، مدت ظلها على الشرقيين ، الأدنى والاوسط ، وتجاوزتهما الى بعض أوروبا ، وكان لها أثرها الفعال في بعث النهضة الأوروبية الحديثة .

ولو لم يكن للحضارة العربية الا دور الوسيط الذي حمل الى الغرب أنفوس ما في التراثين اليوناني والروماني ، لكفاها ذلك فخرا ، ولجنبها تهمة الشح في العطاء ، التي يحاول بعض المتجنين على التاريخ الصاقها بها .

قال غوستاف لوبون : « لقد انشأ العرب بسرعة ، حضارة جديدة ، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا بحسن سياستهم من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وثقافتهم ، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود الذين رضوا أيضا بمعتقدات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم » .

وقال : « ان الامم التي غابت عن التاريخ لم تترك غير اطلال ووصارت اديانها ولغاتها وفنونها ذكريات ، أما العرب فما زالت عناصر حضارتهم باقية حية » .

ويقول صاحب كتاب « اعتذار الى محمد والاسلام » : يجب ان نعترف بان علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التي انعشت اوروبا منذ القرن العاصر مقتبسة عن القرآن .

ولعل هذا الباحث لم يخطيء الصواب اذا علمنا ان الله قد افتتح هذا القرآن الكريم الذي هو كتاب العرب الاول والذي انزله على خاتم انبيائه ورسله محمد ﷺ بكلمة « اقرأ » وان أول قسم اقسامه الله كان « بالقلم » « ن والقلم وما يسطرون » .

وان المتتبع لآيات القرآن يجد انها حوت ما يربو على ٧٥٠ آية شملت معظم العلوم المعروفة في زماننا .

ف نجد علم القانون في قوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الاباب » . ونجد علم التجارة في قوله : « واحل الله البيع وحرم الربا » ونجد فنون صناعة الكتابة في قوله : « ن والقلم وما يسطرون » ونجد علم البيان في قوله : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » . ونجد النجارة في قوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . ونجد الفوص واستخراج المعادن في قوله : « وتستخرجون منه حلية تلبسونها » . ونجد الملاحة في قوله : « وترى الفلك مواخر فيه » . وعلم الزراعة في قوله : « أفرايتم ما تحرثون ؟ » . وعلم الاختراع في قوله : « علم الانسان ما لم يعلم » . وعلم الفلك في قوله : « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » . وعلم الجيش والجندي في قوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وفن التجميل في قوله :

العرب يبحثون العلوم المختلفة ، ويتدارسونها ، وينشرونها على الناس ، كان أهل أوروبا في جهل مطبق ، وسبات عميق ، ولم يستفيقوا الا بعد الحروب الصليبية ، لانهم حينئذ اختلطوا بالعرب والمسلمين ، فوجدوا لديهم علوما لم يعرفوها الا بهم ، وحضارة اقتبسوها منهم وادخلوها الى بلادهم .

ويقول «دارير» أحد علماء امريكا المشهورين « لقد تأخذنا الدهشة اذا نظرنا في كتب العرب ، فنجد فيها اراء نعتقد انها لم تولد في زمننا هذا ، كالرأي الجديد في ترقى الكائنات العضوية وتدرجها في كمال انواعها ، فان هذا العلم علمه العرب قديما في مدارسهم ، وذهبوا فيه الى أبعد مما ذهبنا اليه » .

ويقول « توماس كارليل » المستشرق الانجليزي لقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور، واحيا به أمة خاملة ، لا يسمع لها صوت ، ولا تحس منها حركة ، منذ بدأ العالم فأرسل الله نبيا بكلمة من لدنه، ورسالة من قبله، فاذا الخمول نباهة ، والغموض قد استحال شهرة ، والضعف رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا ، وسع نوره الانحاء ، وعم ضوءه الارحاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والشرق بالغرب ، وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل في الهند ، ورجل في الاندلس، واشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمرؤة والنجدة ، ورونق الحياة والهدى على نصف المعمورة .

والحق ما قاله هذا المستشرق المنصف ، وهو

اغذوا زينتكم عند كل مسجد » . وصناعة الزجاج في قوله « قال انه صرح ممرد من قوارير » . صناعة الفخار في قوله : « فاوقد لي يا هامان على الطين » . وعلم النفس في قوله : « وفي نفسكم أفلا تبصرون » . وعلم التاريخ في قوله : « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك » . وعلم الآثار في قوله : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين » .

المصاح :

لا شك ان الباحث المنصف في تاريخ الامم ، ونهضات الشعوب ، يقف حيال تاريخ الامة العربية ، ونهضتها موقف المتأمل الخاشع ، لما وصلت اليه هذه الامة ، في حضارتها الزاهرة ، ومدنيتها العامرة ، التي اظلت الانسانية بظلالها الوارفة ، ونعمت فيها بالحرية والكرامة ، والامن والسلام ، من تعاليم رشيدة ، وسياسة حكيمة ، وعناية بالعلوم والمعارف على اختلافها .

ذلك لان العرب هم الذين اسهموا بأموالهم وعقولهم في البحث والتحصيل ، حتى اظهروا خافيها ، وذللوا الصعب منها ، وأصبحت - في عهودهم المزدهرة - دولة قائمة للعلوم والمعارف - ومن هنا كانوا زينة الدنيا ومعجزة العالمين - منهم الاساتذة الاولون الذين تتلمذ على أيديهم علماء الغرب ، وحج الى معاهدهم طلاب الفلسفة ، وعشاق الحكمة . يدل على ذلك ، هذه الآثار الشاهدة بمآثرهم الناطقة بحضارتهم ، في مصر والشام والاندلس وايران وما وراء النهرين وافغانستان وطبرستان ، وغيرها من البلاد .

يقول « روبرتسون » : في الزمن الذي كان فيه

ان العرب لم يبلغوا ذلك الا بالاسلام وتعاليمه التي كان بها اتباعه خير أمة أخرجت للناس ، تقييم للعدالة ميزانها ، وترفع للحق مناره ، وتغرس للدنيا دولة تمتد شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، حيث لا حروب ولا قلاقل ، ولا ظلم ولا تناحر وانما هو الامن والسلام ، والحياة والاستقرار والتعارف والرحمة (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) . وفي دراستنا هذه ، قيس من هذا النور ، وضياء من هذا الوهج اللامع ، الذي وهب الدنيا القوة والعافية .

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية :

لقد عني المنصفون من مؤرخي الغرب وباحثيه بتبيان الاثر العظيم الذي تركته الحضارة العربية في الحضارة الاوروبية ، وبما ان اثبات جميع ما قالوه في هذا الموضوع غير ممكن ، فاننا سنكتفي هنا بتلخيص ما ذكره العلامة «غوستاف لوبون» في كتابه « حضارة العرب » حول هذه هذه النقطة .

يرى العلامة المنصف ان الحروب الصليبية لم تكن السبب الذي ادى الى دخول العلوم الى أوروبا ، بل ان هذه العلوم انما دخلت عن طريق سبانية وصقلية وإيطالية . ففي عام ١٤٣٠ م نشأ في طليطلة ، وبرعاية رئيس اساقفتها « ريمون » ، مكتب للترجمة يعنى بنقل أهم كتب العرب الى اللاتينية . ولقد نجح هذا المكتب في مهمته ، ولم يقتصر النقل على مؤلفات علماء العرب « كالحارزي » و « أبي القاسم » و « ابن سينا » و « ابن رشد » بل تعداها الى كتب

اليونان التي ترجمتها العرب ككتب جالينوس وابقراط وافلاطون وارسطو واقليدس وارخميدس وبطليموس .

وقد روى الدكتور (لوكلير) في كتابه « تاريخ الطب العربي » ان ما ترجم من كتب العرب الى اللاتينية يتجاوز الثلاثمائة كتاب ، وان القرون الوسطى لم تعرف كتب قدماء اليونان الا من ترجماتها العربية ، ولم يكن يقدر للغرب لولا العرب - ان يطلع على كتاب « ابولونيوس » في المخروطيات ، وكتابات جالينوس في الامراض السارية ، وكتاب ارسطو في الحجارة الخ .

وقال مسيو ليبيري : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون » .

وعلى كتب العرب وحدها اعتمد علماء الغرب بعد القرن الخامس عشر كروجر بيكن وليونارد البيزي ، وارنود الفيلنوفي ، وسان توما ، والبرت الكبير ، وهذان الاخيران مدينان بكل قيمتهما العلمية لابن سينا وابن رشد ، وقد اوضح هذه الحقيقة واعلنها مسيورينان حين قال :

« ان البرت الكبير مدين لابن سينا ، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد » .

ومن الثابت ان جامعات أوروبا ظلت أكثر من ستة قرون تغتدي بكتب العرب العلمية التي ظلت وحدها مادة التدريس فيها ، كما ان الطب الغربي ظل حتى أواخر القرن الماضي عالة على ابن سينا .

وفي فن العمارة تأثر الغربيون بالعرب الى حد بعيد ، وما تزال البيوت في اشبيلية وقرطبة تبني

على الطراز العربي ، ولا يزال الرقص والموسيقى
بيها على الطريقة العربية .

بدء التدوين :

التدوين بمعنى تصنيف الكتب ، لم يظهر
لا بعد العهد الاسلامي الاول ، لان المسلمين كانوا
حتى اواخر العهد الاموي يعتمدون في نقل العلم
على الحفظ والذاكرة ، ولم يكن عندهم كتاب
مدون سوى القرآن . ويرجع السبب في ذلك الى
عوامل مختلفة ، فمن الرواة من يزعم ان بعض
الخلفاء لجأوا الى منع التدوين خشية ان يصرف
الناس نشاطهم اليه ، ومنهم من يعلل ذلك بان
المسلمين كانوا يعتقدون في تلك المرحلة من حياتهم
الفكرية ان العلوم والكتب المدونة لا لزوم لها مع
وجود القرآن ، في حين يرى آخرون ان حركة
التدوين لم تنشأ لان المسلمين كانوا لا يزالون
قريبين من عهد النبوة ، وكانت علومهم ، مازالت
ضعيفة لا تخرج عن نطاق القرآن وتفسيره ورواية
الحديث .

على انه ما كادت تستقر احوال المسلمين في
البلاد المفتوحة ، حتى تغير الحال وانصرفوا الى
التدوين في العصر العباسي لعلومهم ولغتهم .
وقد اختلف في أول من الف الكتب ودون
الاخبار ، غير ان ابن النديم يشير الى ان عبدا
الجرهمي الذي عاش في القرن الاول الهجري هو
أول من دون اخبار ملوك العرب والعجم ، وان
مجاهد بن جبير هو أول من دون كتابا في التفسير ،
ووهب بن حنين ١١٦ هـ ، هو أول من كتب التاريخ
والمغازي .

ولا شك ان الغاية من تدوين الحديث كانت

حفظه من الدس ، بعد ان شاع الوضع وكثرت
الاحاديث الموضوعة ، التي لجأ الى وضعها
اصحاب المذاهب السياسية ليدعموا بها اراءهم
في خلافاتهم الحزبية مع خصومهم .

وحركة التدوين المنتظم للحديث التي ازدهرت
في القرن الثالث للهجرة ، تمتاز عن تلك التي
نشأت في القرن الثاني بان تدوين الحديث فيها
كان مقصورا لذاته ، في حين أن تدوين الحديث في
الاول كان يجري عرضا اثناء تدوين كتب الفقه
أي - ان الفقه هو الذي كان مقصودا منها - لا
الحديث .

أما فيما يتعلق بالفقه ، فلم يطرأ عليه في
العهد الاموي الا تطور طفيف ، فال معروف ان
الخلفاء الراشدين يرجعون في أحكامهم الى القرآن
والسنة ويجتهدون بأرائهم ، ويلجأون الى
القياس . فلما انتشر كبار الصحابة في البلدان
التف حولهم طلاب العلم ، يستمعون الى آرائهم
ويحفظون عنهم ، فنشأت عن ذلك مدارس فقهية ،
تمخضت في أواخر القرن الاول عن مدرستين
مشهورتين ، مدرسة الحجاز ومدرسة العراق ،
وتتميز الاولى بتقيد أصحابها بالحديث دون
الرجوع الى الرأي الا نادرا ، في حين تتميز الثانية
باستعمال الرأي أي الاجتهاد لحل كثير من المشاكل
دون الرجوع الى الحديث الا قليلا .

أما العلوم الانسانية والاجتماعية فلم تتطور
في العصر الاموي ولم تتغير كثيرا عما كانت عليه
في العصر السالف . والتطور القليل الذي سجلته
انما كان بتأثير القرآن والحديث ، اللذين وحدا
اللهجات وهذا الفاظ العربية وادخلا عليها
مصطلحات جديدة . وتأثير الفتوحات والتنظيمات

الادارية التي استلزمت ادخال كلمات جديدة استعربت واستعملت بدافع الحاجة اليها . ولم تزدهر هذه العلوم - وخاصة الاجتماعية منها كالتاريخ والجغرافيا وعلوم الاوائل كالطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والمنطق- الا في العصر العباسي ، عندما بلغت الحركة الفكرية عصرها الذهبي .

أما الشعر والنثر فقد تطور تطورا ملموسا ، فكانا صورة لتطور المجتمع الاموي ، هذا المجتمع الذي نشطت فيه العصبية ، وشجرت الاختلافات ونشأت الفرق وتضاربت السياسات .

فالشعر أصبح سلاحا سياسيا ، ووسيلة من وسائل الدعاية . وقد غالى الخلفاء والامراء من أجل ذلك ، في تشجيع الشعر والشعراء لاستخدامهم في أغراضهم السياسية ، وتأييد وجهات نظرهم وحزبياتهم . ورجعة واحدة الى تاريخ الادب العربي ، تبين لنا اثر الشعراء الثلاثة الامويين (الاخطل وجريز والفرزدق) في التوجيه السياسي آنذاك ، وفي توجيه الحرب الكلامية التي كانوا يعملون على اذكائهما .

غير اننا اذا التفتنا الى الحجاز نتفقد حالة الشعر فيه ، واثار السياسة في هذا الشعر لوجدنا ان وضعه في هذا القطر يختلف تماما عنه في الاقطار الاخرى ، فالامويون الذين نقلوا مركز الحياة السياسية من مكة والمدينة الى دمشق ، كان همهم الوحيد اقضاء أهل الحجاز عن السياسة وصرف انظار ابناء الاشراف والمهاجرين والانصار والغزاة عنها ، وذلك خوفا على نفوذهم وسلطانهم .

وعملا بهذه السياسة اتاحوا للحجاز حياة

مترفة هادئة ، فاذا هذه الحياة لا تلبث ان تعطي ثمارها ، ومن ثمارها ذلك الشعر الغزلي الرقيق الذي تحول فيما بعد الى مجون ، ومن أشهر شعراء هذا العصر : عمر بن أبي ربيعة القرشي والاحوص الانصاري .

أما الغزل الشريف البعيد عن الفحش ، فقد نما في بادية الحجاز ، ونشأ في بني عذرة وخزاعة ، ومثله ، في عصر بني أمية ، جميل بثينة وكثير عزة .

وأما طابع هذا الشعر على نوعيه : البريء والمجن ، فهو طابع الشعر الجاهلي وشعر صدر الاسلام مع فارق واحد ، هو عذوبة في الشعر الاموي ، ورقة لم تتوفر لشعر العصور السابقة ، والفاظ واشتقاقات لم تعرف من قبل ، وتجديد في بعض الصور الشعرية اقتضته طبيعة الحياة ، ومتطلبات الثقافة ، وحيوية المجتمع .

واذا القينا نظرة على حالة النثر في العهد الاموي ، فاننا نلاحظ تطورا ملموسا ، ابرزته احداث الجزيرة العربية ، وافضت اليه فتوحات المسلمين وانصرافهم الى دراسة القرآن وتأثيرهم به ، واهتمامهم بحفظ الاحاديث ، وتنافسهم في احياء تراث الجاهلية ، وقد ظهر هذا التنافس في العصر الاموي بعد ان بعثت العصبية القبلية ، التي خنقها العهد الاسلامي الاول وقضى عليها . كانت الكتابة في العصور السابقة تتميز بالبساطة والايجاز ، فتنوعت أساليبها في عصر بني أمية ، وتعددت طرقها وأغراضها ، وتأنقت الفاظها ورققت ، حتى اصبحت فنا خاصا ، له نظمه وقواعده . ونشأت على أثر ذلك دواوين الكتاب . واشتهر من ناثري ذلك العصر ، عبد

الحميد الكاتب (١٣٤ هـ) وعبد الله بن المقفع (١٤٣ هـ) .

وكما كان الشعر سلاحا ماضيا تستخدمه الاحزاب والعصبيات في صراعها السياسي ، فان النثر استخدم عن طريق الخطابة للدعايات السياسية ، واعتمد وسيلة للتفاخر والتفاضل في الصراع القائم بين الشيعة والزبيرية والخوارج والامويين ، واليمينية والعرب والشعوبيين ، وعلى الاخص الفرس .

واذا استعرضنا خطباء ذلك العصر ، لعدنا في طليعتهم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، والحسين وابن الزبير وابن الاشعث والمهلب والحجاج وخالد القسري ، والمختار الثقفي ، وقتيبة بن مسلم ، وسحبان بن وائل .

ثم في العصر العباسي أصبحت اللغة العربية ، نظرا للتطور الذي أصاب المجتمع ، بحاجة الى تطوير وتهذيب ، وتوسيع ، وضبط ، خصوصاً بعد ان أستقر العرب في الاقطار التي افتتحوها ، وخالطوا الاعاجم واحتكوا بهم ، وأصبح هؤلاء يشكلون مجموعة لا بأس بها من سكان البلاد . كانت اللغة العربية في هذا الدور شائعة في البلاد الفارسية ، وظلت تنتشر في هذه البلاد وتمتد ، فكان من أثر ذلك ان تأثرت بالمفردات والتراكيب الاعجمية ولجأ العرب الى اشتقاقات جديدة استدعتها التطورات الجديدة والحاجات الجديدة .

وقد نبغ في علوم اللغة والنحو ، الخليل بن أحمد الذي هذب صناعة النحو ونظمها ، وسيبويه الذي أخذ عن الخليل ، وكمل ما لم يكمله سلفه ، فوضع مؤلفه المشهور « الكتاب » .

وقد ازدهرت علوم اللغة ، وبخاصة النحو في مدينة البصرة ، ثم انتقلت رعاة هذه العلوم الى الكوفة ، فظهر الكسائي في القرن الثالث ، وكانت حركة الأبداع في النحو قد ركبت ، وأصبح الاهتمام مقصورا على الشرح والتلخيص . والجدير بالذكر ان الخليل بن أحمد هو أول من وضع المعاجم ، اذ وضع معجمه المعروف (كتاب العين) وهذا المعجم هو أول معجم في العربية ، ولم تظهر بعد هذا المعجم معاجم جديدة الا بعد مدة قرن . اذ ألف أبو بكر بن دريد معجم « الجمهرة في اللغة » .

وكان من الطبيعي ان تزحف العجمة ، وما يذهبها من ركاكة واضطراب بلاغي الى الشعر ، فأخذ الشعراء عن الاوزان العربية ، التي وعتها الاذن العربية ، فهب بعض رجال اللغة وأولهم الخليل لحماية الاوزان القديمة ، وضبطها ، فكان ان وفق الى استخراجها وحصرها وجعلها ١٥ وزناً ، ثم جاء الاخفش فتدارك النقص وزاد بحرا جديدا وسماه « المتدارك » فأضحت بحور الشعر ستة عشر بحرا .

وقد ادرك رجال اللغة مخاطر الركاكة التي طرأت على الاسلوب العربي نتيجة للمؤثرات الخارجية ، وادركوا كذلك العقبات التي تحول دون تذوق الاساليب العربية ، وضرورة اظهار بلاغة القرآن ، واقناع الاعاجم بها ، للرد على الزنادقة ، فكان من أثر ذلك ان بدأت الابحاث البلاغية تظهر على يد أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ثم الجاحظ وسواهما . ولكن الجهود المبذولة في هذا المضمار لم تثمر ثمرتها المرجوة الا في القرن الخامس الهجري على يد عبد القادر الجرجاني ، صاحب

كتابي « دلائل الاعجاز ، واسرار البلاغة » : النثر :

الشعر :

أما النثر فانه قد تطور أيضا ، بفضل العوامل التي ذكرناها ، وبما ترجم عن الفارسية من آثار أدبية ، وما نقل عن اليونانية من المسائل العقلية المنطقية . وكان لتطور الادارة أثر كبير في تطور النثر ، ومن مظاهر ذلك نشوء الاسلوب السهل المرسل ، بعد ان كان الاسلوب المتبع هو أسلوب الايجاز البليغ ، وسبب ذلك ان هذا الاخير لم يعد يفي بمتطلبات الحياة الواسعة الشاملة .

وقد تأثر النثر العربي بالنثر الاجنبي ، ويمثل هذا التأثير الظاهر ابن المقفع ، الذي عاصر المنصور ، والذي يعتبر أمام النثر في زمنه ، وكتابه « كلية ودمنة » خير دليل على التفاعل الثقافي ، بين العرب وسواهم .

ومن كتاب هذا الدور طاهر بن الحسين ، وهو من كتاب المأمون .

وكانت الكتابة على نوعين : الكتابة الادبية ، أو كتابة الترسل ، وهي التي كانت تصدر عن ديوان الرسائل في الدولة ، وتدعى بالرسائل السلطانية ، والرسائل الاخوانية ، التي كانت تتبادل بين الاصدقاء في المناسبات وقد ظهرت أولا في العصر الاموي ، ثم الرسائل الادبية ، وهي التي كان يكتبها البلغاء في الاخبار والسير والقصص ، أو في أي شأن من شؤون الدولة ، أو في النصيح والتوجيه والارشاد ، كرسالة الصحابة لابن المقفع ، ورسائل الجاحظ ومؤلفاته الكثيرة كالبخلاء والحيوان والبيان والتبيين .

وهذه الكتابة الادبية ادخلت باديء الامر على دواوين الدولة في أواخر العهد الاموي ، على يد عبد الحميد الكاتب ، ثم انتقلت الى

ساعد تطور الحياة الاجتماعية على تطور الشعر العربي في العهد العباسي وأسهم في تطور هذا الفن ايضا اهتمام الخلفاء واحتفاؤهم بالشعراء ، واقامتهم المواسم السنوية للقاء القصائد ومنح الجوائز ، وقلدهم في هذا النهج الامراء والولاة .

وقد ادى احتكاك الثقافتين العربية والفارسية الى اتساع آفاق الشعراء العرب ، واكتسابهم الكثير عن الادب الفارسي ، وكان ذلك اما عن طريق درس هذا الادب بصورة مباشرة ، واما عن طريق الاحتكاك بالادباء الفرس ، أو لكون بعض الشعراء في هذا العصر من أصل فارسي .

أما مواضيع الشعر ، فكانت صدى لحياة هذا المجتمع الجديد وتطوراته ، كالعصبية القبلية ، والعنصرية والحزبية ، وهناك عوامل أخرى تركت أثرها في شعر هذا الدور أهمها :

١ - الحياة المترفة الماجنة التي كانت ذات أثر بعيد في الناحية الوصفية من الشعر ، وما يرافق هذه الحياة من مجالس شراب ، وغناء ، وجواري ، وقيان .

٢ - الثراء الفاحش الذي كان يغرى الشعراء بمدح الخلفاء والولاة والامراء طمعا في عطائهم . وقد أدى ذلك الى ظهور التكلف في الشعر ، وتحوله في كثير منه الى صنعة .

وأشهر شعراء هذا الدور ، بشار بن برد ، وأبو نواس ، وأبو العتاهية ، ومسلم بن الوليد .

الموضوع ، ولم تظهر أية محاولات في تاريخ أعمال الخلفاء الراشدين ، وبطولات القواد الذين وجهوهم لفتح البلاد ، ونشر الدعوة .

وفي العهد الأموي ، بدأ العرب يعنون بتدوين التاريخ على شكل ضيق النطاق ، بطيء الخطى ، ولم ينضج هذا العلم ويتوسع ويثمر الا في العصر العباسي ، حيث ظهرت المؤلفات التاريخية بكثرة ، ولعل أهم الدوافع لذلك هي :

١ - رغبة العرب في معرفة ما ضيهم وتدوين احداثه .

٢ - تأثير شخصية الرسول واهتمام المسلمين باخباره واحاديثه ، لتكون مرجعهم في تنظيم حياتهم الدينية والمدنية .

٣ - الرغبة في تحقيق الانساب ، لان الرغبة في حفظ هذه الانساب وتناقلها والمفاخرة بها قد انتقلت الى العهود الاسلامية ، فأضيفت الى مفاخر الاجداد الجاهليين ، مفاخر اسلامية جديدة سجلها السابقون في الجهاد ، والاستشهاد . وقد قويت هذه الرغبة بعدما فرض عمر بن الخطاب توزيع العطاء وتقسيمة على المسلمين بالنسبة لدرجة قرباهم من النبي أو لسبقهم في الاسلام ، أو لجهادهم تحت رايته .

٤ - رغبة بعض الخلفاء في الاطلاع على اخبار الامم الغابرة ، قصد الاقتباس منها ، واستخلاص ما يمكنهم تطبيقه ، والعمل على منواله .

٥ - الصراع السياسي بين الاحزاب والفرق المختلفة ، لا سيما بين العرب والعجم ، بعد ان نشأت حركة الشعوبية ، وبدأت كل فئة تعتز وتباهي بمآثرها ، كما كانت الفرق الاسلامية تحرص

العصر العباسي ، ونمت ونضجت ونبغ فيها كثيرون ، اشهرهم : يحيى بن خالد البغدادي ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد .

وكذلك أدخل في هذا الدور التسجيع في المراسلات ، ثم ادخلت المقامات في أواخر القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمداني ، ثم الحريري .

الخطابة :

أما الخطابة ، فقد كان لها الصدارة في العهد العباسي لانها كانت إحدى الدعائم التي ساعدت على تثبيت حكم العباسيين وسلطانهم . وقد ازدهرت في العصر العباسي الاول ولكنها عادت وتقهقرت بعد ذلك ، واشهر خطباء العهد الاول : السفاح والمنصور والرشيد وجعفر الصادق والنفس الزكية : « محمد بن ابراهيم » .

التاريخ والجغرافيا :

كان العرب الاوائل في الجاهلية يتناقلون الحوادث التاريخية شفاهما ، وكذلك الاحداث الطبيعية التي تترك اثرها في الحياة العربية كانهيار سد مأرب ، أو عن القبائل الغابرة كعاد وتمود وسواهما .

وقد كانوا يحيكون حول هذه الحوادث الاساطير والخرافات ، فاذا هي مزيج من الحقيقة والخيال .

وكذلك كان العرب في جاهليتهم يتناقلون الاخبار عن حروبهم وانسابهم ، ويسهم في هذا النقل شعراؤهم . وعندما بزغ فجر الاسلام ظهرت المحاولات لتأريخ السيرة والمغازي ، وظلت الجهود في عصر الخلفاء الراشدين منصبة على هذا

وعلى الجملة ، فقد ظهرت مواهب الاطباء غنية خصبة خلال العصر العباسي ، واثروا بمؤلفاتهم المكتبة العربية وظلت هذه المؤلفات مصدرا ومرجعا تعتمد عليه الجامعات الاوروبية في تدريس هذه المادة ، ونبغ فيهم أمثال الرازي الذي بحث في الحميات ذات البثور ، كالحصبة والجذري وأمراض الاطفال وعلم التشريح ، وعلي ابن العباس الذي كتب في الطب النظري والطب العملي ، والرئيس ابن سينا الذي ذكر عدوى النسل الرئوي وكيفية انتقاله ، ووصف اعراض حصى المثانة وحصى الكلية ، كما ذكر عن تشخيص الامراض العصبية ما يلي : « ان المبادئ التي منها نسير الى معرفة أحوال الدماغ هي من الافعال الحسية ، والافعال الحسية اعني التذكر والتفكير والتصور وقوة الوهم والحدس ، والافعال الحركية ، وهي أفعال القوة المحركة للأعضاء بتوسط العضل ، ومن كبر الرأس وصغره ، ومن جودة شكله ، ومن ثقل الرأس وخفته ، ومن حال لون العين وعروتها ، وسلامتها ومريضها وملمسها ، ومن حال النوم واليقظة ، ومن حال القوى والافعال في الاعضاء المشاركة للدماغ مثل الرحم والمعدة والمثانة » ، كما يوجد لابن سينا بحث مستفيض في البول .

وقد نقلت كتب هذا النطاسي البارع الى أكثر لغات العالم ، وظلت مرجعا عاما للاطباء ، وأساسا للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وايطاليا طوال ستة قرون . ولم ينقطع اطباء جامعة مونبلييه عن شرح نظرياته وتدريس كتبه الا منذ أقل من قرن .

على حفظ ذكرها وأعمالها وتاريخها ، لا سيما الشيعة .

٦ - الرغبة في فهم الادب العربي القديم .
٧ - الرغبة في كسب عطف ملك أو خليفة أو وزير أو أمير ، اذ كان بعض كتاب السيرة يسجلون سيرة سلطان ما ، كما فعل الضبي في كتاب سيرة السلطان محمود الغزنوي .

٨ - النزعة النقلية في العلوم العربية التي دفعت العلماء العرب الى الاهتمام بالاسناد ، الامر الذي حملهم على البحث في سير الرجال وتقسيمهم الى طبقات .

٩ - نصح الحياة العقلية الادبية ، الذي أدى الى ازدهار العلوم العربية على اختلافها ، ومنها التاريخ الذي أهتم به العرب اهتماما ملحوظا .
المطب :

كان فن الطب شائعا عند الامويين ، وقد اشتهر فيه كثير ، ومعظمهم من الذميين . وكثيرا ما كان الخلفاء يعتمدون على اطبائهم في التخلص من اعدائهم السياسيين .

أما في العصر العباسي ، فقد ازداد هذا العلم وكثر الاطباء ، وزاد أكرام الخلفاء لهم ، والمنصور أول من أدخل اطباء نيسابور الى بغداد . وكان يبالغ في حفاوة طبيبه الخاص جرجس بن بختيشوع ، والرشد كان يدعو لطبيبه جبرائيل ابن بختيشوع في صلاته ، ويروى ان هذا الطبيب أثرى اثراء فاحشا في عهد الرشيد ، حتى ان ثروته كانت تقدر بنحو ثمان وثمانين مليون درهم . ولما مات سلمويه طبيب المعتصم ، بكاه الخليفة وحضر جنازته .

الجراحة :

ان أبا القاسم القرطبي هو أشهر جراحي العرب ، وهو الذي اخترع كثيرا من آلات الجراحة ورسمها في كتبه ، والذي قال فيه العالم الطبي الكبير (هلر) : كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر :

أما الآلات الجراحية التي كانت تستخدم في العصر العباسي فهي :

أولا : المبضع : ويستعمل لقطع اللحم عامة ،
ثانيا : الصنارة : وتستعمل للجذب ،
ثالثا : المخروط : ويستعمل لقطع اللحم الزائد في الأنف .

رابعا : المحك : ويستعمل لحك الاجفان ،
خامسا : المسعط : ويستعمل لتقطير الادهان في الأذن .

سادسا : المشروط : ويستعمل لبشق الاورام ،
سابعا : المثقب : ويستعمل لثقب الحصة وتسليك البول .

ثامنا : المكبس : ويستعمل لكبس اللسان بغية رؤية الحلق .

الوقاية :

هذا وقد عرف في هذا العصر علم الوقاية فانشئت المصحات واقيمت المستشفيات ، وبرع الكثير من اطبائه في الصيدلة وتحضير العقاقير الطبية من اشربة وكحول ومستحلبات ، وكان ابن سينا أول من غلف الحبوب ، والصيدالة منذ عصر المأمون يخضعون للتفتيش المستمر والمراقبة الشديدة .

والكتب التي وضعت في هذا الفن كثيرة ،

نذكر منها (الادوية المفردة) للغافقي و (المعنى في الادوية المركبة) لابن البيطار ، وكذلك (الجامع لمفردات الادوية والاعذية) الذي حوى أكثر من ألف وأربعمائة علاج بين حيواني ونباتي .
الفلك والكيمياء :

لقد برع العرب في الفلك ، فأقاموا المراصد في دمشق وسمرقند والقاهرة وفارس وطليطلة وقرطبة . وتوصلوا الى نتائج علمية لم يتوصل اليها العلم في أوروبا الا بعد ألف سنة ، ونبغ منهم في هذا لعلم كثير من أمثال البتاني والمقدوني وابناء موسى بن شاكر والبيروني .

تعلم العرب في هذا العصر اللاتينية والاسبانية ونقلوا عنهما ، حتى اذا اشتد عودهم وتمثلوا ما نقلوه ، بدأت شخصيتهم العلمية تظهر وتنمو . ولم يلبثوا كما يقول غوستاف لوبون « ان ادركوا ان التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، فانطلقوا من قيود التلمذة لليونان . واخذوا يختبرون مسائل العلم ويجربونها » .

قال (دولنبر) صاحب تاريخ علم الفلك :
« اذا عددت بين الاغريق راصدين أو ثلاثة ثم نظرت الى العرب ، امكنك ان ترى بينهم عددا كبيرا من الرصاد » .

وأما في الكيمياء ، فان خالد بن يزيد الاول المتوفى عام ٨٥ هـ ، هو أول من أدخل الكيمياء . وقد كان للامام جعفر الصادق الهام في هذا العلم ، وقد علمه لتلميذه جابر بن حيان . ومن أشهر الكيميائيين في العصر العباسي ، الكندي والفارابي والزهراوي وابن سينا .

الملاحة :

واقتحم العرب البحر فحاضوا عبابه ، واذلوا بأساطيلهم متونه ، واستخدموا في الملاحة البوصلة ، فكانوا بذلك أول من استخدم هذا الاختراع الصيني في أسفارهم .

الجيولوجيا :

وبحثوا في الجيولوجيا وتحولات الكرة الأرضية وأعلن ابن سينا ان هذه التحولات انما هي نتيجة بطيئة تمت بتعاقب الدهور . وجاء علم الأرض الحديث، يثبت صحة هذه النظرية .

علم النبات :

كما بحث علماء العرب النباتات واستخدموا الكثير منها في أغراض طبية ، وأنشأوا لها الحدائق وزرعوا فيها اندرها وأجودها .

الفنون الجميلة :

من المعلوم ان فن كل أمة يتأثر بالذوق الخاص الذي يعبر تعبيرا صادقا عن طبيعة هذه الأمة وعواطفها وعن المؤثرات والمعتقدات والاهوام والخرافات والتقاليد التي مرت في حياة تلك الأمة . كما يتأثر فنها أيضا بما ورثته عن غيرها من الأمم السابقة .

والفن العربي قد تأثر بهذين العاملين : تأثر الى حد بعيد بتعاليم الإسلام من حيث إباحتها لبعض الفنون وتحريمها للبعض الآخر ، وكانت له بالتالي صلة قوية بفنون من قبل العرب من الفرس والبيزنطيين ، حتى أن كثيرا من العلماء حينما لاحظوا تلك الصلة زعموا انه ليس للعرب فن مبتكر . والحقيقة ليست كذلك ، لان أية أمة من الأمم لا مندوحة لها من اقتباس بعض آثار الأمم التي تقدمتها اذا أرادت أن تبلغ ذروة الإبداع

ويقول غوستاف لوبون في هذا الصدد : « انك لا تجد عالما يونانيا استند في مباحثه الى التجربة ، مع انك تعد مئات من العرب الذين قاومت مباحثهم الكيميائية على التجربة ، فجاور ابن حيان استاذ لـ (لافوازيه) أبي الكيمياء الحديثة » .

الفيزياء :

عرف العرب في هذا العصر الفيزياء والميكانيك ، واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والرئبق والحديد والذهب . وابتكروا فن الدباجة وتسقية الفولاذ ، وثبت علميا انهم هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار .

الرياضيات :

تعلم العرب في العصر العباسي العلوم الرياضية الآتية :

الحساب بقسميه: التبريري الذي تستعمل فيه الادوات الكتابية ، والهوائي أي الذهني . وقد استعمل العرب الصفر والكسور العشرية ، وبحثوا في استخراج المجهولات بطرق مختلفة ، كاستخراجها بالتناسب وبحساب الخطأين وبطريقة التحليل والتعاكس . وهم الذين اخترعوا الجبر . وأول من ألف في هذا العلم الخوارزمي . كما طبق العرب الجبر في علم الهندسة . وبذلك جمعوا بين الهندسة والجبر ، وحتى اعتبروا واضعي الهندسة التحليلية . وألفوا كتبا كثيرة في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية وتقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، وأضافوا الشيء الكثير على المثلثات ، حتى أضفى علما عربيا مستقلا .

الفني ، وفي هذا يقول (باسكال) : أنه يجب عد سلسلة الادميين الذين ظهوروا بتعاقب القرون انسانا واحدا حيا في كل زمان محصلا للمعارف على الدوام .

أجل لقد استفاد العرب والاعريق والرومان والعبريون والفينيقيون وجميع الامم الغابرة من انتاج من سبقهم ، ولو اقتصر فن كل أمة على ما ابتكرته فقط ، دون الرجوع الى ما قد مضى، لكان الفن ناقصا عند الجميع ففن كل أمة اذا هو استمرار لما تقدم مضاف اليه بعض ما تزيده عليه . ونسبة ما تكون هذه الزيادة جلية واضحة في فن أمة من الامم ، بنسبة ما يحكم على فنها بكونه مبتكرا أو غير مبتكر .

وان المتأمل بالرقعي الفني الذي بلغه العرب في العصر العباسي خاصة ، لا يسعه الا الحكم بأن للعرب فنا مبتكرا ورثته الحضارة من بعدهم ، وقلدتهم في أشياء كثيرة منه ، لا تزال آثارها جلية واضحة في كثير من ارجاء المعمورة .

١ - الفنون الصناعية :

وقد اتقن العرب من الفنون الجميلة ما يأتي : وهذه تشتمل على صناعة الخزف والزجاج والصياغة والفسيفساء ، وهي شائعة في كل مكان في دنيا العرب ، وتتجلى في أنفس الادوات واثمنها التي لا تزال حتى اليوم تنسجم مع الذوق العربي ، بل ومع غيره من الاذواق .

ليس أدل على ذلك من القصور الفخمة التي بناها الخلفاء والامراء في مدينة بغداد ، حيث كان اثاث هذه القصور المزدان بالرياش والفراش بالغ العظمة .

أما صنع التماثيل وصناعة التصوير فلم يكثر بهما العرب قبل هذا العصر ، وتجاهلوهما تجاهلا كلياً في صدر الاسلام ، لان النبي صلى الله عليه وسلم حظر على المسلمين تصوير الالهة وذوات الحياة ، وحارب الاصنام والتماثيل ، وامن في محاربتها ، وشنع على عبادها ، وكسر ما كان منها في الكعبة ، كما كره في التصوير والمصورين ، الامر الذي حمل المسلمين الاولين على اشباع طبيعتهم الفنية بالالتجاء الى التفنن في الخط بدل التصوير وفي الذكر بدل الرقص ، وفي التجويد لآيات القرآن بدل الغناء . ولما كان الاسلام لم يحظر على المسلمين سوى تصوير الالهة وذوات الحياة رأينا العرب قد اهتموا بتصوير الحيوان والنبات وصنعوا كثيرا من تماثيل الحيوانات الوهمية ، التي صنعت في الواقع لفرض معين لا للفن نفسه ، مما يحملنا على القول بأن النحت والتصوير عند العرب لا يدل على نبوغهم ، نتيجة تأثرهم كما أسلفنا بالاعتقاد الديني الذي يحرمه عليهم ، كما لم يترددوا في وضع صور ذوات الحياة على كثير من الاواني العربية . مثال ذلك : اناء (سان لوييس) الذي استخدم زمنا طويلا في تعميد الصبيان في فرنسا والموجود حاليا في متحف « اللوفر » في باريس . على ان العرب وان لم يبدعوا في فني النحت والتصوير ، فانهم قد ابدعوا كثيرا في الصناعة المعدنية والصياغة وسائر الحرف الاخرى ، وبلغ اتقانهم لبعضها مبلغا يتعذر على ابناء هذا القرن أن يأتوا بأجود منه ان لم أقل بمثله . فقد كانت آيتهم واسلحتهم مكفنة بالفضة ومموهة بالهنياء المفروض ومرصعة بمختلف الاحجار

الثمينة وكان ابداعهم في صنع القطع الجبيلة من البلور الفني الموشح بالصور والصكم ما يلفت الانظار ، ويؤيده ذلك الابريق البلوري الموجود في متحف « اللوفر » الى الآن .

ومما انتشر عند العرب تطعيم الادوات الاواني المختلفة، مثل الخزف والقاشاني والنحاس والخشب ، بمواد ثمينة، كالعاج والصدف، وكذلك تكفيت المصنوعات المعدنية ، يدل على ذلك قول السيد (لافوا) : لصناعة التكفيت عند الشرقيين طرق كثيرة ، فالتكفيت يتم بادخال خيوط من الذهب أو الفضة الى فرض محدثة في المعدن بالمنقاش ، واسعة القعر ، ضيقة الوجه ، وتكون تلك الخيوط بارزة أو مسواة على حسب رأي الصانع ، وتارة تتركب كما يفعل في دمشق زهرة دقيقة من الذهب أو الفضة على الفولاذ أو النحاس من بين خطين متوازيين ، فتطرق اطراف طرقا خفيفا ، فينجم عن ذلك ما يشبه الاطار ، وتارة يمر الصانع ، كما يفعل في القاهرة ، منقاشه المهمازي الشكل بسرعة على المعدن الذي يرغب في زخرفته ، فيركب خيط الفضة بالمدق على تلك الاجزاء المعدنية وكذلك اشتهر العرب بادخال الفسيفساء - هذه المادة الثمينة - في القصور والمآذن والقباب حتى في التحف الصغيرة كالخنجر والدواة .

٢ - تخطيط المدن :

كان العرب عند قيامهم ببناء مدينة ما يراعون الوضع الصحي والصربي والجمالي ، فيكتثرون من المنتزهات والحدائق والبرك والفوارات ، ويحيطون المدينة بالخنادق والاسوار . وأهم المدن التي بنيت في العهد الاموي : القيروان في أفريقيا ، وقد بناها عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ . وكانت عاصمة المسلمين في المغرب ، ولا يزال محراب عقبة في مسجدها ، ومأذنة هشام حتى اليوم .

وواسط في العراق ، وقد بناها الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان على ضفتي دجلة ليقيم العرب فيها ، ومنهم الشاميون بنوع خاص .

ولما دخل في الاسلام عدد كبير من الفرس والروم ، ممن كان لهم ذوق في الفنون ، وامتزج الفن العربي بفنهم ، أدى ذلك الى تطوير الفن الصناعي عندهم ، فقد حوروا الرسوم المحرمة الى رسوم مباحة من هندسية ونباتية ، ونبغوا في فن الزخرفة وادخلوه الى ابنيتهم ، وتفننوا في

٢ - السنساد : وهو اللحن الثقيل ذو الترجيع
الكثير النغمات والنبات .

٣ - الهزج : وهو الخفيف .

وعندما انتقلت الخلافة من الحجاز الى الشام
اغدق الامويون على الشباب الطامح الى الخلافة
الهبات والاموال والعطايا ليشغلهم عنها . فعكف
الشباب على اللهو وانفقوا أموالهم على المڠنين
والمڠنيات . وتوافد الى مجالس الغناء في مكة
والمدينة والكثير منهم ، فكان في الحجاز ابن سريع
والغريض ومعبد وحنين وابن محرز وجميلة وهيڤا
وطويش . وحبابة وسلامة والزرقاء وابن مسجع .
أما أهم آلات الطرب فهي : الدف ، المربع ،
القصة ، والمزمار ، العود ، والناي .

بهذا انتشر الغناء الرفيع وازدهرت الموسيقى
عند العرب وترقى فن العمارة بشكل مذهش
لا تزال شواهده قائمة في بلاد المجد المفقود : في
قرطبة واشبيلية والحمراء . ولقد اثرت الفنون
العربية لا سيما في العصر العباسي تأثيرا كبيرا
في فنون الدول الاوروبية ، وعلى الاخص في فن
عمارته .

قال باتيسيه : « انه لا يجوز الشك في أن
البنائين الفرنسيين أخذوا عن العرب في القرنين
الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد ، كثيرا من
العناصر المعمارية المهمة والزخارف الفنية الجميلة .
افلم نجد في كاتدرائية بواي التي هي من أهم
البنائيات النصرانية بابا مستورا بالكتابات
العربية ؟ أولم تقم في اربونة وغيرها حصون على
حسب الذوق العربي ؟ ، وقد ذكر مسيو لانورمان
الذي لم يكن أقل حجة من باتيسيه : « ان تأثير

كما أبدع العرب في بناء المساجد ومناربها
وقببها ومآذنها وعقودها ، برعوا في بناء القصور
والدور والمدارس والمارستانات والقناطر والجسور
والحمامات ، وما تزال المساجد الاسلامية صورة
رائعة لتطور الفن العربي ، عهد ذلك ، والحضارة
الاسلامية .

وأهم مزايا الفن العربي في البناء :

١ - القرنصات : وهي تشبه خلايا النحل
وتكون في شقوق المباني وواجهات العمارات .

ب - القبب : ذاعت في العمائر الاسلامية وهي
منبسطة الشكل أو بصليته تزين سطوحها
بالقاشاني الأخضر ، ومن أجل ذلك سميت
الخضراء ، وأشهرها خضراء معاوية في دمشق ،
وخضراء الحجاج في واسط .

ج - شرفات الابنية : وتبنى على شكل
اسنان المنشار .

د - الاقواس : ومنها المدبب ، والمستدير .

٣ - الموسيقى والغناء وآلات الطرب :

كان للعرب قبل الاسلام أنواع من الغناء ،
كاغانى القوافل والأغانى الحربية والدينية
والغرامية . ومنها ما لا يزال موجودا في التلبية أثناء
الحج ، وفي تجويد القرآن وترتيله . وكان الحدا
أقدم أنواع الغناء عند العرب ، وقد شاع الغناء
في الحجاز على ثلاثة الحان .

١ - النصب : وهو غناء القيان والركنان

ويقال في المراثي .

وخلاصة القول ان تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية كان عظيما وجليلا . فالعرب هم الذين ابدعوا في جميع العلوم والفنون ابداعا مختلفا كثيرا عن الحضارات التي عرفتھا البشرية عند الامم الغابرة وهم الذين فتحوا لاوروبا ابواب المعرفة من علمية وأدبية وفلسفية وظلوا اساتذة لها مدة ستة قرون وكانت حضارتهم خير نواة للحضارة الغربية الحديثة .

ولعل خير ما اختتم به هذا البحث كلمة « سبنسر » الآتية :

« لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ أسما عربيا . ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسا عربيا . ولا يقدر أي قاض أن يبت اليوم في اختلاف دون أن يستدعي مبدأ املتته العرب . ولا يستطيع أي طبيب أن يتلمس دائرة احد الامراض المعروفة منذ القدم دون ان يهمس بأراء طبيب عربي » .

العرب واضح في كثير من الكنائس الفرنسية ، مثال ذلك كنائس ماغيلون وكانده انغاماش . وقد تحدث « شار بلان » عما اقتبسهُ الاوروبيون عن العرب فقال : « أرى من غير مبالغة ، فيما لاحدى الامم من التأثير في أمة أخرى ، ان الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه فن العمارة العربي من الشبابيك وشرف المآذن والافاريز ، ادخلوا الى فرنسا المراقب والجوامق والابرار والاطناف ، التي استخدمت في العمارات المدنية والحربية ، في القرون الوسطى » ولقد تجلى في اسبانيا على الخصوص تأثير العرب المعماري العظيم ، الذي غفل عنه العلماء الاوروبيون انفسهم ، وقصر « شافوبيه » الذي شيد في القرن الحادي عشر من الميلاد كان على طراز قصر طليطلة العربي ، وقد أمر بأنشائه « لازفونش السادس » بعد ان طرده اخوه والتجأ الى العرب في طليطلة ودرس قصرها وعاد الى مملكته ، واشبيلية حافلة بذكريات العرب ، فلا تزال بيوتها تبني على الطراز العربي ، ولا يزال الرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية .



ابن عساكر: أخذ وعطاء

د. بشار عواد معروف

جامعة بغداد



رحل الحافظ ابن عساكر الى بغداد رحلتين : اولاهما سنة ٥٢٠ هـ وهي الرحلة الرئيسية التي استمرت قرابة الخمس سنين ، وثانيتهما سنة ٥٣٣ هـ عند انتهاء رحلته الى مشرق العالم الاسلامي (١) .

وكانت الدولة العباسية خلال هذه الفترة قد أخذت تستفيق وتحاول اعادة مجدها وبسط سلطانتها الذي لم يبق السلاجقة منه ما يذكر ، وظهرت بوادر تلك الیقظة بظهور شخصية عباسية عظيمة هي شخصية الخليفة المسترشد بالله ٥١٢ - ٥٢٩ هـ (٢) . وكان المسترشد يوم ولي الخلافة في عز قوته : شابا لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، محاول جامدا الحد من نفوذ المتغلبين على الخلافة كبنی مزيد وغيرهم ، وبأشـر الحروب بنفسه ، ثم أخذ يتطلع الى شيء أعظم من ذلك : هو ابعاد النفوذ السلجوقي من الخلافة العباسية ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير والسلاجقة في عز قوتهم وسلاطینهم الاتویاء مثل السلطان محمود وولده مسعود يسيطرون على دفة الامور . وعلى الرغم من أن هذا الخليفة العظيم قتل سنة ٥٢٩ نتيجة لمؤامرة بين الباطنية والسلاجقة فإنه كان طلائعيا فتح الباب على مصراعيه لمن جاء بعده للوقوف بوجه النفوذ السلجوقي ، قال مؤرخ الاسلام شمس الدين الذهبي : « كان ذا همة

عالية وشهامة واقدام وراي وهيبة شديدة ، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب ، وأحيا ريم الخلافة ونشر عظامها ، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمالها ، وبأشـر الحروب بنفسه ، وخرج عدة نوب الى الحلة والموصل وطريق خراسان » (٣) . ومن أجل كل ذلك كان المسترشد بالله يتقرب الى شعبه ويتمسك بدينه لسمع الحديث من أبي القاسم ابن بيان وعبد الوهاب بن هبة الله السبيعي وغيرهما ، بل قرأ عليه المحدث محمد ابن عمر بن مكسي الأهوازي أجزاء الحسن بن عرفة بسامعه من ابن بيان ، فكان ابن الأهوازي يقرأ عليه والخليفة سائر بقرب المدائن لقتال دبیس بن صدقة المتغلب على الحلة (٤) . وهذا ابنه الراشد حذوه في الحرب ، لمحاربة السلطان وخلعه (٥) . وولي المتغلب لأمير الله سنة ٥٣٠ هـ حيث لزم الصمت مدة حتى اذا وجد الفرصة مواتية بعد ذلك قال : « لا صبر على الضيم بعد اليوم » وطرده الشئنة (وكيل السلطان) واستولى على أملاكه وأملاك المويدين للسلاجقة ، وبأشـر الحروب بنفسه فقاد الجيوش وملك العراق من أقصى الكوفة الى حلوان ومن تكريت الى عبادان ، وعاون في ذلك وزيره العالم الجليل ابن هبيرة (٦) .

وكانت بغداد في مطلع القرن السادس من اعظم المراكز العلمية العربية الاسلامية ولا سيما في العلوم الدينية ، كالحديث والفقه وتوابعهما كالتاريخ والأدب

واللغة ، ولا ادل على مكانتها من ذلك العدد الضخم من متعيني الرواة الذين عاشوا فيها أو قصدوها من شتى بقاع العالم الاسلامي والذي يظهر من ضخامة الذيل الذي وضعه أبو سعد ابن السمعاني على تاريخ الخطيب ، وعلى الرغم من ان الفترة الزمانية التي تناولها الكتاب لا تزيد على القرن الواحد ٤٦٣ - ٥٦٢ مانه كان بحجم تاريخ الخطيب تقريبا (٧) .

وبدأت المدارس تنتشر في هذه المدينة منذ منتصف القرن الخامس الهجري انتشارا كبيرا ، متوجة بانشاء المدرسة النظامية سنة ٤٥٩ هـ والتي أصبحت منسارا للعلم ومقصدا لطلبته (٨) .

ولم تكن بغداد منطقة جذب للعلماء بسبب مكانتها العظيمة حسب ، لكنها ، وهي دار العلم آنذاك ، كانت تقص على طريق الحجاج القادمين من مشرق المعالم الاسلامي الزاخر آنذاك بطائفة عظيمة من مشاهير العلماء ، فكان هؤلاء ينتهزون هذه الفرصة عند المرور ببغداد للسمع أو التحدث بها فيوفر كل ذلك على الطالب القادم اليها تعباً في لقاء هؤلاء الشيوخ (٩) .

وتد اسهم المحدثون المسلمون خلال تلك العصور في الحفاظ على الوحدة الثقافية بين أرجاء الوطن العربي والعالم الاسلامي برحلاتهم الكثيرة الطويلة وتنقلهم بين مدنه وأقاليمه ، ونشر راية اللغة العربية في أرجائه . وكان المسلمون يعتبرون العالم الاسلامي كله موطناً وداراً لهم ، وبذلك توحدت الصلات بين أجزائه بالرغم من اختلاف حكامه (١٠) .

وكانت العلاقات الثقافية بين دمشق وبغداد قائمة على قدم وساق منذ اقدم العصور ، لكنها توحدت بشكل اكبر خلال هذه الفترة ، فقد رحل عالم بغداد ومؤرخها الخطيب البغدادي مثلا الى دمشق غير مرة ومكث فيها فترة طويلة لم يكتف بها في مدينة أخرى سوى بغداد ، وكان يعقد مجلسه في الجامع الأموي بدمشق يحدث بمصنفاته ومصنفات غيره رغم سيطرة الفاطميين عليها ومدم ارتياحهم من نشاطه العلمي (١١) .

وكثيرا ما كان الدماشقة يرحلون الى بغداد ، بل ويستوطنهما بعضهم ، فالحافظ أبو القاسم ابن السمرقندي ولد بدمشق سنة ٥٤٤ هـ وسُبح بها ثم رحل

به وبأخيه أبوها المقرئ أبو بكر أحمد في حدود سنة ٤٦٩ هـ وسكنوها ، وأصبح ابن السمرقندي بعد ذلك من اعظم علماء بغداد في عصره الى حين وفاته سنة ٥٣٦ هـ (١٢) . وقدم أبو عبد الله الحسين بن الحسن المقدسي الحنفي المقرئ من الشام الى بغداد وهو في السابعة عشرة من عمره سنة ٤٧٠ هـ فاستوطنها وفتحه بها وولي امامة فشهد أبي حنيفة بها (١٣) .

وكانت عائلة عائلة الحافظ أبي القاسم ببغداد قوية جدا ، فقد رحل اليها جده لأمه القاضي أبو الفضل يحيى ابن علي بن عبد العزيز القرشي الأموي (٤٤٣-٥٣٤) وسُبح بها من عبد الله بن طاهر التميمي الفقيه وغيره ، وتلقه بها على الفقيه أبي بكر الشاشي ، كما أنه مر بها عند ذهابه الى الحج سنة ٥١٠ هـ (١٤) .

ورحل اليها خاله ، بل ان خاله زين القضاة أبا المكارم سلطان بن يحيى (ت ٥٣٠) صلى التراويح بالنظامية ، ووعظ بها ، وخلع عليه الخليفة هناك (١٥) . ورحل أخوه الصائن هبة الله بن الحسن (٤٨٨ - ٥٦٣) الى بغداد سنة ٥١٠ هـ (١٦) ، وحج سنة ٥١١ هـ ورجع اليها وبقي فيها حتى سنة ٥١٤ هـ (١٧) .

وكانت رحلة الحافظ أبي القاسم مع العلم وطلبه قد بدأت منذ طفولته ، حيث تلقن القرآن الكريم (١٨) ، وأخضر مجالس السماع ، واستجاز له أهله كبار العلماء ابان طفولته ، ثم أخذ هو يسمع بنفسه . والظاهر انه كان يتشوق الى الرحلة الى البلدان الأخرى ولا سيما بغداد ، لكن أهله كما يبدو لم يكتوه من ذلك في أول الأمر ، فلما بلغ الحادية والعشرين من عمره سمحت له أمه بالسفر الى بغداد ، لكنها اشترطت عليه الا يرحل الى مشرق العالم الاسلامي (١٩) . ولم يكن الصافي ابنا عاتيا يخالف ارادة أمه لا سيما ان آداب طلب العلم تقتضي استئذان الأبوين في الرحلة (٢٠) ، ووجوب طاعتهمسا وبرهما وترك الرحلة مع كراهتهما ذلك وسخطهما (٢١) .

وكان الحافظ - رحمه الله - في أشد الشوق الى الرحلة الى بغداد فقد حكي زين الأمان ابن عساكر لعمر بن الحاجب ان أبا القاسم لما عزم على الرحلة اشترى جبلا وتركه بالخان فلما رحل القفل تجهز وخرج فوجد الجبل قد مات ، فقال له الجماعة الذين خرجوا

لوداعه : ارجع لما هذا قال مبارك ، وفندوا عزمه ، فذكر لهم أن مثل هذا لا يفتي عزمه ، وأنه لابد من الرحلة حتى مشيا على قدميه ، ثم حمل خروجه واكثرى من الركب بعيرا (٢٢) .

ومما لا شك فيه انه وصل بغداد قبل شهر رجب من سنة ٥٢٠ هـ ، وهو الشهر الذي توفيت فيه شيخته البغدادية ماطية بنت عبد القادر ابن السماك ، وقد ذكر الذهبي انها اقدم شيوخه ببغداد ومائة (٢٢) . وإذا استثنينا ذهابه الى الحج سنة ٥٢١ وسماحه هناك (٢٤) ورجوعه الى دمشق لفترة (٢٥) فانه بقي ببغداد حتى سنة ٥٢٥ هـ . ونحن نعلم ايضا انه كان بدمشق في شوال سنة ٥٢٥ هـ وهو الشهر الذي توفي فيه شيخه أبو علي الحسن بن سلمان (٢٦) النهرواني مدرس النظامية (٢٧) فقال في كتاب تبیین كذب المفتري : نورد علي بعد عودي من بغداد كتاب الشريف أبي المعمر المبارك بن أحمد بن عبد العزيز الأنصاري فذكر انه توفي في يوم الاثنين الخامس من شوال سنة خمس وعشرين وخمسة (٢٨) .

أما الرحلة الثانية الى بغداد فكانت رحلة قصيرة من ضمن رحلاته العامة الى المشرق التي ابتدأها سنة ٥٢٩ فتوقف ببغداد سنة ٥٣٣ وسمع على شيوخها ايضا ، وحدث بها ، ثم عاد الى دمشق ليبدأ نشاطه العظيم في عطاء علمي غزير هادف لم ينقطع طيلة حياته .

ويبدو ان أبا القاسم الدمشقي لم يرحل غير هاتين الرحلتين الكبيرتين ، ودلالة ذلك انه حينما عاد الى دمشق سنة ٥٣٣ كان يأمل أن تحصل بعض نسخ سماعاته من رفيقه أبي علي ابن الوزير ، وحينما تأخر وصول النسخ ولم يصل أحد من رفاقه كان يقول : « فلا بد من الرحلة الثالثة » ثم وصلت اليه ومرج بها ولم يرحل (٢٩) .

وهكذا كانت رحلته الاولى وهي أطول رحلاته مخصصة لعاصمة الثقافة آنذاك بغداد ، أما الثانية فكانت غايتها الرئيسة مشرق العالم الاسلامي ، لكن بغداد لم تغب عن نفسه فمرج عليها بعد انتهاء رحلته المشرقية .

وحينما وصل أبو القاسم الى بغداد وأطلب على حضور الدروس بالمدرسة النظامية (٢٩) ، وكان شيخه

مدرس النظامية الحسن بن سلمان بن عبد الله ابن الفتي النهرواني الأصبهاني ، نزل بغداد . وقد ولي تدريس النظامية في أول رحلة ابن عساكر الى بغداد وبقي مدرسا بها الى حين وفاته في شوال سنة ٥٢٥ هـ . وكان ابن عساكر من المعجبين به ، قال : « وولي تدريس المدرسة النظامية ببغداد إذ كنت بها وكان ممن يملأ العين جمالا والأذن بيانا ويربي على أقرانه في النظر لأنه كان انصحههم لسانا (٣٠) .

ودرس الخلاف ببغداد على الشيخ أبي سعد اسماعيل بن أحمد بن عبد الملك النيسابوري (٥١) - ٥٣٢ (٣١) وكان شيخا ذا رأي وعقل وتدبير ومصل وأمر (٣٢) ، قال ابن عساكر : « كان اماما في الأصول والفقه حسن النظر مقدما في التفكير .. لقيه ببغداد سنة احدى وعشرين وخمسة وسمعت منه (٣٣) » . الا أن عناية أبي القاسم الدمشقي انصببت ببغداد ، وبغيرها فيما بعد ، على سماع الحديث ، فانطلق فيه حتى طغى على كل تفكيره ، واستغرق كل حياته بعد ذلك ، فسمع مالا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء ، ولقي ببغداد مئات عديدة من الشيوخ والشيخات ، يدل على ذلك مجمع شيوخه ، كما تدل عليه تأليفه . وأصيب بالشرف في سماع الحديث وقراءته حتى كان يسمع من أناس قد لا يرضى عنهم ، فقد سمع مثلا من أبي المعالي ثعلب بن جعفر بن أحمد السراج (٣٤) المتوفى سنة ٥٢٤ وهو « عامي لا يدري شيئا انما سمعته أبوه بدمشق .. وعاد به الى بغداد » (٣٥) ، وسمع من أبي الأعز قرانكين ابن الاسعد بن مذكور التركي البغدادي الأزجي (٣٦) المتوفى سنة ٥٢٤ وقد سئل عنه فقال فيه : « ما كان يعرف شيئا » (٣٧) ، وسمع عبيد الله بن محمد البيهقي الخسروجدي (٣٨) المتوفى سنة ٥٢٣ ، وقال ابن السمعاني : سألت عنه أبا القاسم الدمشقي ، فقال : ما كان يعرف شيئا (٣٩) . وسمع من أبي السعود أحمد بن علي بن محمد ابن المجلي (٤٠) المتوفى سنة ٥٢٥ « ولم يكن يعرف شيئا من الحديث ، وكان يعظ ويذكر بجامع العصر » (٤١) ، وروى عن عبد الله بن محمد بن نجا ابن شاتيل المراتبي الدباس (٤٢) المتوفى سنة ٥٢٥ ايضا « وكان لا يعرف شيئا » (٤٣) ، وقال عن شيخه أبي عمرو عثمان بن أحمد بن عبيد الله بن دحروج البغدادي النصري (٤٤) المتوفى سنة ٥٢٧ : « ما كان يفهم

شيئا « (٤٥) ، وقال عن شيخه أبي منصور أحمد بن محمد بن أحمد ابن السلال الوراق الناسخ المتوفى سنة ٥٢٨ وقد روى عنه في معجم شيوخه (٤٦) : « وكان بنس الشيخ قليل الصلاة » (٤٧) وهلم جرا .

ان عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم أبو القاسم ببغداد يفوق مددهم في أية مدينة أخرى يدل على ذلك معجم شيوخه حيث نجد فيه مئات عديدة ، لكنه أكثر عن بعضهم نظرا لمكانتهم العلمية وما حصلوا عليه من اسناد عال في الرواية ، قال رفيقه المحدث أبو المواهب الحسن ابن هبة الله ابن مصري الربيعي البلدي الاصل الدمشقي الدار والوفاء المتوفى سنة ٥٨٦ (٤٨) :

« اما انا فكنيت اذاكراه في خلواته عن الحفاظ الذين لقيهم فقال : اما ببغداد فأبى هاجر العبدري » (٤٩) . وكان أبو هاجر محمد بن سعدون بن مرجى القرشي العبدري الميوسري نزيل ببغداد المتوفى سنة ٥٢٤ أحد الحفاظ المذكورين والعلماء البرزين ، ومن كبار الفقهاء الظاهرية : قال أبو القاسم : « كان فقيها على مذهب داود ، وكان أحفظ شيخ لقيته » (٥٠) .

وقد أدرك الحفاظ ابن عساكر ببغداد سند العراق العظيم أبا القاسم هبة الله بن محمد ابن الحسين الشيباني الهمداني الاصل البغدادي (٣٢ - ٥٢٥) ، وكان من الشيوخ الثقات الواسمي الرواية ، وقد تردد برواية مسند الامام أحمد ، وأحاديث أبي بكر الشافعي واليشكريات (٥١) .

وسمع بها من أبي العز أحمد بن عبيد الله ابن كادش المكبري البغدادي (٤٣٦ - ٥٢٦) وكان آخر الرواة عن أنفسي القضاة أبي الحسن الماوردي (٥٢) . ومن أبي الحسين محمد بن محمد بن الحسين ابن الفراء البغدادي الحنبلي المقتول سنة ٥٢٦ صاحب طبقات الحنابلة (٥٣) .

وأخذ الحفاظ عن أبي الحسن علي بن عبيد الله ابن الزاغوني (٤٥٥ - ٥٢٧) شيخ الحنابلة ببغداد . وكان أمانا فقيها ، متبحرا في الأصول والفروع ، متفنا ، واعظا ، مناظرا ، ثقة ، مشهورا بالصلاح والديانة والورع والسميطة وكثرة التصانيف (٥٤) .

وأكثر عن أبي القاسم هبة الله بن أحمد بن عمر

البغدادي الحريري المقرئ المعروف بابن الطبر (٤٣٥ - ٥٣١) خال الحافظ عبد الوهاب الانطاكي ، وهو من الشيوخ المعبرين المقرئين الثقات العارفين بالعربية (٥٥) .

وأخذ عن أبي منصور عبد الرحمن بن محمد بن زريق الشيباني القزاز البغدادي الحريري (٤٥٣ - ٥٣٥) وكان قد سمع التاريخ من الخطيب ورواه (٥٦) .

ومن كبار شيوخه البغداديين أيضا القاضي أسو بكر محمد بن عبد الباق بن محمد الانصاري البغدادي الحنبلي البزاز المعروف بقاضي المارستان (٤٤٢ - ٥٣٥) قال الذهبي : « مسند العراق بل مسند الآفاق .. روى عنه خلق لا يحصون منهم من مات في حياته ومنهم من تأخر » (٥٧) .

وسمع الكثير على أبي القاسم اسماعيل بن أحمد ابن السمرقندي المولود بدمشق سنة ٥٤٤ والمتوفى ببغداد ٥٣٦ الذي كان واحدا من أعظم علماء بغداد (٥٨) بحيث كان الحافظ أبو العلاء العطار الهمداني يقول : ما أعدل بأبي القاسم السمرقندي أحدا من شيوخ العراق وخراسان ، وقال ابن عساكر في حقه : كان ثقة مكثر صاحب أصول ، وكان دلالا في الكتب .. وعاش الى أن خلت بغداد وصار محدثها كثرة واسنادا ، وقد أملى في جامع المنصور في أيام الجمع زيادة على ثلاث مئة مجلس » (٥٩) .

وسمع ابن عساكر أيضا من الشيخ الحافظ الثقة المتقن الكثير السماع الواسع الرحلة أبي البركات عبد الوهاب بن المبارك الانطاكي (٤٦٢ - ٥٣٨) (٦٠) ، قال ابن السمعاني : جمع الفوائد وخرّج التخاريج . ولعله ما بقي من العالي والنازل جزء الا قرأه وحصل نسخته اما بخطه ، او بخط غيره . ونسخ الكتب الكبار مثل طبقات ابن سعد وتاريخ الخطيب . وذكره أبو موسى المدني في معجمه ، فقال : حافظ عصره ببغداد (٦١) .

ومنهم أيضا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خيرون البغدادي المقرئ الديباس (٥٤٢ - ٥٣٩) ، وهو من الشيوخ المعبرين الثقات البارعين في القراءات . حدث بكتاب النسب للزبير بن بكار عن ابن

المسلمة ، وسبغ أكثر تاريخ الخطيب وكان ينسخه ويبيعه (١٢) .

وروى الحافظ أبو القاسم عن عدد من الشيوخ اللائي التقى بهم في بغداد وسبغ عليهن ، منهن :

فاطمة بنت عبد القادر بن أحمد بن الحسين ابن السبائك الواظلة ، وتدمى المبارك المتوفاة سنة ٥٢٠ ، قال الذهبي : « وهي أقدم شيخ توفي له ببغداد » (١٣) .

وفاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلويس الرازي . العالمة المعروفة ببنت حمزة ، قال الذهبي : « واعظة مشهورة ببغداد متعبدة لها رباط يأوي اليه النساء . روت عن ابن المسلمة ، وأبي بكر الخطيب . روى عنها أبو القاسم ابن عساكر ، وقال : توفيت في ربيع الأول (١٤) » (سنة ٥٢١) .

وفاطمة بنت أبي الحسن علي بن الحسين بن جندأ العكبري البغدادية المتوفاة سنة ٥٢٦ (١٥) .

وكريمة بنت الحافظ أبي بكر محمد بن أحمد بن الخاضبة المتوفاة سنة ٥٢٧ . روت عن أبي الحسين ابن النثور . قال ابن السمعاني : رايت نسخة لتاريخ بغداد كاملة بخطها (١٦) .

ومهناز بنت يانثس الرومي ، أم بشارة البغدادية . سمعت من أبي جعفر ابن المسلمة « صفة المناقب » . روى عنها أبو المعمر الأنصاري وابن عساكر ، وتوفيت سنة ٥٣٠ وقد نبت على التسعين (١٧) .

اثر بغداد في تكوينه الفكري :

كان أبو القاسم طيلة حياته ببغداد لا يكل عن السماع والتحصيل ولا ينقطع عنها وكان رفقته في الطلب ، ومنهم ابن مصري « ت ٥٨٦ » يدركون هذا الحماس في الدراسة والتحصيل ، فكان ابن مصري يقول : « ما كنا نسبح الشيخ أبا القاسم ببغداد الا شغلة نار من توقده وذكاية وحسن ادراكه » (١٨) فجمع من العلم ما لم يجمعه غيره « ورجع بعلم جم وساعات كثيرة » (١٩) ، ولا أدل على ضخامة زاده من بغداد تلك الروايات الكثيرة التي نقلها عنهم في كتبه ، ففي المجلدة الأولى من تاريخ دمشق نجد يورد أكثر من مئة وعشرة

نصوص عن أبي القاسم ابن السمرقندي ، وأكثر من خمسين نصا عن ابن الحصين ، وقرابة الأربعين نصا عن ابن البناء ، والثلاثين نصا عن محمد بن عبد الباقي الأنصاري ، وهلم جرا (٢٠) .

وصل ابن عساكر الى بغداد وهو في مطلع شبابه : في الحادية والعشرين من عمره وبقي فيها قرابة الخمس سنوات لم ينقطع فيها عن التحصيل والدرس . وهذه الفترة ، في رأينا ، هي التي اثرت تأثيرا عظيما في تكوينه الفكري وطبعته بطابع أهل بغداد المحبين للحديث وروايته ودراسته حبسا شغلهم عن كثير من العلوم الأخرى . وفي بغداد كانت المشارب التي أخذ منها أبو القاسم متنوعة التثوع كله ، ففي شيوخه اشاعرة وسلفية منهم الرمن وفهم المتعصب لمعتنقه ، وهو لم يترك احدا استطاع مجالسته والسماع عليه والأخذ عنه ، فعلى الرغم من اشعريته التي ورثها عن عائلته ، ودفاعه من الاشاعرة والذب عنهم ما استطاع الى ذلك سبيلا (كما يتضح من كتاب التبيين) فانه ما كان ليحجم عن الأخذ من شيوخ كانوا يعادون الاشاعرة ، فقد أخذ مثلا لا حصرا ، عن القاضي أبي الحسين محمد ابن القاضي أبي يعلى محمد ابن الفراء الحنبلي البغدادى المتوفى سنة ٥٢٦ هـ صاحب طبقات الحنابلة وقد قال فيه السلفي الحافظ : « كان أبو الحسين متعصبا لمذهبه وكان كثيرا ما يتكلم في الاشاعرة ويقول مبهم وبسببهم » (٢١) .

وبسبب اتصال الحافظ أبي القاسم بشيوخ من مشارب مذهبية وعقائدية متنوعة وجهه واحترامه لهم ، وجدناه ينشأ على غاية من النزاهة من التعصب الذي عرف به كثير من الاشاعرة وخصومهم . ولم يكن تحقيق تلك النزاهة والمرونة في تلك الأعمار من الأمور الهينة والبيئة الدمشقية والبغدادية آنذاك مشحونة بها .

وعلى الرغم من اشعرية الحافظ ابن عساكر فقد اتصل اتصالا هائلا بالحديث والمحدثين يذكرونا باتصال الحنابلة به ، فقد أفنى عمره في سماع الحديث وروايته ، والد معظم كتبه في هذا المجال الذي أخذ بجماع نفسه .

وتتمثل تبة التاريخ عند الحافظ ابن عساكر اتصالا وثيقا بالحديث . وهو أمر يعكس مفهومه وفلسفته

٤ - الف ابن عساكر تاريخه بعد الخطيب ولا ريب انه استفاد بعض طريقته في التنظيم وحسنتها بما يتلائم وتكوينه الفكري وذوقه التاريخي المتصل بالحديث والمحدثين .

من كل ذلك نستطيع القول ان شهرة تاريخ الخطيب ومكانته ودخوله في الكتب الروية قد شجعت الحافظ ابن عساكر على القيام بمشروعه العظيم لتاريخ مدينة دمشق في الاقل ، ولا بد انه اعاد من طريقته سواء اكان ذلك في اتباع بعضها ام في تجنب البعض الآخر او تحسينه . ولا يشك باحث بان غزارة مادة ابن عساكر في تاريخ دمشق اعظم من تلك التي في تاريخ بغداد للخطيب ولا سيما في الخطط وسعة التراجم .

المطاء :

حينما قدم ابن عساكر الى بغداد اعجب به البغداديون وقالوا : قدم علينا من دمشق ثلاثة ما رأينا مثله : الشيخ يوسف الدمشقي ، والصالن ابو الحسين هبة الله بن الحسن ، واخوه ابو القاسم (٧٢) . وقد بدأ عطاؤه ببغداد قبل دمشق ، ففي رحلته الاولى خرج لشيخه ابي غالب احمد بن الحسن بن احمد ابن البناء البغدادي الحنبلي « ٤٤٥ - ٥٢٧ » مشيخة (٧٤) ذكر ابن الديلمي انها في نحو عشرة اجزاء تكلم على احاديثها واحسن (٧٥) . وسبق منه مفيد بغداد ابو بكر المبارك ابن كامل بن ابي غالب الخفاف البغدادي الظفري (٤٩٠ - ٥٤٣) وهو اسن منه (٧٦) ، قال ابن الجوزي : « انتهت اليه معرفة المشايخ ومقدار ما سمعوا والاجازات لكثرة دريسته في ذلك (٧٧) » . وتوفي المبارك بن كامل الخفاف قبل ابي محمد مكى بن المسلم بن علان آخر الرواة عن الحافظ ابن عساكر بمئة وتسع سنين ، فقد كانت وفاة ابن علان في سنة ٦٥٢هـ (٧٨) .

ونظرا للمكانة المرموقة التي احتلها ابن عساكر ببغداد فانه كان يسأل عن الرواة من حيث الجرح والتعديل فتؤخذ اقواله فيهم وتعتبر عندهم اقصى حدود الاعتبار (٧٩) .

فقد اقام الحافظ ابن عساكر بعد رجوعه الى دمشق علاقات وطيدة مع جملة من علماء بغداد ، نبتى تبادل المعلومات العلمية بينهم قائما (٨٠) ، وكان يحرص

في الدراسة والمطاء ، فالتاريخ عنده ليس اكثر من معين لمعرفة صحيح الحديث من سقيه في اغلب الاحيان ، لذلك وجدناه يعنى بالتراجم نهاية فائقة ويؤثر المحدثين من المترجمين على من سواهم في كتبه ولا سيما في تاريخه العظيم لمدينة دمشق .

وقد استعمل الحافظ مناهج البحث عند المحدثين في عرض الروايات التاريخية ، فاستعمل الاسناد بشكل كبير في كتبه ولا سيما تاريخ دمشق . وبعد استعمال الاسانيد عند اهل الحديث من ادق طرق ذكر المصادر ، نبغ ما نعجب اليوم بالحواشي الموصوفة في البحوث الحديثة ، كانت الاسانيد عند اسلافنا هي هذه الحواشي الموصوفة بل اكثر دقة والتزاما .

كما يتضح اثر الحديث في مياغته للترجمة ونوعية المادة التي بوردها فيها : من اسم ، ونسبة ، ومولد ، وولادة ، وشيوخ ، وتلاميذ ، وتقويم واحكام ، وهو الاطار الذي وضعه المحدثون ، وهو احدهم ، لعناصر الترجمة التي انتقلت منهم الى غيرهم من المعنيين بالتراجم (٧٢) .

ويذكر ابن خلكان ان ابن عساكر الف تاريخه لدمشق على نسق تاريخ بغداد للخطيب . ومع اننا لا نريد ان نعقد مقارنة بين الكتابين لنرى مصداق هذا القول ، كما لا نريد الدخول في البحث عن اول من الف تاريخا تراجميا لمدينة على نسق الخطيب من سقيه لكن علينا ملاحظة جملة أمور من ابرزها :

١ - ان ابن عساكر سائر الى بغداد وهو في الحادية والعشرين من عمره ولم يكن قد بدأ بجمع مادة تاريخ دمشق جمعا منظما يهدف الى تأليف كتاب عن مدينته .

ان كتاب الخطيب كان كتابا مرموقا عند المحدثين والمعنيين بالرواية ، فعلى الرغم من ضخامته كان يروى في المجالس ويسمعه الطلبة على الشيوخ ، وقد راينا بعض ذلك عند كلامنا على شيوخ ابن عساكر البارزين من اهل بغداد واهتمامهم بهذا الكتاب .

٣ - ان الهيكل العام للكتابين متشابه فهو يبدأ بمقدمة خطمية ويتناول بعد ذلك تراجم اهل المدينة ومن وردوا من اعلام الناس أو حل بها .

على لقاء البغداديين القادمين الى دمشق (٨١) يسبح عليهم ويذاكرهم أو يسمعون عليه ويذاكرونه .

وها نحن اولاء نرى كيف آمن اسلافنا العظماء بالوحدة بين أرجاء الوطن العربي وطبقوها تطبيقاً عملياً، وعمتها لقاءاتهم المستمرة . واننا على يقين من أن مثل هذه الامور تقدم لنا مثلاً رائعاً في الايمان بحتية اللقاء والتوحد ، لا سيما والامة تمر بظروف عصيبة يشمر ابناءؤها بانهم محاويج دائماً الى وحدة متينة تجمع شملهم بعد طول تفرق ، وتلم شعثهم بعد التمزق الذي كابدوه طيلة عصور التخلف والظلام ، فتزيد في قوتهم اليوم قوة متجددة .

ملحق

ترجمة الحافظ ابن عساكر

في كتب المؤرخين البغداديين غير المنشورة

يتضمن هذا الملحق ثلاث من التراجم غير المنشورة التي وضعها مؤرخون بغداديون للحافظ ابي القاسم ابن عساكر وهم :

١ - الحافظ معين الدين ابو بكر محمد بن عبد الغني البغدادى الحنبلي المعروف بابن نقطة المتوفى سنة ٦٢٩ هـ حيث ترجم له في كتابه « التقييد لمعرفة رواة السنن والمسائيد » . وقد اعتمدت نسختي المصورة من النسخة المحفوظة في المكتبة الازهرية تحت رقم ١٣٧ مصطلح الحديث .

٢ - الحافظ جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الديبشي المتوفى سنة ٦٣٧ هـ في تاريخه الذي ذيل به على ذيل ابن السمعاني على تاريخ الخطيب وهو المعروف بـ « ذيل تاريخ مدينة السلام ببغداد » . وتقع ترجمة الحافظ ابن عساكر في المجلد المحفوظ بمكتبة جامعة كمبرج في انكلترا . وقد حققت هذا الكتاب وتبنت وزارة الثقافة والفنون في العراق طبعه بنقلاتها فظهر منه المجلد الاول سنة ١٩٧٤ وترجمة ابن عساكر من هذا التاريخ لم تنشر حتى الآن .

٣ - الحافظ مخب الدين ابو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادى ، شيخ دار الحديث بالمدرسة المستنصرية المتوفى سنة ٦٤٣ هـ في تاريخه الذي ذيل به تاريخ الخطيب البغدادى والمعروف بـ « التاريخ المجدد لمدينة السلام واخبار فضلها الاعلام ومن وردھا من علماء الانام » ، وهو تاريخ حاصل يقع في ثلاث مئة جزء حديثي ، لكن الزمان قد اتى على معظمه فلم يصل اليها منه غير مجلدين : المجلد العاشر في دار الكتب الظاهرية بدمشق (رقم ٤٢ تاريخ) والحادي عشر في دار الكتب الوطنية ببغداد (رقم ٢١٣١ عربي) ، وهما من اصل نسخة اظنها تتكون من خمسة عشر مجلداً ، وفي خزانة كتبي نسختان مصورتان لهذين المجلدين . والمروى ان تقع ترجمة الحافظ ابن عساكر في المجلد الذي بالظاهرية الذي يبدأ في اثناء من اسمه « عبد الملك » ولسوء الحظ مان نسخة الظاهرية فيها خرم عند هذه الترجمة نأذهب بمعظمها ولم يبق منها الا مجزأها في أول الورقة ٢١٣ . لكننا في الوقت نفسه وجدنا مختصر هذه الترجمة في انتقاء للحافظ شهاب الدين احمد بن ابيك الدمياطي الحسامي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

من هذا التاريخ سماه « المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » حيث توجد النسخة الفريدة منه بخط المنتقي بدار الكتب المصرية تحمل الرقم ٢٩٦ وفي خزانة كتبي نسخة مصورة عنها . كما نقلت من ترجمة ابن النجار للحافظ ابن عساكر ، مؤرخ الاسلام شمس الدين الذهبي في كتبه ولا سيما في كتابه العظيم « تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام » وكتابه الآخرين « سير اعلام النبلاء » و « تذكرة الحفاظ » . واقتطف تاج الدين السبكي قليلاً منها في « طبقات الشافعية الكبرى » فاندنا من كل ذلك في اعادة الترجمة بعد المقارنة بين مختصر الدمياطي وما وصل اليها منها في نسخة الظاهرية، وما اقتطعه المؤرخون منها .

وتدتمت بتحقيق هذه التراجم الثلاث وعلقت عليها تعليقات مختصرة غايتها ضبط النص وتدقيقه

وتحقيقه ودفع ايها قد يتبع نبيه القاريء ، وتوضيح
ايها قد يتأتى من ورود بعض الاسماء المختصرة .

اولا :

قال ابن نقطة في التقييد : الورقة ١٧٧ - ١٧٨ .

علي بن الحسن بن هبة الله ، أبو القاسم بن
مسار الحافظ الدمشقي .

سمع بدمشق من الشريف أبي القاسم علي (٨٢) بن
ابراهيم بن العباسي الحسيني المعروف بابن أبي الجن ،
وأبي الوحش سنبع (٨٣) بن المسلم بن قيراط ، وغيث (٨٤)
ابن علي الارمنازي . وبغداد من أبي الحسن علي (٨٥)
ابن عبد الواحد بن احمد الدينوري ، وأبي نصر احمد (٨٦)
ابن عبد الله بن رضوان ، وأبي القاسم بن الحصين (٨٧) ،
وأبي الحسين محمد (٨٨) بن محمد ابن الفراء ، وأبي
الأحرار تاركين (٨٩) بن الاسعد بن المذكور ، وأبي العز
أحمد (٩٠) بن عبيد الله بن كادش . وأبي بكر محمد (٩١) بن
الحسين المزري ، في آخرين . وبأصبهان من أبي الفرج
سعيد (٩٢) بن أبي الرجاء الصيرفي ، والحسين (٩٣) بن
عبد الملك الخلال ، وأبي القاسم اسماعيل (٩٤) بن محمد
ابن الفضل الحافظ وبنيسابور من أبي عبد الله محمد (٩٥)
ابن الفضل الفراوي ، وأبي محمد هبة الله بن سهل
السدي (٩٦) ، زاهر (٩٧) بن طاهر الشحامي ، وأخيه
وجيه (٩٨) . وبهراة ، ومرو من جماعة .

وحدث بأكثر مسوعاته .

وكان حافظ ثقة في الحديث .

وصنف كتاباً منها : تاريخ دمشق ، وكتاب الاطراف ،
وغرائب مالك ، وشيوخ الكتب الستة (٩٩) ، وغير ذلك .

حدث عنه أبو سعد السمعاني ، فقال : هو حافظ
متقن ، جمع بين معرفة المتن والأسانيد ، ورحل في طلب
الحديث ، وجمع منه ما لم يجمع غيره . ورد بغداد سنة
عشرين وخمس مئة . مولده في العشر الآخر من المحرم
سنة تسع وتسعين وأربع مئة .

قلت : توفي الحافظ أبو القاسم بن مسار في ليلة
الاثنين حادي عشر من رجب من سنة إحدى وسبعين
وخمس مئة .

حدثني عبد الله بن أبي الفضل ، قال : سمعت
الحافظ عبد القادر بن عبد الله الرهاوي يقول : قد رايت
الحافظ أبا طاهر السلفي ، والحافظ أبا العلاء الهذلي ،
والحافظ أبو موسى بأصبهان ، ما رايت فيهم أحفظ ، أو
قال : مثل ، أبي القاسم بن مسار .

ثانياً :

قال جمال الدين ابن الديلمي في الذيل (الورقة
١٣٦) (١٠٠) :

علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن
الحسين بن مسار ، أبو القاسم بن أبي محمد الحافظ .
من أهل دمشق .

من أشهر فضله وعلمه ، وشاع ذكره وحفظه ،
وعرف انتائه وصدقه .

سمع الكثير ببلسه ، والعراق ، والحجاز .
وخراسان . وكتب الكثير ، وحصل ما لم يحصله غيره .
ورزقه الله حسن التوفيق فيما صنّعه والف ، فجمع
تاريخاً للشام وبسطه وأجاد في جمعه وخسنه ، وغيره
من الكتب في علم الحديث وفنونه .

وقدم بغداد مرتين : اولها في سنة عشرين
 وخمس مئة . وسمع فيهما الكثير من أبي القاسم ابن
الحصين ، والبارع أبي عبد الله الدباس (١٠١) ، وأبي
العز بن كادش ، وأبي غالب ابن البنشاء وخرج له
مشيخه (١٠٢) في نحو عشرة أجزاء وتكلم على احاديثها
وأحسن ، ومن أبي بكر المزري ، وأبي القاسم
الشروطي (١٠٣) ، وأبي القاسم الحريري (١٠٤) ، وأبي
منصور بن زريق (١٠٥) ، والقاضي أبي بكر الانصاري (١٠٦) ،
واسماعيل (١٠٧) ابن السمرقندي ، وعبد الوهاب (١٠٨)
الانماطي ، وخلق يطول ذكرهم .

وسمع بنيسابور من زاهر الشحامي وأخيه جيه ،
وأبي عبد الله الفراوي ، وغيرهم .

وعاد الى بلده ، وحدث بالكثير ، وسمع الناس
منه سنين .

وبنى له نور الدين محمود بن زنكي أمير الشام دار

الحديث بدمشق ووقف عليها وقتاً تصرف غلته الى
المشتغلين عليه بالحديث فيها .

وكان موثقاً في أعماله وتصنيفه .

حدثنا عنه أبو جعفر أحمد بن علي القرطبي بمكة .
وغیره .

وذكره تاج الاسلام أبو سعد ابن السمعاني في
كتابه الذي كتابنا هذا مذيلاً عليه موصلاً بالفضل والحفظ
والإتقان ، وروى عنه فيه الكثير . وذكرناه نحن لأن
وفاته تأخرت عن وفاة ابن السمعاني على ما شرطناه .

حدثنا أبو جعفر أحمد بن علي بن عتيق المغربي
لفظاً بالمسجد الحرام في حجتنا الأولى سنة تسع وسبعين
 وخمسة مئة ، قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن
الحسن بن عساكر قراءة عليه بدمشق ، قال : أخبرنا
أبو الحسن مكي بن أبي طالب البروجردي بقرأتي عليه
بسنى (١٠٩) ، قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن
محمد الصيدلاني بنيسابور ، قال : أخبرنا أبو طاهر محمد
ابن محمد بن محمّد الزياتي ، قال : حدثنا أحمد بن
محمد بن يحيى بن بلال ، قال : حدثنا يحيى بن الربيع
المكي ، حدثنا سليمان بن عيينة ، عن أيوب بن موسى ،
عن ثوبان بن وهب ، عن أبان بن عثمان ، عن عثمان فبلغ
بها النبي ﷺ قال : « لا تنكح المحرم ولا تخطب » .

أبنا أبو المحاسن عمر (١١٠) بن علي القرشي
الدمشقي ، قال : سألت الحافظ أبا القاسم ابن عساكر
عن مولده فقال : في محرم سنة تسع وتسعين وأربع
مئة . وتوفي في حادي عشر رجب سنة إحدى وسبعين
 وخمسة مئة .

وقال غيره : في ليلة الاثنين ، وصلى عليه يوم
الاثنين ، ودفن عند أبيه وأهله .

ثالثاً :

وقال ابن النجار البغدادي (١١١) :

علي بن الحسن بن هبة الله بن الحسين ، أبو
القاسم بن أبي محمد بن أبي الحسين الشافعي ، عرف
بأبن عساكر .

من أهل دمشق .

هو (١١٢) إمام المحدثين في وقته ، ومن انتهت اليه
الرئاسة في الحفظ والإتقان ، (والمعروفة التامة بعلوم
الحديث والثقة والنبل وحسن التصنيف والتجويد) (١١٣)
وبه ختم هذا الشأن .

روى (١١٤) عنه جماعة وهو في الحياة وحدثوا عنه
بالإجازة في حياته .

سمع بإفادة أخيه الأكبر في سنة خمس وخميس
مئة من أبي الحسن ابن الموازيني (١١٥) ، وأبي القاسم
النسيب (١١٦) ، وأبي الوحش سبيع بن قيراط المقرئ ،
وأبي طاهر الحناني (١١٧) . وسمع هو بنفسه من والده ،
وأبي محمد ابن الأكتائي (١١٨) ، وأبي الحسن بن
تبيس (١١٩) ، وطاهر بن سهل الأسفراييني (١٢٠)

وحج في سنة إحدى وعشرين . وسمع بمكة أبا
محمد عبد الله (١٢١) بن محمد بن اسماعيل المصري .
ورحل الى العراق في سنة عشرين . وسمع الكثير
ببغداد من ابن الحصين ، وأبي الحسن الدينوري ، وأبي
العز بن كادش ، وأبي القاسم الحريري ، ومحمد بن عبد
الباقى الأنصاري ، في آخرين . وسمع بالكوفة الشريف
أبا البركات عمر (١٢٢) بن إبراهيم الزيدي .

وعاد الى بغداد فأتاه بها يسمع الحديث والفقه
والخلاف بالمدرسة النظامية (١٢٣) ، ويكتب ويحصل
خمس سنين . ثم عاد الى دمشق .

ورحل الى خراسان على طريق أذربيجان ، ودخل
نيسابور في سنة تسع وعشرين ، وسمع أبا عبد الله
الفراوي ، وأبا محمد السيدي ، وزاهراً الشحامي ،
وأخاه وجيهاً . وبعث من يوسف (١٢٤) بن أيوب
الهمداني . وسمع ببسطام ، ودامغان ، والري ،
وزنجان ، وسمنان .

وعاد الى دمشق يملئ ، ويحدث ، ويصنف .

وسمع منه جماعة من شيوخه .

وكان إماماً ، حجة ، ثقة ، نبيلاً .

حدث ببغداد ، وروى عنه من أهلها أبو بكر بن
كامل ، وكان أسن منه (١٢٥) .

قال سعد الخير (١٢٦) : ما رأينا في سن الحافظ أبي

من تأخره في الرحلة الأولى من المجيء الى أصبهان
نقال لم تأذن لي أمي (١٢٤) .

(وقال السمعاني : أبو القاسم كثير العلم غزير
الفصل حافظ ، ثقة ، متقن ، دفين ، خير ، حسن السمت ،
جمع بين معرفة المتون والأسانيد . صحيح القراءة ، متثبت
محتاط . رحل وتعب وبالع في الطلب الى أن جمع ما لم
يجمع غيره ، وأرسل على أقرانه . ودخل نيسابور قبلي
بشهر أو نحوه في سنة تسع وعشرين لمسمع بقرامتي
وسمعت بقرامته مدة مقامنا بها ، الى أن اتفق خروجه
الى هراة وخروجي الى أصبهان . واجتمعت به ببغداد
بعد رجوعه في سنة ثلاث وثلاثين ، وسمعت منه كتاب
« المجالسة » بدمشق ومعجم شيوخه . وكان قد شرع
في التاريخ الكبير لمدينة دمشق وصنف التصانيف وخرج
التخاريج (١٢٥) . وبعد انصرافي الى خراسان كانت
كتبه تصل الي واندد اليه جوابها .

كتب الى أبو محمد القاسم بن علي بن الحسن بن
هبة الله الشافعي ، قال : ولد أبي في المحرم سنة تسع
وتسعين وأربع مئة .

سمعت يوسف بن خليل بن عبد الله الدمشقي
يطلب يقول : سمعت أبا محمد القاسم بن علي ابن
هبة الله الشافعي يقول : توفي والدي ليلة الإثنين ثاني
عشر رجب سنة إحدى وسبعين وخميس مئة ، ودفن
بمقابر باب الصغير .

القاسم مثله ، وله من المصنفات : التاريخ . الاشراف
على معرفة الأطراف . المعجم ، لا سيما شيوخه .
المواصفات من شيوخ الأئمة الثقات ، اثنتان وسبعون جزءا .

قلت : وأملى أربع مئة مجلسا في جامع دمشق ،
وكان يخطبها بابيات من شعره . ولقد سمعت شيخنا
عبد الوهاب (١٢٧) بن علي الأمين يقول (١٢٨) كنت يوما
مع الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وأبي سمعد ابن
السمعاني فمشي في طلب الحديث ولقاء الشيوخ ، فلتقينا
شيخنا فاستوقفه ابن السمعاني ليقرا عليه شيئا ، وطاف
على الجزء الذي هو سماعه في خريطته (١٢٩) فلم يجده
وضاق ، فقال (١٣٠) له ابن عساكر : ما الجزء الذي هو
سماعه ؟ فقال : كتاب « البعث والنشور » لابن أبي
داود ، سمعته من أبي النصر ابن النرسي (١٣١) ، فقال
له : لا تحزن . وقرأ عليه من حفظه ، أو بعضه . الشك
من شيخنا .

وقرات (١٣٢) بخط الحافظ محمر بن الفاضل في
معجمه : أخبرني أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي
الحافظ من لفظة بنى املاء ، وكان أحفظ من رأيت من
طلبة الحديث والشبان . وكان شيخنا اسماعيل (١٣٣)
ابن محمد يفضله على جميع من لقيناهم من أهل أصبهان
وغیرها . قدم أصبهان ، وسمع ، ونزل في داري ، وما
رأيت شابا أورع ولا اتقن ولا أحفظ منه . وكان مع ذلك
مقبها سنيا — جزاء الله خيرا وكثر في الاسلام مثله — .
أمانتي في الرحلة الأولى والثانية ببغداد كثيرا . وسألته

الهوامش والمصادر :

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ٥٤/١ ، فما بعد ، وابن الكازروني

٢٢٤ .

(٦) ابن الجوزي : المنتظم ٦٠/١ ، فما بعد ، والبغدادي :
نواريح آل سلجوق ٢٢٤ ، وابن الأثير (هوانث ٥٢ ، فما بعد) وانظر
الظاهر : الشعر العربي في العراق ٢٣/١ .

(٧) انظر كتابنا : نواريح بغداد التراجمية (بغداد ١٩٧٤) ،
ومقدمتنا لتاريخ ابن الدبيتي ١٤/١ . وراجع السخاوي في الاعلام ،
ص ٦٢٢ .

(٨) انظر التفاصيل في كتاب المرحوم الدكتور ناجي معروف :
علماء النظاميات (بغداد ١٩٧٢) .

(١) ابن نقطة : التقييد ، الورقة ١٧٧ (نسخة الأزهر) ، وابن
الدبيتي : دليل تاريخ مدينة السلام ، الورقة ١٢٦ (مكتبة) ، والذهبي :
تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ٢٩١٧/١٤) وغيرها .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١٩٧/٩ ، فما بعد وابن الأثير : الكامل
(هوانث ٥١٢ ، فما بعد) ، وابن الكازروني : مختصر التاريخ ٢١٩
فما بعد .

(٣) تاريخ الاسلام ، الورقة ١٩٠ (احمد الثالث ٢٩١٧/١٤) .

(٤) ابن الدبيتي : دليل م (بتحقيقنا) وابن الجوزي : المنتظم
٢٢٢/٩ ، وسبطة ٩٧/٨ ، والذهبي : المختصر المحتاج ٨٢/١ .

- (٢٥) ابن خلكان : وفيات ٣٠٩/٢ .
- (٢٦) في تبين كتب المختري (٣١٨) : « سليمان » بحرف .
- (٢٧) ابن الجوزي المنتظم ٢٢/١ ، والسبكي : طبقات ٦٢/٧ ، وابن الاثير في الكامل ٢٥٦/١ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٨ (ابا صوفيا ٢٠١٠) .
- (٢٨) العميني : ١٧ / الورقة ٣٤ - ٣٥ .
- (٢٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) ، ياقوت : ارشاد ١٤٠/٥ ، السبكي ٢١٧/٧ .
- (٣٠) تبين كتب المختري ٣١٩ - والنظر الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٨ (ابا صوفيا ٢٠١٠) .
- (٣١) ياقوت : ارشاد ١٤٠/٥ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .
- (٣٢) هذا قول السمعاني كما نقله السبكي ٤٥/٧ .
- (٣٣) ابن مساك : تبين ٣٢٥ - ٣٢٦ .
- (٣٤) ابن مساك : معجم الشيوخ ، الورقة ٣٧ .
- (٣٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٦ (ابا صوفيا ٢٠١٠) .
- (٣٦) ابن مساك : معجم الشيوخ ، الورقة ١٦٦ .
- (٣٧) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩ (ابا صوفيا ٢٠١٠) .
- (٣٨) معجم الشيوخ : الورقة ٩٧ .
- (٣٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٢ من النسخة السابقة .
- (٤٠) معجم الشيوخ ، الورقة ١١ .
- (٤١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٧ من نسخة ابا صوفيا ٢٠١٠ .
- (٤٢) معجم الشيوخ ، الورقة ٩٤ .
- (٤٣) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٠ من النسخة اعلاه .
- (٤٤) معجم الشيوخ ، الورقة ١٣٥ .
- (٤٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٩ من النسخة اعلاه .
- (٤٦) معجم الشيوخ ، الورقة ١٣ .
- (٩) سجع ابن مساك على جملة من علماء المشرق ببغداد حينما قدموا اليها عند الحج انظر مثلا : معجم شيوخه : الورقة ١٠٤٨٤ ، ١٤٤١٢ ، ١٥٠٠ الخ . وراجع تاريخ الاسلام للذهبي ، الورقة ١٥٢ ، ١٧٩ (ابا صوفيا) .
- (١٠) انظر بحثنا : اثر دراسة الحديث في تطور الفكر العربي (بغداد ١٩٧٩) .
- (١١) انظر تفاصيل رحلات الخطيب الى دمشق في كتاب المرحوم يوسف العشي : الخطيب البغدادي ٣٨ - ٣٩ ، والمصري : موارد الخطيب ٤٣ - ٤٤ ، وراجع تاريخ الخطيب ٤٠٣/٩ ، ٤٧/١٤ ، والذهبي طكرة ١١٣٨ ولغيرها .
- (١٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٤١ - ٢٤٢ (ابا صوفيا ٢٠١٠) ، السبكي : طبقات الشافعية ٤٦/٧ ، وابن كثير : البداية ٢١٨/١٢ .
- (١٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٧١ - ٢٧٢ (ابا صوفيا ٢٠١٠) ، والعميني : عقد الجمان ١٦ / الورقة ١٤٧ .
- (١٤) انظر سبط ابن الجوزي ١٧٦/٨ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٣ ، (ابا صوفيا ٢٠١٠) ، والعبر ٩٣/٤ ، والعميني : عقد الجمان ١٦ / الورقة ١١٩ .
- (١٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٩٤ - ١٩٥ (ابا صوفيا ٢٠١٠) ، والعبر ٨٢/٤ ، وابن العماد في الشفوات ٩٥/٤ .
- (١٦) ونسخت في وفيات ابن خلكان الى : ٥٢٠ .
- (١٧) ابن خلكان : وفيات ٢١١/٣ (ط . احسان عباس) ، والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٩٢ (احمد الثالث ١٣/٢٩١٧) ، وابن كثير ٢٩٤/١٢ ، والاستوي في طبقات الشافعية ٢١٥/٢ - ٢١٦ .
- (١٨) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٩ (ابا صوفيا ٢٠١٠) .
- (١٩) نفسه ، الورقة ٤٢ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .
- (٢٠) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق السراوي وآداب السامع ، الورقة ١٧٠ (نسخة مكتبة البلدية بالاستكندرية رقم ٢٧١١ ج) .
- (٢١) نفسه ، الورقة ١٧١ - ١٧٥ .
- (٢٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .
- (٢٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٣٩ (ابا صوفيا ٢٠١٠) .
- (٢٤) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤ / ٢٩١٧) ، والورقة ١٧٢ (ابا صوفيا ٢٠١٠) .

كثير ٢١٩/١٢ وابن العماد في الشفارات ١١٦/٤ ، والعيني ١٧/ الورقة ١٢٧ .

(٦١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٥٧ (ايا صوفيا ٢٠١٠) .

(٦٢) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٩٦ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٨ (ايا صوفيا ٢٠١٠) وانظر : المنتظم ١١٥/١ ، وابن الاثير ٤٢/١١ ، والنجوم الزاهرة ٢٧٦/٦ والعيني : ١٧/الورقة ١٤٤ من مصورة دار الكتب بالقاهرة .

(٦٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٣٩ (ايا صوفيا ٢٠١٠) .

(٦٤) نفسه ، الورقة ١٤٨ .

(٦٥) نفسه ، الورقة ١٧٦ .

(٦٦) نفسه ، الورقة ١٨٠ .

(٦٧) نفسه ، الورقة ٢٠٠ .

(٦٨) ياقوت ، ارشاد ١٤٥/٥ ومثل ذلك نقل الذهبي هذا القول من ابي العلاء الهذلي في (تاريخ الاسلام) ، الورقة ٤١ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) وانظر السبكي في طبقاته الكبرى ٢١٨/٧ .

(٦٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .

(٧٠) انظر الفهرس الذي صنعه محقق الكتاب الاسناد المفاضل الدكتور صلاح الدين التجد في آخر المجلدة الاولى لشيوعه .

(٧١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٦ (ايا صوفيا ٢٠١٠) .

(٧٢) تارن مناصر الترجمة عند ابن عساکر بما كتبه من مناصر الترجمة عند الخزري (ت ٦٥٦) في كتابنا : الخزري وكتابه التكملة ٢٤٠ وانظر الفصل الثالث من الباب الثاني من كتابنا : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام ص ٢٥٩ فما بعد حيث لخصنا القول في مناصر الترجمة عند الذهبي .

(٧٣) ياقوت : ارشاد ١٤٤/٥ ، والسبكي ٢١٧/٧ .

(٧٤) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ٢٩١٧/٢٩١٧) .

(٧٥) الذيل ، الورقة ١٣٦ من نسخة كيبيرج . ولكر الذهبي في العبر ان مشيخة ابن البناء هذه من المشيخات الخوية ٧١/٤ .

(٧٦) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٣٠٣ (ايا صوفيا ٢٠١٠) .

(٧٧) المنتظم ١٣٧/١ .

(٧٨) المعبر ٢١٤/٥ .

(٧٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٢ من مجلد ايا صوفيا المذكور .

(٨٠) وفي سماعاته القنية كان يسمى « نصر الله » انظر : ابن العيني : الذيل الورقة ٢٠ (باريس ١٩٢١) ، والخزري : التكملة ٢٦٤/١ (بتحقيقنا) ، والذهبي : معجم اعلام النبلاء ١٣/ الورقة ٦١ وغيرها .

(٨١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤١ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) ، والسبكي في الطبقات ٢٢١/٧ .

(٨٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩ - ١٦٠ .

(٨٣) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٢٧ ، ابن الجوزي : المنتظم ٢٤/١ ، وابن الاثير ٢٥٦/١ وابن كثير ٢٠٣/١٢ والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٢ (ايا صوفيا ٢٠١٠) ، والعيني ١٧/الورقة ٣٥ .

(٨٤) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ٩ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٤ (ايا صوفيا ٢٠١٠) والمنتظم ٢٨/١٠ وابن الاثير ٢٦٠/١ ، والعيني ١٧/الورقة ٤٠ .

(٨٥) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٠٩ ، وابن الاثير ٢٦٠/١ ، والمنتظم ٢٩/١ وسبط ابن الجوزي ١٤٤/٨ وابن رجب ١٧٧/١ والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٦ (ايا صوفيا ٢٠١٠) والمعبر ٦٩/٤ .

(٨٦) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٤٤ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٩ من المجلد السابق ، والمنتظم ٣٢/١ ، وابن الاثير ٤١/١ والعيني ١٧/الورقة ٥٣ .

(٨٧) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٢ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٠٩ من مجلد ايا صوفيا ٢٠١٠ ، والمنتظم ٧١/١٠ ، وابن الاثير ٢٢/١١ . والعيني ١٧/الورقة ٩٥ ، وابن كثير ٢١٢/١٢ ، والشفارات ٩٧/٤ .

(٨٨) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ١١٠ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٦ (ايا صوفيا ٢٠١٠) .

(٨٩) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٩٢ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٩ (ايا صوفيا ٢٠١٠) ، والمنتظم ٦٢/١ ، وابن الاثير ٢٣/١١ .

(٩٠) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٧ . المنتظم ٩٨/١ ، وسبط ابن الجوزي ١٨١/٨ ، وابن كثير ٢١٨/١٢ .

(٩١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٤٢ (ايا صوفيا ٢٠١٠) .

(٩٢) ابن عساکر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٢٤ ، المنتظم ١٠٨/١ ، وابن الاثير ٤٠/١١ ، والذهبي : المعبر ١٠٤/٤ ، وابن

١٠٣/٤ وقال ابن مسافر في معجم شيوخه : اهدانا هبة الله بن سهل بن عمر بن محمد بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن القاسم بن مالك بن أبي الهيثم ، أبو محمد ... البسطامي ثم النيسابوري المعروف بالسيد الفقيه بقراني عليه بنيسابور قال ... (الورقة ٢٢٦) .

(٩٧) توفي سنة ٥٢٣ (ابن الجوزي : المنتظم ٧٩/١ ، وابن الاثير في الكامل ٣٠/١١ والمعني في عقد الجمان ١٦/ الورقة ١٠٦ من مصورة القاهرة .

(٩٨) توفي سنة ٥٤١ (المنتظم ١٤٤/١ ، والعبر ١١٣/٤ وغيرهما) .

(٩٩) هو كتاب « معجم شيوخ الائمة النبيل » المشهور عند اهل هذا الفن . عندي منه نسخة بخطي .

(١٠٠) مما تجدر الإشارة اليه ان العائظ ابا عبد الله الذهبي المتوفى سنة ٥٧٤ قد اختصر هذه الترجمة في « المختصر المحتاج اليه من تاريخ العائظ ابي عبد الله » ١٢١/٣ - ١٢٢ ثم حلق عليها زيادة من عنده والزيادة هذه موجودة في تاريخ الاسلام وغيره من كتبه .

(١٠١) هو الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٢٤ (الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٦ - ١٥٧) .

(١٠٢) ذكر الذهبي في العبر انها من المشيخات المروية ، وتوفي ابن البناء سنة ٥٢٧ (ابن مسافر : معجم الشيوخ ١٩ ، والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٧ من مجلد ايا صوفيا رقم ٣٠١٠) .

(١٠٣) هو هبة الله بن عبد الله بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٦ من مجلد ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(١٠٤) هبة الله بن أحمد بن عمر القرقي المعروف بابن الطير المتوفى سنة ٥٢١ (ابن مسافر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٣ ، وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٠٩ من المجلد المذكور) .

(١٠٥) عبد الرحمن بن محمد بن زريق الشيباني الفزازي المتوفى سنة ٥٣٥ (ابن مسافر : معجم الشيوخ الورقة ١١٠ ، وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٢٦) .

(١٠٦) توفي سنة ٥٣٥ وهو محمد بن عبد الباقي الانصاري المعروف بقاضي المارستان (تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٢٩) .

(١٠٧) اسماعيل بن أحمد الدمشقي المولد البغدادي المدار . توفي ببغداد سنة ٥٣٦ (ابن مسافر معجم الشيوخ الورقة ٢٧ ، والمنتظم ٩٨/١٠ وغيرهما) .

(١٠٨) عبد الوهاب بن المبارك الانطاقي المحدث المشهور المتوفى سنة ٥٣٨ (قارن معجم الشيوخ ، الورقة ١٢٤) .

(١٠٩) قارن معجم شيوخ ابن مسافر ، الورقة ٢٢٦ . ولكره أبو سعد السمعاني في التحبير ٢١٣/٢ ولكن انه توفي بين سنتي ٥٢٥ - ٥٣٠ كما ذكره في معجم شيوخه ، الورقة ٢٦٥ .

(٧٩) انظر مثلا الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٤ ، ١٧٩ ١٨٢ ، ١٩٦ . الخ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٨٠) انظر مثلا التبيين ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٨١) انظر مثلا تاريخ الاسلام للذهبي ، الورقة ١٧٦ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٨٢) توفي سنة ٥٠٨ (الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٨٢ من مجلد ايا صوفيا ٣٠١٠ وأصعد نسبه الى جعفر الصادق . والعبر ١٧/٤ .

(٨٣) توفي سنة ٥٠٨ (الذهبي : العبر ١٦/٤) .

(٨٤) توفي سنة ٥٠٩ (العبر ١٨/٤) .

(٨٥) توفي سنة ٥٢١ (الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٠٣ من المجلد المذكور اعلاه .

(٧٦) انظر : ابن مسافر : معجم الشيوخ ، الورقة ٨ . ولكن الذهبي انه توفي سنة ٥٢٤ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٥ من المجلد السابق) .

(٨٧) هبة الله بن محمد ابن الحسين الشيباني المتوفى سنة ٥٢٥ وهو مشهور .

(٨٨) صاحب طبقات العائظ المتوفى سنة ٥٢٦ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٦ ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٨٩) توفي سنة ٥٢٤ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩) .

(٩٠) ابن مسافر : معجم الشيوخ ، الورقة ٩ ولكن الذهبي انه توفي سنة ٥٢٦ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٤) .

(٩١) توفي سنة ٥٢٧ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٠) .

(٩٢) توفي سنة ٥٣٢ (الحاجي : الوفيات « بتحقيقنا » رقم ١٠٥ وتعليقنا هناك) .

(٩٣) ذكر عبد الرحيم الحاجي انه توفي سنة ٥٣٢ (الوفيات رقم ١٠٨) وراجع : ابن نقطة في التقييد ، الورقة ٨٣ ، واكمل الاكمال الورقة ١٤ من نسخة الظاهرية .

(٩٤) ويعرف بالطلهي ، وهو صاحب كتاب « سير السلف الصالحين » المشهور توفي سنة ٥٣٥ كما ذكر الحاجي في الوفيات رقم ١٢٠ وابن نقطة في التقييد ، الورقة ٦٢ .

(٩٥) توفي سنة ٥٣٠ كما في انساب السمعاني ولباب ابن الاثير وغيرهما ولاجله رهل العائظ ابن مسافر الى الشرق .

(٩٦) في الاصل « التستري » ، وهو وهم من الناسخ ، والصواب ما اثبتنا انظر الذهبي في العبر ٩٣/٤ وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٢٨ من المجلد المذكور سابقا ، وابن الصاد في التشنيدات

يسمح الحديث بغير المدرسة النظامية ، والواقع ان الحافظ سمح في معظم محال بغداد كما يتضح من تكره هذه المحال في معجم شيوخه .

(١٢٤) كان صوفيا مشهورا توفي سنة ٥٣٥ هـ (تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٤١ - ٢٤٢ من النسخة السابقة .

(١٢٥) ولد أبو بكر المبارك بن كامل الطغاف سنة ٩٠ هـ وتوفي سنة ٥٢٣ هـ .

(١٢٦) أبو الحسن محمد الفير بن محمد بن سهل الاتصاري البلسني الحافظ المشهور المتوفى سنة ٥٤١ هـ (المعبر ١١٢/٤) وراجع تعليقاتنا في هامش الكتلة الفهردي (٢١٨/١) .

(١٢٧) تاهرت وفاة عبد الوهاب المعروف بابن سكينه الى سنة ٦٠٧ هـ وهو زاهد العراق المشهور .

(١٢٨) نقل هذه الحكاية غير واحد منهم الذهبي والسبكي وغيرهما .

(١٢٩) الخريطة : شيء كالتفتية من قماش او غيره يطلقها المحدث بحسبه ويضع فيها كتبه .

(١٣٠) في المستفاد : « قال » وما اثبتناه من السبكي .

(١٣١) في طبقات السبكي : « الزينبي » معروف ، وهو منسوب الى « نرس » النهر المشهور بالعراق (راجع الانساب للسمعماني) وانظر مستنبطه الذهبي ٨٢ - ٨٤ .

(١٣٢) من هنا والى نهاية الفقرة نقلها الذهبي عن ابن النجار في تاريخ الاسلام (الورقة ٤٢ من مجلد احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) وفي سير اعلام النبلاء ١٢/الورقة ٢٨٠ . ولقد ذكره الطغاف ١٢٣٢ مع بعضي الهذف . ومصر بن عبد الواحد هذا قرشي اصبهاتي ولد سنة ٩٤ هـ وتوفي سنة ٥٦٤ هـ وكان من الحفاظ المشهورين .

(١٣٣) هو المعروف بالطلمي المتوفى سنة ٥٣٥ هـ وقد سبق التعريف به .

(١٣٤) الى هنا انتهى قول ابن النجار كما جاء في كتب الذهبي ومنها : تاريخ الاسلام .

(١٣٥) ما بين العسائدين اضافة مني نقلها من تاريخ الاسلام للذهبي لايماني بان ابن النجار نقل هذا القول او اكثر منه او اقل عن السمعماني في ذيل تاريخ بغداد ، يدل على ذلك ما بقي من نقل عنه في الورقة ٢١٢ من نسخة الظاهرية من تاريخ ابن النجار وهو قوله : وبعد انصرالي الى خراسان .. الخ . وقد نقلنا ما تبقى من الترجمة عن المجلد المحفوظ بالظاهرية برقم ٤٢ وهو آخر ترجمة الحافظ ابن عساكر في تاريخ ابن النجار .

(١١٠) كان من رجال الحافظ ابن عساكر ، وقد توفي سنة ٥٧٥ هـ وهو معروف جدا .

(١١١) امتدحت في هذه الترجمة ، خلا القسم الاخير منها على ما جاء في انتقاد احمد بن ايوب الديلملي الحسامي من تاريخ ابن النجار ، والذي سماه : « المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » الورقة ٥٥ واثرت بعد ذلك الى الزيادات التي جاءت في الكتب الاخرى .

(١١٢) هذه اللفظة زيادة من السبكي ٢١٨/٧ .

(١١٣) ما بين العاصرتين اضافة من طبقات السبكي ٢١٨/٧ وقد اوردنا الذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ (احمد النسائت ١٤/٢٩١٧) لكنه حذف منها قوله : « بطوم الحديث » كما حذف من كتبه « والذيل » الى نهاية الصفحة .

(١١٤) من هنا والى نهاية السطر اضافة من تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ من النسخة السابقة .

(١١٥) أبو الحسن علي بن الحسن السلمي المتوفى سنة ٥١٤ هـ كما في تاريخ الاسلام ، والمعبر للذهبي ٣٣/٤ .

(١١٦) أبو القاسم علي بن ابراهيم بن العباس الحسيني المتوفى سنة ٥٠٨ هـ وقد مر التعريف به .

(١١٧) أبو طاهر محمد بن الحسين بن محمد الدمشقي المتوفى سنة ٥١٠ هـ (المعبر ٢١/٤) .

(١١٨) هبة الله بن احمد الاتصاري المعروف بابن الاكفاني صاحب كتاب « الفواتح » المتوفى سنة ٥٢٤ هـ (المعبر ٦٣/٤) .

(١١٩) علي بن احمد بن منصور الطسائي . و« قبيس » بضم القاف وليس بالفتح كما جاء في المعبر من وهم المعلق ، وقد وجدناها مقيدة بالهم بخط الحافظ الذهبي (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٩٦ ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(١٢٠) توفي سنة ٥٣١ هـ وكما في المعبر ٨٥/٤ وغيره ، وقال الذهبي في تاريخ الاسلام : « روى عنه الحافظ أبو القاسم وقال : كان شيعيا مسرا مع جيله بالحديث وعدم ثقة ، هك اسم اخيه من كتاب « الشهاب للقصامي » وأثبت بذله اسمه » الورقة ٢٠٦ من نسخة ايا صوفيا رقم ٣٠١٠ .

(١٢١) المعروف بابن الفزال - بالخفيف - . وقد سمع منه ابو القاسم حديثا واحدا نقلنا لحسن شديد حصل لابن الفزال هذا قال اللقي الناصي : « وقد رويناه من طريقه في اربعينه البلدانية » المقاد الثلثين ٢٢٤/٥ . وتوفي سنة ٥٢٤ هـ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٧ من نسخة ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(١٢٢) توفي سنة ٥٣٦ هـ (تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٦ - ٢٦٧ من النسخة السابقة) .

(١٢٣) قد يلبس قول ابن النجار هذا بظن القارئ انه لم

من تاريخ التاريخ الكبير

طباع الطرابيشتي

ان تاريخ دمشق الكبير ديوان حديثي من الفه الى يائه، جمعه محدث، وأخرجه للناس محدث، ورواه على مر الأزمان المحدثون . حتى الذين نسخوا التاريخ ، أو انتخبوا منه ، انما كانوا من جلة المحدثين وأئمتهم : كالبرزالي والمقدسي وأبي شامة والذهبي والعيني وابن حجر والسيوطي . فكيف ينصرف النظر عن تخريج أحاديثه ؟

قد يكون هناك بعض عذر لأولئك الذين وضعوا نهج التحقيق أنهم رأوا - وهذه عبارتهم :- « ان الغاية من تحقيق الكتاب تقديم نص صحيح » ، فوجب لذلك في رأيهم « أن يوجز في التعليق كيلا يثقل النص بتعليقات طوال » .

قلت : ولكن الحواشي في بعض المطبوع من مجلدات التاريخ قد أثقلت فعلا بتلك التعليقات الطوال ، في تراجم الرجال وتصحيفات بعض الاصول . أف يكون ذلك أجل من تخريج الأحاديث ؟ وقد يقول قائل عن التاريخ : أنه معدن الاحاديث الضعيفة ، يحط بذلك ، في زعمه ، من

لا يتم الحديث عن ابن عساكر من غير الحديث عن تاريخه الكبير ، بل نكاد نقول : لا يكاد يذكر ابن عساكر الا من خلال تاريخه الكبير ، وليس في هذا القول أي مجازفة ، فالعلماء في تاريخ هذه الامة كثيرون والحمد لله ، فما الذي ميّز أبا القاسم في غمارهم ، وقدّم مكانه في صفوفهم ؟ اليس التاريخ الكبير ؟ بل لقد أفاد هذا التاريخ طيب الذكر كل من تعلق منه بسبب قريب .

واذا كانت قصة هذا التاريخ العظيم قصة تطول ، ولا يمكن لروايتها أن تأخذ حظها من الراحة الابين دفتي كتاب ، لذلك نستأذن في هذه العجالة ، أن نقبس من البحث ما لعله يمتع ويفيد ، فنصرف القول الى الحديث عن : « أوامم حول التاريخ » .

الوهم الأول والأكبر : في هذه القاعدة التي ما زالت متبعة في تحقيق التاريخ الكبير ، وهي : أن ينصرف النظر عن تخريج الأحاديث (١) .

(١) مقدمة المجلد الأولى : ٤٨ ، مقدمة مجلد (ماسم - مايد) :

قدر ذخيرته الحديثية ، ويزهد بالتالي في الاشتغال بتفريج تلك الاحاديث .

وقد يحتاج بيان خلل هذا القول الى شيء من البسط والاتساع ليس هذا أوانه ، ولكن حسبنا أن نقول : ان هذا الكتاب العظيم قد ضم بين دفتيه مكتبة حديثة ضخمة ، جمعت نفائس من هذا العلم قل لها نظير ، وبذلك فان تخريج احاديثه يفتح - باذن الله - آفاقا رحبة في ميدان علم الحديث ، ويلقي أضواء مبصرة على كثير من كتب الملخصات التي جمعها المتأخرون ، تلك الملخصات التي أوردت المتون وسكتت عن الاسانيد ، فغم على الباحثين أمر كثير من تلك المتون ، وما مثال « الدر المنثور » للسيوطي عنا ببعيد .

ثانيا - وهم التجزئة والمراحل الثلاث :

كان للقدماء في هذا المجال بعض أوهام ، سحبت ظلالها على الباحثين المحدثين ، فاثمرت فروضا غير صحيحة ، ينفىها واقع الحال في هذا الكتاب . وهذه القصة من أولها :

- قال العماد الاصبهاني في خريدة القصر (١) : « فلما وصلت الى الشام ، وأقيمت بدمشق ، ترددت اليه (يعني : الى الحافظ ابن عساكر) ورأيت قد صنف تاريخ دمشق ، وذكر أنه في سبعمائة كراسة ، كل كراسة عشرون ورقة . »

قلت : وهذا هو الوهم الاول . ولعله سهو قلب « السبعين وخمسمائة » الى « سبعمائة » في ذاكرة العماد .

- ثم جاء الذهبي فقال في « سير اعلام

النبل » (٢) - وهو يعدد مصنفات الحافظ ابن عساكر : « فمن ذلك تاريخه في ثمانمائة جزء - الجزء عشرون ورقة ، فيكون ستة عشر ألف ورقة » .

فأضاف وهما ثانيا ، حين ظن أن جزء التجزئة الثمانية يبلغ عشرين ورقة .

- أما الوهم الثالث فجاء من أحمد بن مصطفى ، المعروف بطاشكبري زاده ، قال في مفتاح السعادة ، أثناء حديثه عن الحافظ أبي القاسم (٣) :

« صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلد بخطه » فرغم أن أبا القاسم كتب الثمانين بخطه ، وهذا هو الوهم الثالث .

هذا ما كان من أمر القدماء ، ولكنه لم يقتصر عليهم ، فكان من ثمره بين المحدثين فكرة المراحل الثلاث التي افترضها الاستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد في مقدمته للمجلد الاولى من « تاريخ مدينة دمشق » (١) قال :

« ولا شك أن التاريخ مر في تأليفه بثلاث مراحل : فقد كان في أول الأمر في خمسمائة وسبعين جزءا ، أي أنه كان في سبع وخمسين مجلدا . فلما وصل العماد الاصبهاني الى دمشق في سنة اثنتين وستين وجد الحافظ قد صنف التاريخ « وذكر الحافظ أنه في سبعمائة كراسة ، كل كراسة عشرون ورقة » ومعنى ذلك أنه صار سبعين

(١) تسم شعراء القام : ٢٧٦/١ .

(٢) سير النبلاء : ١٢/٢٧٩ .

(٣) مفتاح السعادة : ٢١٦/١ .

(١) المقدمة : ٢٢ .



مجلة ٠ ثم ازدادت أجزاء التاريخ ، وإذا بابنه القاسم يقول : « والنسخة الجديدة ثمانمائة جزء ٠ » وقد بينه القاسم بخطه في ثمانين مجلة ٠ ثم أعادها مع بعض زيادة في دائرة معارف البستاني (٢) ، أذ جعل جزء النسخة الثمانية عشرين ورقة ، وعزا التجزئة الأخيرة إلى أبي القاسم نفسه ٠

ورحلت فكرة المراحل الثلاث هذه ، فاستفادها المستشرق الأستاذ « إلسيف » في مقدمة كتابه : « وصف مدينة دمشق » (٣) ثم كررها في ترجمته لابن عساكر في الموسوعة الإسلامية الجديدة (٤) ٠ أما الأستاذ محمد كرد علي ، رحمه الله ، فقد حسب أن التجزئة الثمانية من عمل المصنف ، فقال في تصديره للمجلة الأولى من التاريخ (٥) : « حافظ المجمع على تجزئة المصنف ، وسيكون التاريخ في ثمانين مجلة ، كل مجلة في عشرة أجزاء من الأصل » ٠

- وعلى المنوال نفسه نسج الأستاذ الدكتور شكري فيصل في مقدمته لمجلد (عاصم - عايد) (٦) ، إذ اعتمد التحريف الوارد في نص الخريدة ، فأعاد ذكر السبعمئة كراسة ، وجعل التجزئات ثلاثا ، واعتبر جزء النسخة الثمانية عشرين ورقة ٠

هذا ما كان من أمر الاوهام سابقة ولاهقة ، ولا بد في معالجتها من بيان أمر التجزئة في الكتاب على حقيقته فنقول :

للتاريخ تجزئتان فحسب : تجزئة المصنف ، في خمسمائة وسبعين جزءا ، كل جزء في عشرين ورقة ٠

ثم تجزئة ابنه القاسم في النسخة المستجدة ، ثمانمائة جزء ، كل جزء في خمس عشر ورقة ٠ والفرق بين التجزئتين فرق تجليد فحسب ، أما عدد أوراق التاريخ فمتقارب : (خمسمائة وسبعون) في (عشرين) تساوي أحد عشر ألفا ، وأربعمائة ورقة ٠ (ثمانمائة) في (خمسة عشر) تساوي اثني عشر ألف ورقة ٠

ان هذا الذي قلناه ، هو ما نطقت به الأصول المخطوطة للتاريخ ، لم تتخلف عنه قط في كل مواضع التجزئة التي اطلعت عليها من التاريخ ٠ وهذا الامام البرزالي ، الناسخ الأوثق للتاريخ يقول في ختام بعض الأجزاء (١) :

« آخر الجزء السابع والخمسين بعد المائتين من الأصل ٠ وهو آخر المجلة الرابعة والثلاثين من تجليد النسخة المستجدة ٠ » فأوضح بصريح العبارة أن الفارق بين الأصل والنسخة المستجدة إنما كان أمر تجليد (٢) ٠

وكيف يصح هذا المذكور في الخريدة من أمر السبعمئة كراسة ؟ بل كيف يصح فرض المراحل الثلاث بناء على ذلك ؟ وقد دخل العماد الاصبهاني دمشق في شعبان من عام (خمسمائة واثنين وستين) ، وفي آخر جمادى الأولى من العام نفسه (٣) - أي قبل وصول العماد بشهرين - كان التاريخ قد

(٢) طبعة بيروت ١٩٦٠م : مج ٢/٢٧٦ ٠

(٣) ط ٠ ١٩٥٩م : ص ٢٩ ٠

(٤) الطبعة الفرنسية ١٩٧٥م : مج ٣/٧٣٦ ٠

(٥) المقدمة : ج ٠

(٦) المقدمة : ٢٢ ٠

(١) مجلد من (المبادلة) : لم يصدر بعد ٠

(٢) الروضتين ١/١٤٤ ٠

(٣) مجلد (عاصم - عايد) : ٥٢٢ ٠

الأولى^(١)، يرجع تاريخه الى سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، وقد سُميت النسخة المستجدة فيه بـ « الفرع المنقول عن هذا الأصل » .

وبعد ، فقد بقيت لنا كلمة صغيرة بشأن التسويد والتبييض ، وخط الأب وخط الابن : ان المصنّف أبا القاسم لم يبيّض التاريخ البتة ، فهو كما قال عنه حفيده^(٢) : « حين فرغ من تسويده ، عجز عن نقله وتجديده ، وضبط ما فيه من المشكل وتحديده ، فان نظره قد كلّ ، وبصره قد قلّ » ، فلم يزل والذي يكتب وينقله من الأوراق الصفار والظهور ويهذب « » .

« سماع التاريخ »

واذا كان فيما قلناه آنفاً بلاغ في دفع تلك الأوهام ، فان فيما سنقوله في الفقرة التالية طرّحا احقائق جديدة لم يكشف النقاب عنها من قبل .

الصورة التالية التي سأعرضها قامت على تتبع مجالس السماع في مخطوط التاريخ ومطبوعه ، ولقد خرجت بنتيجة محددة : كان سماعان على المصنّف ، ثم سماعان على الابن من بعده ، ثم عدة سماعات بعدهما . لكن السماعات الأربعة الأولى كانت كافية لتحكي لنا قصة التاريخ الكبير في ولادته وفجر طفولته في واقع الحياة .

(١ - بدأ سماع التاريخ على المصنّف في شهري ربيع من سنة (تسع وخمسين وخمسمائة) سماعاً خاصاً ، ضم المصنّف وابنه بمنزله ، وحيانا ستة أشخاص من خاصة أهله ، في المنارة

جاوز ثلثه . أعني قد بلغ آخر مجلد (عاصم - نايد) قراءة وسماعاً على الملاً في جامع بني أمية ؟ وهذا المجلد مطبوع ، ليس فيه ولا في أصوله أية اشارة الى السبعمائة المزعومة ؟

وهذا هو المجلد الثالث والخمسون بأخر الكتاب ، وفيه حرف الياء [من يحيى - الى يزيد] ينتهي عند هذين الرقمين : « الجزء الثلاثون بعد الخمسمائة من تجزئة الأصل - والسابع والأربعون بعد السبعمائة من تجزئة الفرع » . واذن فقد بقي (أربعون جزءاً) فحسب من تجزئة الأصل ، يقابلها (ثلاثة وخمسون) من تجزئة الفرع ، ليبلغ الكتاب غايته . وهذا هو القول الفصل في التجليد الكامل للأصل والفرع من تاريخ دمشق الكبير .

ولو أردنا تطبيق تجزئة الثمانين مجلداً على المطبوع من تاريخ دمشق لوجب أن نسمي المجلدة الأولى وبعض الثانية فحسب : المجلدتين الأولىين ، وأن نسمي المجلدة العاشرة : المجلد الثالث عشر . يؤكد هذا ما ذكره الاستاذ محمد أحمد دهمان في حاشية الصفحة (مائتين واثنين وثلاثين) من المجلدة المذكورة ، قال : انه وجد في هامش نسخة الأصل هذه العبارة :

« آخر الحادي والعشرين بعد المائة » .

قلت : ومعنى هذا أنه (آخر الجزء الاول من المجلد الثالث عشر) بتجزئة القاسم للنسخة المستجدة .

والظاهر أن النسخة الجديدة بتجزئتها الجديدة ، انما صنعت بعد وفاة المصنّف ، اذ نجد أول ذكر لها في سماع للجزء الرابع من المجلدة

(١) المجلدة الاولى : ٦٦٠ .

(٢) سر اعلام النبلاء : مج ١٣ / ٩٤ .

الشرقية بجامع دمشق ، معتكف أبي القاسم ،

ويلاحظ أن سماع القاسم على أبيه بقي ملتزماً حتى آخر الكتاب ، وكان يتقدم السماع العام ببضعة أشهر ، تبلغ ثمانية في بعض الأحيان على أن هذا الفرق الكبير بين السماعين قد انخفض في أواخر الكتاب ، فصار شهراً أو بعض شهر .

٢ - ثم كان السماع العام للملا في جامع دمشق الكبير ، وفق خطة مرسومة باحكام : انها ثلاثة مجالس في الاسبوع ، في أيام : الاثنين والخميس والجمعة . يقرأ في يومي الاثنين والخميس جزء ، وفي يوم الجمعة جزء [ويحسن هنا التنبيه الى أن الجزء عشرون ورقة] ، وبذلك يقرأ في السنة الواحدة عشر مجلدات بالتمام والكمال . وتنفيذ هذه الخطة تتم قراءة التاريخ - أي السبعة والخمسون مجلداً - في ست سنوات . وكذلك كان باذن الله وتوفيقه .

افتتح السماع العام في جامع بني أمية في مطلع عام (ستين وخمسائة) ، وبالتحديد في الاسبوع الاول من المحرم ، ليختم في نهاية العام ومطلع العام الجديد ، عام واحد وستين ، سماع المجلدة العاشرة .

ثم توالى السماعات تترى ، في ظل هذا النظام الدقيق .

وفي عام (خمسمائة وخمسة وستين) كان سماع السبعة الاواخر من التاريخ ، فقد تم سماع المجلد الثالث والخمسين في يوم (الجمعة : الخامس من ربيع الآخر) في ذلك العام . وتبقى

المجلدات الأربعة الأخيرة ، ولا يمكن أن يجاوز سماعها في هذا النظام أواخر العام المذكور .

وكذلك تم سماع التاريخ على مصنفه حسب الخطة المرسومة ، من مطلع عام ستين وخمسائة ، الى أواخر عام خمسة وستين وخمسائة . ولقد كانت مجالس السماع العامة هذه حافلة ، ضمت سبعين ، وأحيانا خمسة وثمانين ، من فقهاء القوم وعلمائهم وأعيانهم .

٣ - ثم كان السماع على القاسم ابن المصنف ، بعد وفاة أبيه بثلاثة أسابيع فحسب : توفي أبو القاسم رحمه الله يوم الأحد بين العشائين في الحادي عشر من رجب سنة (احدى وسبعين وخمسائة) ، وبدأ السماع على ابنه القاسم - وفي دار السنّة مدرسة الأب - في يوم الأحد الثاني من شعبان سنة (احدى وسبعين وخمسائة) ، واستمر حتى بلغ غاية المجلد الثالث والخمسين من التاريخ في العشر الأخير من ربيع الاول سنة (ائنتين وثمانين وخمسائة) ، في الجامع الكبير .

واذا ما قدرنا أن الفراغ من سماع التاريخ على الابن قد وقع في أواخر ذلك العام ، أي ائنتين وثمانين ، فيكون ذلك السماع قد استغرق أحد عشر عاماً وبضعة أشهر .

٤ - ثم أعيد السماع ثانية على الابن : بدأ في عشر ذي الحجة سنة (سبع وثمانين وخمسائة) ، وبلغ غاية المجلد الثالث والخمسين في أول يوم من عام (ستة وتسعين وخمسائة) . واستغرق سماع التاريخ في هذه المرة ثمانين سنوات وبضعة أشهر ، كانت خاتمة المطاف في عمل



فقال : ان الحافظ أبا القاسم حلف أنه لا يكلم ابنه حتى يكتب التاريخ ، فكتبه ٠ »

وكذلك كان القاسم مثلاً طيباً في البر والعلم معاً ، أهر قسم أبيه فغداً في شغل شاغل من أمر التبييض ، صرفه في بعض الأحيان عن حضور مجالس السماع حتى ضاق صدره ، ولقد أثنى عليه أبوه بحق « فلولا ما تم التاريخ » ٠

ثم تأتي المرحلة الثالثة - مرحلة الاكمال والتجديد - بعد سنة خمس وستين وخمسمائة : وقبل الخوض في هذه المرحلة يجب أن نبادر الى ابعاد شبهة ربما علقت بالاذهان ، من أن نمواً أو تنقيحاً أو تجديداً حدث في التاريخ خلال هذه الفترة ، فالحق أنه لم يحدث شيء من ذلك بالمعنى الكامل ، وإنما هي ملحقات مستدركة في هوامش الاصل تارة ، ومسجلة في جذاذات مقحمة بين الصحف تارة أخرى ، تحمل أسطراً بخط مرتعش ، انه خط أبي القاسم وقد شارف السبعين ٠ ثم النسخة المستجدة التي صنعها القاسم ، وهذه التي أملت عليّ ذكر التجديد ، للجناس اللفظي فحسب ، فليس هنالك من جديد ٠

ولنتأمل صورة (الملحق) التالي - انها ترجمة في أربعة أسطر ، لكنها تسجل بدقة تاريخ (اللاحق) الذي تم بعد سماع التاريخ :

« (١) محمد بن بركة بن خلف بن كرما ، أبو بكر الصلحي ٠ سمع ببغداد أبا طالب بن يوسف ٠ [وآخرين] ثم قدم دمشق وحدث بها ببعض مسموعاته ، وكان مواظباً على السماع منّي ،

القاسم في هذا الكتاب ، فقد توفي بعد أربع سنوات رحمه الله ٠

هذه هي الصورة ، فما النتائج المستفادة منها ؟ ٠

ان صورة السماع هذه قد ألغت تماماً فكرة المراحل الثلاث السابقة ، لتحل محلها مراحل ثلاثا جديدة : مرحلة الجمع والتسويد ، مرحلة التبييض والتسميع ، مرحلة الاكمال والتجديد ٠

واذا كانت مرحلة الجمع والتسويد أمراً مفروغاً منه ، فإن فترة ست السنوات : ما بين مطلع خمسمائة وستين - ونهاية خمسمائة وخمسة وستين قد ميزت المراحل الجديدة بشكل جلي ٠ فمن الواضح أن تبييض التاريخ قد تم أثناء فترة السماع هذه ، ولنتأمل مجالس السماع الخاصة التي كانت تتم بين المصنف وابنه في المنزل ، سابقة مجالس السماع العام ببضعة أشهر ، ألم تك ايذاناً بالفراغ من التبييض تمهيداً للسماع العام ؟ ٠

وما لنا نذهب بعيداً ؟ وهذه شهادة من حفيد المصنف الذي جالس أباه وجده في السماع الخاص والعام ، قال (١) : « فلم يزل والدي يكتب وينقله من الأوراق الصغار والظهور ويهذب ، الى أن نجز منه نحو مائة وخمسين جزءاً ٠ وكان بينهما نفرة ، فكان لا يحضر السماع تلك المدة ٠

فحكى لي والدي قال : ضاق صدري ، فأتييت الوالد ليلة النصف في المنارة الشرقية ، وزال ما في قلبه ٠ وسمعت أبا جعفر القرطبي [يقول : سمعت جدك] كثيراً يقول - عند غيبة والدك عنه - : « جزاه الله عني خيراً » ، فلولا ما تم التاريخ ٠

(١) سير اعلام النبلاء : مج ١٣ / ل ٩٤

(١) نسخة ب : مج ١٨ / ب ٦٢ ٠



وسمعت أكثر هذا التاريخ ، وكان مولده بقم الصلح
[قلت : هي قرية قريبة من واسط في العراق] ،
ومات ليلة الخميس ، ودفن يوم الخميس ،
المادي عشر من المحرم سنة ست وستين
وخمسائة ، ودفن بمقبرة جبل قاسيون . »

وكذلك نستنتج أن ملحقات الأب كانت بين
عامي ستة وستين وواحد وسبعين . . . ويقع هنا
اشكال طريف بشأن السلطان المجاهد صلاح الدين
الايوبي ، فكان أبا القاسم رحمه الله أغفل ترجمته
في التاريخ اغفالا ، وانتقده أبو شامة لذلك فقال :
« لم يذكر له الحافظ أبو القاسم ترجمة مع أنه
ملك دمشق في سنة سبعين » ، ويبدو أن أبا
القاسم كان أكثر اعجابا بنور الدين ، ولقد عاتب
صلاح الدين مرة بحدة ، ووصف مجلسه بأنه
« (٢) كبعض مجالس السوق لا يستمع فيه الى
قائل ولا يرد جواب متكلم » ، والغريب أن العتاب
نفسه أو قريبا منه ، قد صدر عن الحافظ السلفي
في الاسكندرية بحق السلطان نفسه (٣) ، على أن
صلة القاسم بصلاح الدين كانت أوثق فيما يبدو ،
فقد صنع القاسم كتابا في الجهاد ، سمعه منه
السلطان صلاح الدين في سنة ست وسبعين . قال
القاسم (١) : « فدعوت في أوله وآخره بفتح بيت
المقدس فاستجاب الله ذلك وله الحمد ، وفتح بيت
المقدس في السادس والعشرين من رجب ، سنة
ثلاث وثمانين وخمسائة وأنا حاضر فتحه » .

وقد يبرز هنا سؤال وجيه : لماذا لم يلحق
القاسم ترجمة لصلاح الدين ؟ والجواب على ذلك
يدخلنا في صميم عمل القاسم وطبيعة الحاقه في
التاريخ .

ان صنع القاسم في التاريخ الكبير مثل أعلى
عجيب في التكامل العلمي المتوازن والالتزام الادبي
الأمين ، صحيح أنه صنع النسخة الجديدة بتجزئة
جديدة ، لكنه ما غير ولا بدل ، بل لقد التزم في
مجالس السماع عليه التجزئة الاولى للكتاب ،
ليقع التنسيق بين السماع عليه والسماع السابق
على أبيه .

كل ما صنع في النسخة الجديدة : أن الجزء
الذي كان في عشرين ورقة ، نزل في خمس عشرة
ورقة ، وأن ملحقات أبيه التي كانت في الهوامش
أو منثورة في الجذازات ، أحلها حاق مواضعها من
المتون .

أما ملحقاته هو فقد كانت - في معظمها -
« وصلا » بينه وبين مصادر التاريخ الكبير ، تؤذن
بسماعه تلك الاصول تارة ، وتبين طرقه اليها
تارة أخرى .

ولذلك نلاحظ في السماعات المتأخرة للتاريخ
أمرا طريفا ، وصحيحا في الوقت نفسه ، وهو
اعتبار السماع على القاسم بمنزلة السماع على
والده المصنف .

وبعد ، لكم كان بودي الحديث عن طرائف
وحقائق من تاريخ ابن عساكر ، طالما كنت
ادخرتها لامثال هذه المناسبات ، ولكن الوقت ضيق
خرج ، وعسى أن ييسر الله لهذا البحث اكتمالا
في كتاب ، انه خير مسؤول ، والحمد لله رب العالمين .

(٢) الروستين : ١٠/١ .
(٣) مقدمة سلاوات السلفي : ص ١٣ .
(١) سير اعلام النبلاء : مج ١٣ / ٩٤ .



ظل العرب فترة طويلة لا يهتمون اهتماما كليا وجديا بتراثهم العلمي ، بل تركوا امر العناية به الى المستشرقين من مختلف اطراف المعمورة ...
مراح هؤلاء يجمعون المخطوطات في جامعاتهم وعواصم بلدانهم . وبدا البعض منهم يكتب ويحقق وينشر . . ولكن وبكل أسف اذا ما تنحصنا النتائج الذي صدر عنهم وجدنا تسميا منهم مغرضا بدس السم في السم .



وكانت نتائج دراساتهم عموما هي : توزيع نتاج الحضارة العربية على الفرس والهنود والأتراك . . او حتى على اليهود . ويزعمون ان دور العرب كان النقل فقط . اما فيما يخص تاريخ الطب العربي فالامر ينطبق على ما ذكرناه فيؤكد ذلك ليون بينيه ، وجاريسون ، وبراون وغيرهم ، ما عدا قلة نادرة أمثال الفرنسي لوسيان كلير .

وبدا العرب يهتمون بهذا التراث شيئا فشيئا واذا بالامر على غير ما تيل . ورغم هذا الاهتمام فلا تزال الجهود قليلة وبمعثرة وتحتاج الى المزيد من العناية والبذل والعطاء على الصعيدين الفردي والدولي ومن أجل هذا اسس معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، ومركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ، ومركز ابحاث التراث الاسلامي في مكة ، ومعهد المخطوطات العربية في القاهرة .

واستطاع بعض العرب ان يبرهنوا على ان اكتشاف الدورة الدموية لا يعود الى العالم الانكليزي هارفي كما يدعي علماء الغرب ، بل الى عالم عربي هو ابن النفيس . وابن النفيس هو علي بن أبي الحزم علاء الدين بن النفيس القرشي (نسبة الى قرية دمشق (١)) الدمشقي ، ولد حوالي عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م ، وكان يحكم دمشق آنئذ السلطان العادل سيف الدين أخو صلاح الدين الايوبي . وكان في دمشق في ذلك الحين عالم كبير جليل يدعى مهذب الدين عبد الرحيم ملي الملقب بالخوار . امضى كل حياته في خدمة الطب والعلم وجعل بيته الكبير مدرسة طبية

ابن النفيس

واكتشاف
الدورة
الدموية

د. سلمان قطاية

كلية الطب - ج. حلب

(١) توجد منطقة في حي الميدان بدمشق تعرف حاليا باسم : حي القرشي أو هارة القرشي وهي واقعة بعيدا عن اسوار المدينة القديمة . وربما كانت مسقط رأس ابن النفيس .



سميت بالدخوارية تخرج منها علماء كبار أمثال موفق الدين بن أبي أصيبعة وعلاء الدين بن النفيس .

وكان الدخوار يعنى بأمراض العيون في البيمارستان (المستشفى) النوري في دمشق ثم عينه السلطان سيف الدين رئيسا لأطباء دمشق . نشأ ابن النفيس في جو علمي صحيح مبني على الخبرة والأصالة في التفكير والمناقشة الحرة المستمرة .

ونظرا لما كانت القاهرة تتمتع به ، في ذلك الحين ، من شهرة لما فيها من كبار العلما الأطباء أمثال : علي بن رضوان وابن جمشيد ، وإبراهيم ابن عيسى ، والحسن برزيرك ، وابن ميمون ، وموسى بن عازار ، وابن أبي حليقة ، وضياء الدين البيطار .

وكل منهم علم من أعلام الطب والفلسفة والصيدلة .

فشد ابن النفيس رحاله اليها وانخرط في سلك أطباء السلطان ولم يلبث ان اشتهر فأصبح رئيسا للأطباء .

وكان شديد الذكاء ، عالي الهمة ، كثير الانتاج ويقال انه عندما كانت تتملكه فكرة التأليف كان ينقص على القلم والورق ولا يزال يكتب حتى ينهي ما يريده ، وكان يكتب دون انقطاع ، كالسيل الجارف ، ويحضر له مساعدوه أكادس الورق ويبرون له عدة أقلام حتى لا يتوقف عن الكتابة لبريها . ويروى أنه دخل الحمام ذات مرة ولكنه سرعان ما خرج وطلب ورقا وقلمًا وكتب ، ولما انتهى ما كان يريد ان يكتبه عاد الى الحمام فأغتسل .

ولقد ألف من الكتب الشيء الكثير ومن

أهمها : كتاب « الشامل في الطب » ويقال ان الأصل يقع في ثلاثمائة سفر ، بيض منها ثمانين ، وكتاب شرح فصول بقراط ، وشرح تشريح جالينوس ، والموجز و « شرح تشريح القانون » أي شرح ما جاء في كتاب القانون للشيخ الرئيس ابن سينا حول علم التشريح ، وهو كتاب هام جدا نظرا لأنه وضع فيه آراء جديدة ومكتشفات هامة وانتقد كل ما جاء قبله .

وله كتب أخرى عن الفلسفة والمنطق وأصول الحديث ، لأن العرب كانوا لا يطلقون اسم الطبيب الا على من تعلم الطب وأتقن الفلسفة ، أما اذا اقتصر علمه على الطب سمي : متطببا لا طبيبا . وتوفي ابن النفيس في القاهرة وقد جاوز الثمانين وذلك اثر مرض ألقعه مدة ستة أيام وكان ذلك عام ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م .

وكتاب شرح التشريح غير مطبوع حتى الآن ، وتوجد منه نسخ مخطوطة : في المكتبة الظاهرية بدمشق ، والمكتبة الوطنية في باريس ، ومكتبة قصر الاسكوريال في اسبانيا ، والمكتبة البودلية في اكسفورد بانكلترا ، ومكتبة جامعة برلين .

وظل هذا الكتاب راقدا على رفوف المكتبات . وذات يوم كان طبيب مصري شاب يدعى محي الدين التطاوي يطالع مخطوطات مكتبة برلين فعثر صدفة على المخطوط رقم ٦٢٢٤٣ وعنوانه « شرح تشريح القانون » فخطرت له فكرة دراسة المخطوط وتدبيح رسالة عنه ينال عليها شهادة الدكتوراة في الطب من جامعة فرايبورغ في ألمانيا حيث كان يدرس ، وانكب على الدراسة بحماسة شديدة اذ تبين له ان ابن النفيس قد تحدث بوضوح عن الدورة الدموية . . . بل أكثر من ذلك بالامكان

١٥٤٧ ، ويبدو أن ثمة ترجمات أخرى لابن النفيس .

والمعلوم ان عصر النهضة بدأ في ايطاليا وكان لمدرستها تأثير عظيم . والمعروف أيضا ان الكتب الطبية العربية قد ترجمت الى اللاتينية وانتشرت بسرعة فائقة .

وكان أول من تكلم عن الدورة الدموية كما جاءت في كتاب ابن النفيس ، لكن دون ذكر له ، هو سيرفيتوس أو ميثيل سيرفيه .

وكان سيرفيتوس قد ولد في فيلانورفا في مقاطعة اراجون في اسبانيا ولا بد انه ، كاسباني ، قد اطلع على أعمال ومؤلفات ابن النفيس ، فذكرها وكررها دون ذكر المصدر كما جرت العادة في أيامه .

كذلك فعل طبيب ايطالي يدعى كولومبو اذ نشر المعلومات نفسها .

فاذا ما قارنا النصوص الثلاثة ، كما يقول ماير هوف ، وجدناها مشابهة بل فيها تطابقاً مذهشاً ، لا يدع للشك مكان في أن الايطالي والاسباني نقلًا كلام العربي .

كان القدماء يعتقدون بآراء جالينوس في التشريح ويكررونها في مؤلفاتهم . وفيما يخص القلب ودوران الدم ، فقد كانوا يقولون بأن القلب عضو لحمي صلب ، مخروط الشكل ، وقاعدته في وسط الصدر ورأسه يميل الى الجانب الأيسر ، وله ثلاثة أنواع من الألياف ، وثلاثة بطون : أوسط ، وأيمن وأيسر . وله أربع منافذ : اثنان

القول بأنه هو مكتشف الدورة الدموية ، فصاغ اطروحته بعنوان : « الدورة الرئوية تبعا للقرشي » . ولكن اساتذته رفضوا تصديقه ، وأمام العاهة الشديد ، ونظرا لجهلهم باللغة العربية أرسلوا صورا عن المخطوطة الى المستشرق الألماني ماكس مايرهوف (١٨٧٤ - ١٩٤٥) وكان يقيم في القاهرة ، ويتعاطى أمراض العيون .

فدرس ما يرهوف الموضوع وأرسل يؤيد أقوال التطاوي . وبلغ المؤرخ جورج سارتون فأدرج الموضوع في آخر جزء من مؤلفه الضخم عن تاريخ العلوم . ونشر مايرهوف الكثير من المقالات حول هذا الموضوع .

أما الدكتور محي الدين التطاوي (١٨٩٦ - ١٩٤٥) فعندما عاد الى بلاده عين طبيبا في الصعيد (؟) ولم تقدر مواهبه وكفاءاته وأعماله ، وحدث ان هبت جائحة تيفوس على المنطقة التي كان فيها فأصيب وتوفي اثر أصابته . ٢٠٠٠ ؟

وبدا علماء الغرب يعترفون بتردد بفضل ابن النفيس . اذ لا زال سؤال مطروح : كيف انتقل اكتشاف ابن النفيس الى الغرب وعلمائه ؟ . وتصدى للجواب على هذا السؤال ليف من الباحثين من بينهم الدكتور عبد الكريم شحادة (من حلب) فكرس اطروحة لنيل الدكتوراة من باريس لهذا الموضوع عام ١٩٥٢ . (٢٠) وهو اليوم استاذ الأمراض الجلدية في كلية الطب بحلب .

وهكذا وجد على ان ابن النفيس كان معروفا لدى الأوروبيين اذ قد ترجم كتابه هذا الى اللاتينية خلال القرن السادس عشر في دمشق ومن قبل الباغوس ونشر الكتاب في البندقية عام

(*) تأمل « مجلة التراث العربي » ان تشر في العدد القادم هذه الاطروحة الهامة ، خاصة وان اطروحة الدكتور التطاوي قد وضعت في مكتبة الجامعة الالمانية المذكورة ١١ - التحرير .

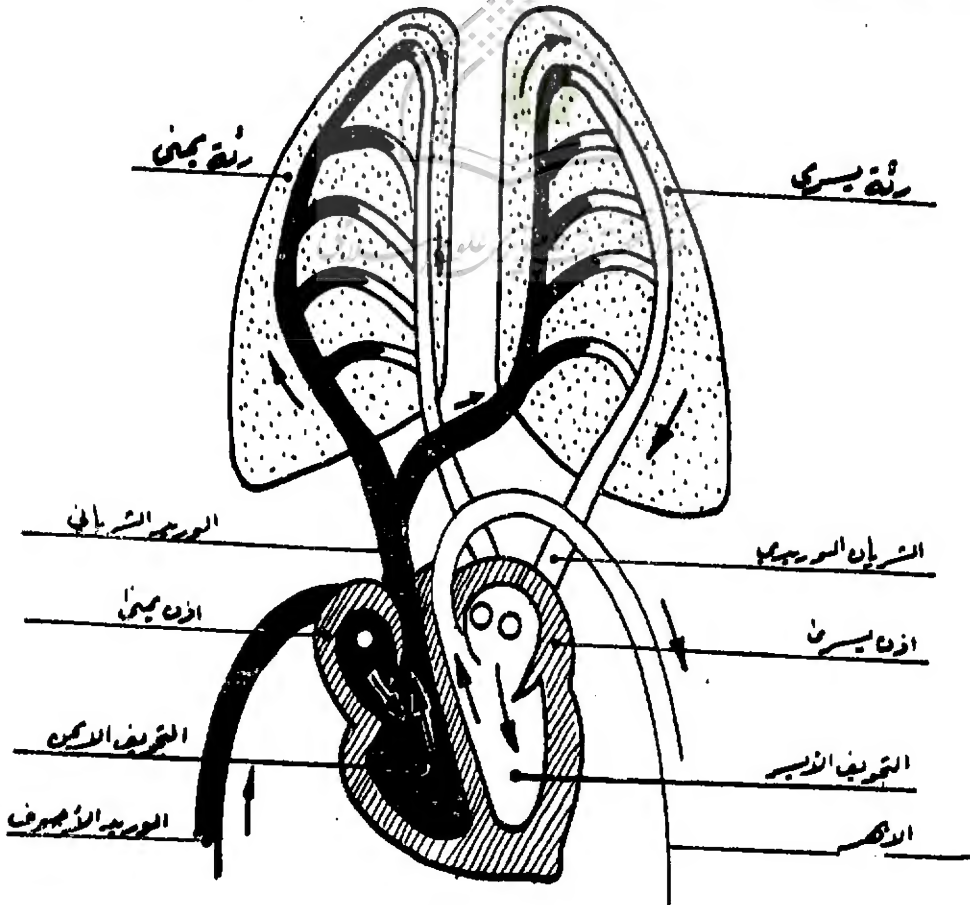
ويجتمع في الأيمن ، ويستعد في الوسط ، ويصير
روحا PNEUMA في الأيسر ، وتنطلق الفتحات
بين البطن اثناء الانقباض ،

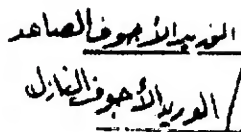
والقلب يجذب الهواء البارد من الرئتين ،
ويدفع البخار الدخاني ، ويتحرك في النفس
الطبيعي عشر مرات : خمسة انبساط ، وخمسة
انقباض ، وحركة الدم كحركة مد البحر والجزر
(أي لا دوران) ، والدم نوعان : مروح ، ودخاني
أو مدخن أو متدخن .

لكن ابن النفيس نقض هذا الكلام فقال في
كتابه « شرح التشريح » اذا لطف الدم فلا بد من

الى اليمين : أحدهما ينفذ فيه الدم من الكبد
والآتي عن طريق الوريد الأجوف ، والثاني هو الذي
يتصل به الوريد الشرياني (ما نسميه حالياً :
الشريان الرئوي) ، واثنان الى اليسار : أحدهما
منفذ الأبهر ، والثاني : منفذ الشريان الوريدي
(ما نسميه حالياً : الوريد الرئوي) ، وللقلب
اذنان ، ويحيط بالقلب غشاء صلب ، ويعلوه شحم
كثير ، وتتصل به رباطات كثيرة .

ويعطي القلب لسائر أعضاء البدن : الحياة ،
والحرارة ، وسائر القوى ، وهو دائم الحركة ،
وينتقل الدم من البطن الثلاثة بالتدريج : ينصب





86

مسلم وهو علاء الدين بن النفيس الدمشقي، وهذه حقيقة اعترف بها علماء العالم أجمع .

- ان السبب في الاكتشاف هو اهتمام علماء عرب بالموضوع ، وكل ما ألفه وكتبه المستشرقون كان سلبيا في معظم الحالات . لذا : كان من أولى واجبات علماء العرب الاهتمام بالتراث ودراسته ، وأولى واجبات الدول العربية تخصيص الأموال وتكريس الجهود في سبيل ذلك وتأسيس المعاهد ، وتشجيع البحث (وهو ما يجري حاليا) من أهم الأسباب الداعية الى أمثال ذلك الاكتشاف .

ملاحظة :

قامت المؤسسة العامة للسينما في دمشق بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي بحلب ، بانتاج فيلم وثائقي عن ابن النفيس أخرجه الأستاذ صلاح ذهني ، وعرض لأول مرة بمناسبة انعقاد الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب « في جامعة حلب في نيسان ١٩٧٩ . شارك في اعداد مادته العلمية الاساتذة : د . عبد الكريم شحادة ، د . نشأت حمارنة ، د . سلمان قطاية .

المصادر العربية :

- غليونجي د . بول ابن النفيس - سلسلة : اعلام العرب .
- شبوط د . محمد نزار : ابحاث اسبوع العلم الثامن - الكتاب الاول (الطب) دمشق - ١٩٧٠ .
- ابن ابي اصيممه : ميون الانباء في طبقات الاطباء - دار الحياة - بيروت ١٩٦٥ .
- عيسى د . احمد : معجم الاطباء - القاهرة - ١٩٤٢ .

المصادر الاجنبية :

Chéhade Dr. A.K. : Ibn An-Nafis, Et La Découverte De La Circulation Pulmonaire Institut Français De DAMAS - 1952.

نفوذه الى التجويف الأيسر حيث يتولد الروح . ولكن ليس بينهما منفذ ، فان جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر ، كما ظنه جماعة ، ولا منفذ غير ظاهر يصلح نفوذ هذا الدم ، كما ظنه جالينوس . فان مسام القلب هناك متحصفة ، وجرم غليظ فلا بد ان يكون هذا الدم اذا لطف نفذ في الوريد الشرياني الى الرئة لينبت في جرمها ، ويخالط الهواء ، ويصفي ألطف ما فيه ، وينفذ الى الشريان الوريدي ليوصله الى التجويف الأيسر من تجويفي القلب ، وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح « ويقول أيضا » فان القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين المنفذين البتة » .

وهكذا فقد برهن ابن النفيس على ان القلب يحتوي على بطنين فقط غير متصلين ببعضهما البعض .

وان الدم يذهب من البطين الأيمن الى الرئة « فيتروّج » ثم يعود الى البطين الأيسر .

أما كيف توصل الى ذلك ، فلا بد أنه قام بتشريح الحيوان ، والانسان ، اذ نجده يقول « والتشريح يكذب ما قالوه » . وهذا يعني ، بالطبع ، التشريح العملي على الجثة . ولا بد انه كان يقوم بذلك سرا خيفة رجال الدين ومعارضتهم . ثم جاء وليام هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧) فأكمل الصورة ووضعها في شكلها العلمي الحالي . فنسبت اليه ، كما نسبت قبلا الى سيرفيتوس . والواقع ان المكتشف هو العربي ابن النفيس .

وخلاصة القول :

- ان مكتشف الدورة الدموية الرئوية هو عربي



حلف النَّدوة العالمية للدِّراسات الأوغاريّة

إعداد: علي القحّم

افتاحية الندوة

الدكتور عفيف بهنسي



مليون عام على الاقل مرت على وجود الانسان في شمالي الساحل السوري ، لقد اكتشفت آثار هذا

الانسان واضحة على ضفاف نهر الكبير الشمالي .
ولسنا ندري كيف تطور هذا الوجود الانساني حتى بداية العصر الحجري الحديث Neolithique ،
الا اننا أصبحنا نعرف المزيد من المعلومات عن الفترة القائمة في الألف السابع ق م وعن ظهور شعوب عربية سامية استطاعت أن تكون بداية الحضارة ، فتبني من الحجر بيوتا منتظمة وتستفيد من الطلاء الكلسي لأكساء الجدران ، وتصنع الفخار الذي تتطور صناعته بسرعة .

وفي الألف الرابع تتوضح شيئا فشيئا الشعوب التي استوطنت الساحل السوري وبخاصة رأس الشمرة ، وذلك من خلال صناعة الفخار التي تماثل فخار تل حلف وحسونة وتأخذ المنطقة اسم اوغاريت وتصبح مركزا لكنعانيي الشمال .

لقد ساعد اكتشاف أرشيف ايبلا في تحديد هوية الشعوب الكنعانية وأصلها . فلقد تبين أن اللغة التي استعملت في ايبلا ما هي الا الوسيط بين لغة أكاد وكنعان ، ويفسر هذا انتقال الشعوب السامية

من بلاد الرافدين الى الساحل السوري ، كما يفسر انتقال الحضارة معها ، مما يحدد شخصية متميزة لحضارة واسعة ومستمرة . وليست الحضارات اللاحقة الآرامية ثم العربية الاسلامية الا استكمالا لتلك الأصول القديمة التي ابتدأت مع بداية التاريخ .

لقد وصات اوغاريت الى قمة ازدهارها بعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ويدل على ذلك ما اكتشف من مباني هامة كالقصر الملكي والأحياء الرسمية والحرفية ، وما عثر عليه من تماثيل هامة مثل تماثيل بعل والرأس العاجي وألوف الرقم Tablettes التي حملت أخبار الحضارة الأوغاريتية فعرفتنا على سياسة اوغاريت وعلاقاتها بسكان وادي النيل والحثيين والحيوريين . كما عرفتنا على القوانين السائدة والآداب والعقائد التي تعتبر أصلا للكاداب التوراتية .

ولعل أهم حدث هو اكتشاف رقيم فيه ثلاثون رمزا أبان لنا أن أوغاريت كانت قد ابتكرت أقدم أبجدية في العالم . ولمور سكان جيل هذه الأبجدية فكانت أساسا للأبجدية الآرامية والنبطية والعربية ثم انتقلت الى الاغريقية الأولى ثم اللاتينية . ولعل النقد الاغريقي الذي يحمل صورة قدموس وهو يعلم أهل طيبة الأبجدية أكبر دليل على انتقال الأبجدية الكنعانية الى العالم . ومن بين الرقم المكتشفة في أوغاريت رقيم يحوي أقدم قطعة موسيقية ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أي قبل ألف عام من ظهور علم الموسيقى على يد فيثاغورس . ولقد أثبتت العالمة كيلمر Kilmer أن موسيقى رأس الشمرة التي تقوم على السلم السباعي الدياتوني هي أساس الموسيقى الغربية .

وتل سو كاس ، ثم رأس البسيط ورأس ابن هاني وأفاميا وتدمر وبصرى وشهباء والرصافة وقصور الحير .. وعشرات غيرها هي مراكز حضارية متتابعة اكتشفت خلال هذا القرن وزودتنا بروائع الآثار والأخبار .
ولكننا اليوم وبعد خمسين سنة من بداية الحفريات في أوغاريت لابد أن نحیی هذه الجهود التي عملت بصبر وإخلاص . ولا بد أن نذكر بالتكريم جميع الأثريين الذين تعاقبوا في رأس الشجرة باحثين عن حضارتها وتاريخها ولا بد أن نحیی زملاء لنا خدموا العمل الأثري في أوغاريت وغيرها وتركوا أثر جهودهم ورعايتهم لأعمال الكشف واضحة فيما قدموا من دراسات وتراجم نشرت في حوليتنا الأثرية .

خلال خمسين عاما متصلة كانت مجموعة من العلماء الفرنسيين على رأسهم البروفسور كلود شيفر فورير ، تعمل في موقع رأس الشجرة لمتابعة التنقيب والكشف عن حضارة هذه المنطقة وإيضاح تاريخها بل تاريخ جزء هام من العالم القديم . ولقد قدمت لنا الدراسات التي نشرت في سلسلة أوغاريتيكا Ugaritica معلومات هامة وأساسية لكتابة تاريخ سورية بل تاريخ الانسانية في الألف الثاني .

ولكن ، وليست أوغاريت هي الموقع الوحيد الذي كشف المراحل الناقصة من التاريخ القديم ، بل أن تل حلف وماري وتل خويرة Khouéira وإيلا وعمرت

سلطت ضوءا جديدا على أوغاريت ومستقبل الدراسات الأوغاريتية الى أن المديرية العامة للآثار والمتاحف سوف تقوم بإصدار عدد خاص من مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية يتضمن كافة الأبحاث التي ألفت في هذه الندوة العالمية ... لذا فإن ما تقدمه في هذا الملف الخاص لن يتعدى عرضا سريعا لأبحاثها وترك الأفاضة لمجلة الحوليات الأثرية وعددها الخاص عن الندوة ..

مقدمة وملحة تاريخية عن أوغاريت :

لم يكن اسم أوغاريت معلوما قبل عام ١٩٢٩ إلا بواسطة بعض الكتابات القديمة النادرة الى أن جاء الثاني من نيسان من ذلك العام ، يوم بدأت البعثة الفرنسية برئاسة السيد كلود شيفر العمل في التل المسمى (رأس الشرا) حيث اكتشفت أوغاريت في موقعها الذي يبعد حوالي عشرة كيلو مترات الى الجهة

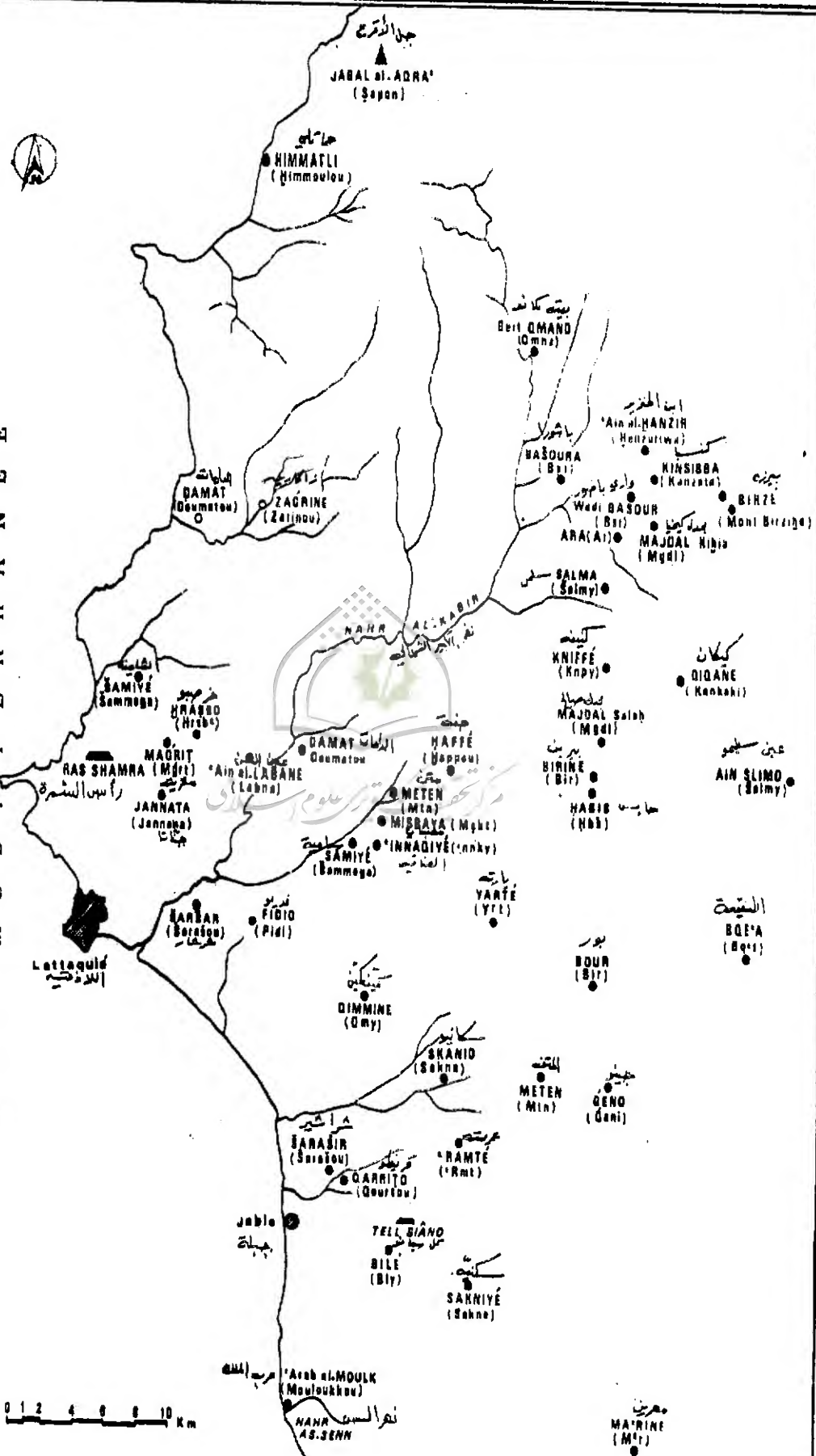
في الفترة الواقعة بين ١٠ - ١٣ تشرين الاول ١٩٢٩ عقدت في مدينة اللاذقية تحت رعاية السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية الندوة العالمية للدراسات الأوغاريتية بمناسبة مرور خمسين عاما على بدء العمل الأثري في أوغاريت .. ولقد شارك في هذه التظاهرة

العلمية الهامة ما ناف على تسعين عالما أثريا من القطر العربي السوري والاقطار العربية وفرنسا وإيطاليا وآنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان وإسبانيا وألمانيا الاتحادية وبلجيكا ...

ونشير قبل استعراض المحاضرات الهامة التي

ملف
الندوة
العالمية
للدراسات
الأوغاريتية

البحر المتوسط
M E R M E D I T E R R A N E E



ذلك العهد كانت تتطلب ١٥٠ - ٢٠٠ إشارة لتدوين الكلام الا ان اللغة الاوغاريتية كانت لاتتضمن أكثر من ثلاثين اشارة .. ففي اذن أبجدية بالمعنى المطلق اليوم لهذه الكلمة .. وما زاد من أهمية هذه الأبجدية اكتشاف لوحة صغيرة نقشت عليها أحرف اللغة الاوغاريتية بالترتيب التي كانت تلفظ به عادة وهو نفس ترتيب (ابجد هوز حطي ٠٠٠) وهذا الترتيب هو على وجه التقريب نفس ترتيب الأبجدية اليونانية التي هي أساس جميع أبجديات العالم الحديث .. وهذا ماثبت بصورة حازمة الأصل السوري للأبجدية اليونانية .. وبعد حل رموز هذه اللغة أمكن معرفة مضمون اللوحات العديدة المكتشفة في اوغاريت وتضمنت : الملاحم والقصائد الميتولوجية وكتابات تتعلق بالمحاسبة وكتابات مدرسية للتعليم ولوائح بأسماء الاعلام وكتابات تتعلق بممارسة الطقوس الدينية ونصوص قضائية ومستندات تجارية ولوائح بأسماء المدن والقرى في مملكة اوغاريت ، ونصوص رسمية ومخطوطات دبلوماسية وأخرى تتعلق بالتنظيم العسكري وغير ذلك من اللوحات الهامة ..

ابحاث الندوة :

قسمت أبحاث الندوة حسب مواضيعها الى أربع مجموعات .. الاولى منها خصصت للغة والنصوص الاوغاريتية والثانية خصصت لآثار اوغاريت والثالثة للديانة والاساطير الاوغاريتية ، والرابعة خصصت لتاريخ اوغاريت ..

ونستعرض فيما يلي أهم الابحاث والمحاضرات التي أقيمت في هذه الندوة العالمية حسب مواضيعها ..

(١) اللغة والنصوص :

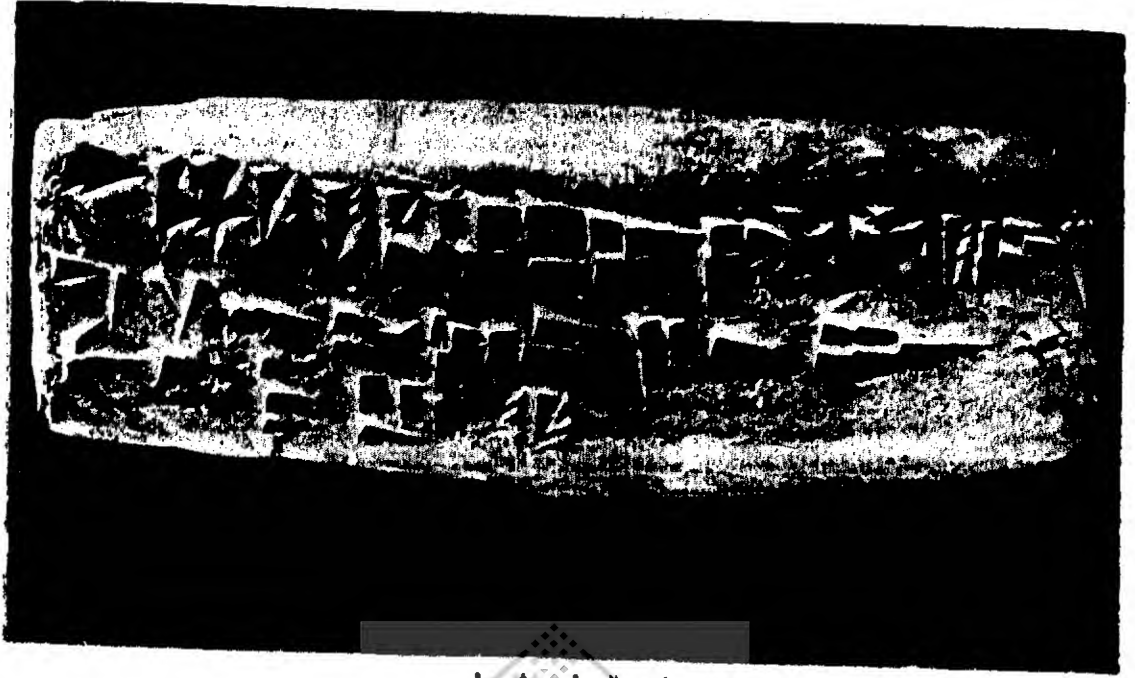
افتتحت الندوة بالدراسة التي أعدها الدكتور علي أبو عساف (سورية) حول شرح معاني بعض المفردات

الشمالية من مدينة اللاذقية على الساحل السوري واكتشفت فيها أقدم أبجدية معروفة في العالم وتعود الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد (في زمن اكتشافها) . ويعود تاريخ اوغاريت الى العهد الحجري الجديد أي الألف الخامس ق م وقد وصلت الى عهدها الذهبي في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد الى أن غزتها (شعوب البحر) في القرن الثالث عشر وبدء القرن الثاني عشر قبل الميلاد وقد جاءت هذه الشعوب من البلقان والسواحل الشمالية والبحر الاسود واستولت الغزاة على اوغاريت وهدموها وتابموا سيرهم نحو الجنوب بعد أن أنموا عملهم الهدام ..

وموقع اوغاريت حالياً نجده فوق تل يدعى (رأس شبرا) يملو حوالي ١٧ متراً عن سطح البحر ، يحيط به من الشمال والجنوب مجرى نهر الفيض الذي يصب في البحر المتوسط في موقع هام جداً بالنسبة لمدينة اوغاريت (مينا البيضاء) الذي كان يتألف من حوضين : الكبير والصغير وهو المنفذ البحري لهذه المدينة العظيمة التي اشتهرت بتجاريتها .. فكانت المراكب تصل اليها من البحر تحمل معها البضائع كالذهب والعمود والبخور برسم التصدير الى سوريا الشمالية وبلاد ما بين النهرين وتعود منها محملة بالآخشاب والنحاس والأواني البرونزية والأسلحة ، كما ازدهرت تجارة الجياد بين اوغاريت من جهة ومصر من جهة أخرى .

أبجدية اوغاريت وكتابتها :

اكتشفت أبجدية اوغاريت عام ١٩٤٩ .. فأثارت اهتمام العلماء الاثريين في العالم أجمع .. بسبب كون اللغات الاخرى كالمسامرية والهيريغليسية والحمورية وغيرها من اللغات التي كانت تستعمل في



أبجدية راس شمرا

UGARIT	LATIN	ARABE	UGARIT	LATIN	ARABE	UGARIT	LATIN	ARABE
𐎀	A	أ	𐎁	Y	ي	𐎂	P (F)	ف
𐎃	B	ب	𐎄	K	ك	𐎅	د =	ص
𐎆	G	ج	𐎇	ژ =	ش	𐎈	و	ق
𐎉	ح =	خ	𐎊	L	ل	𐎋	R	ر
𐎌	D	د	𐎍	M	م	𐎎	ن =	ث
𐎏	H	ه	𐎐	ه =	ذ	𐎑	و =	غ
𐎒	W	و	𐎓	N	ن	𐎔	T	ت
𐎕	Z	ز	𐎖	ز =	ظ	𐎗	I	إ
𐎘	ح =	ح	𐎙	S	س	𐎚	U	ؤ
𐎛	ط =	ط	𐎜	ع =	ع	𐎝	(S)	(س)

الاولغاريتية ومقارنتها بالعربية .. وقد أشار الدكتور أبو عساف في دراسته الى أن معظم العلماء المهتمين بدراسات اللغات الشرقية قد قللوا في استشهادهم بمفردات اللغة العربية وقواعدها حين يدرسون نصا اوغاريتيا أو آراميا واكتفوا في غالب الأحيان بإيراد مرادفات عربية لكلمات واضحة المعنى وتجنبوا نهائيا مقارنة أية كلمة ذات معنى غامض كما هو الحال بالنسبة للأوغاريتية مع الكلمات العربية ومرد ذلك في رأيه هو صعوبة الاسالك بمفردات اللغة العربية وقواعدها المخزونة في قواميس كبيرة ، وأشار الى انه لولا اللغات الحية لما وصلنا الى النتائج التي بين أيدينا الآن ومن هنا يجب أن نتمدد أكثر فأكثر على اللغة العربية في ازالة الغموض عن معاني كلمات كثيرة ويجب الاكثار من المقارنة بينها وبين ماسبقها من لهجات حتى نصل الى غايتنا . وان اللغة العربية التي نتحدث بها ليست الا المرحلة النهائية التي تطورت اليها لغات بلادنا القديمة التي وصلت اليها مكتوبة بالخط المساري أو بالحروف الأبجدية ، وهي وريثة تلك اللهجات بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، اذ حفظت مفرداتها وصقلت معانيها وهذبت ألفاظها على قواعد علمية وصاغت قواعدها على نحو شامل . لقد مكنتنا هذا في كافة أرجاء الوطن العربي من الكتابة بلغة موحدة والتحدث في غالب الأحيان بلغة فصحي واحدة ، ونحن في الوطن العربي كثيرا من الأمم لا نتكلم فقط بلغة عربية فصحي موحدة بل لدينا لهجات تسميها عامية تعود في أصولها « حسب رأي الدكتور أبو عساف » الى تلك اللهجات القديمة من أكادية وكنمانية وآرامية ويمينية ... والعربية الفصحى والعامية شعرها وثرها وقواعدها ومفرداتها تطورت عن تلك اللهجات أو اللغات ولا يستطيع أحد أن ينكر بأنها المرجع الأهم في

دراساتنا لتراثنا اللغوي القديم ، ونحن نحسن صنعا فيما اذا زدنا من اهتمامنا بدراسة لغاتنا الشرقية القديمة وربطناها باللغة العربية حفاظا على تراثنا الى جانب ان مثل هذا الامر يقود الى اجلاء الغموض عن مفردات كنمانية ، آرامية ، اوغاريتية ... ليس لها ترجمة مرضية حتى الآن ... وللوصول الى هذه الغاية قام الدكتور أبو عساف « كما نوه » بما يلي :

- ١ - جمع المفردات الاوغاريتية ذات المعنى الغامض مرقمة وفق تسجيل العالمين استيلير وغوردن .
- ٢ - العودة الى النصوص التي وردت فيها تلك المفردات فشاهد أن من هذه النصوص ما هو شبه تام ويسكن فهم معناه وما هو مشوه لايسكن فهم معناه أو حتى فحواه .. وكان امام امرين اثنين : اولهما انه بالامكان في حال كون النص تاما أو شبه تام فهم محتوى النص وبالتالي تقدير معنى الكلمة لم تترجم ، وثانيهما وجد أنه ليس من المستحيل وجود قرائن عربية لمفردات أوغاريتية وردت في نصوص مشوهة .

وكانت هنالك صعوبات منها :

- ١ - من العسير أن نجد جملا متطابقة استعملت فيها نفس الكلمة في الاوغاريتية والعربية ، بل نجد تقاربا في المعنى .
- ٢ - رغم اسهاب قواميس اللغة العربية في ايضاح معاني الكلمات فان شواهدا من الجمل قليلة .
- ٣ - ان الرجوع الى العامية صعب بسبب عدم توفر تدوين لها وتعذر التنقل في الريف بغية البحث والدراسة .

وقام الدكتور أبو عساف في نهاية بحثه بعرض موجز لأهم النتائج التي توصل اليها وعرض كلمات مختارة أوغاريتية مع مقارنتها بالعربية ...

عبارة استخرجت من نص « أقمت » الاوغاريتي عرض ترجماتها السابقة ثم قدم الترجمة التي اعتقدها الأصح مستندا بالدرجة الاولى الى اللغة العربية مع اللجوء في بعض الاحيان الى لغات سامية أخرى .

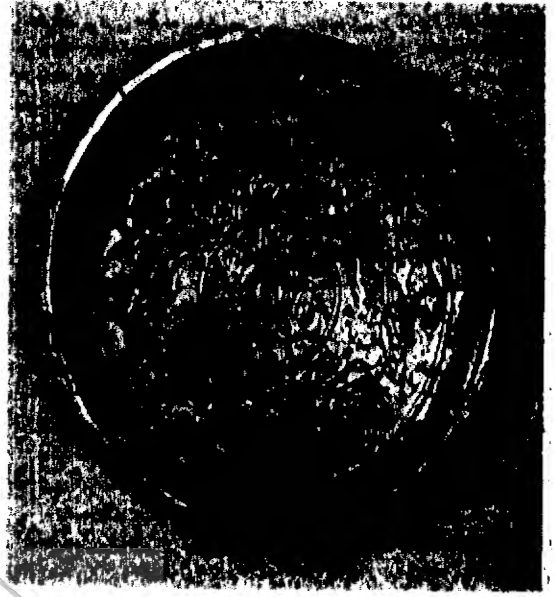
● بيير بورد روي الاستاذ في المركز الوطني للبحث العلمي في باريس (فرنسا) قدم بحثا حول « نصوص أبجدية لم تنشر عن رأس الشمران ونصوص أبجدية جديدة في رأس ابن هاني » . حيث أشار الاستاذ بورد روي في بحثه الى نص أبجدي واحد قد بقي حتى اليوم غير منشور اكتشف صدفة على سطح تل رأس الشمران في عام ١٩٧٤ وقدم تفسيراً جديداً له ويرى فيه ما يدل على نظام في الوزن وفيه « الفرس » يعادل ثلث الشاتل .

اما النصوص الابجدية المكتشفة في رأس ابن هاني عام ١٩٧٧ وعام ١٩٧٨ فهي تماثل في مواضيعها ما اكتشف في العاصمة اوغاريت ، ومن هذه النصوص المجزأة في الغالب :

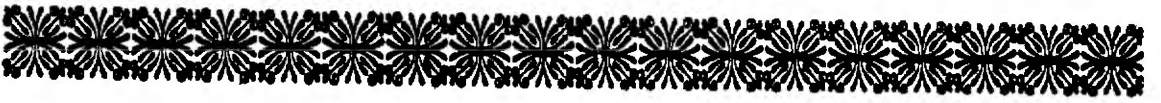
- قوائم اسماء، وأسماء اماكن، واعطيات ونذور .
- رسائل تذكر الملك أو الملكة . . واحداها تعتبر من المراسلات الدولية .
- نصوص طقسية بعضها يذكر الملك أو الملكة .
- نصوص ميتولوجية ، اثنان منها من طبيعة ، سحرية .

● الاستاذ جون هيلي من جامعة ويلز (بريطانيا) قدم بحثا حول « الاوغاريتية ودراسة اللغات السامية » تطرق فيه الى مواضيع هامة بالنسبة للدراسات الاوغاريتية اللغوية منها :

- ١ — وقع اكتشاف اللغة الاوغاريتية على دراسة مقارنة للغات السامية من (عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٧٩) .
- ٢ — تصنيف اللغة الاوغاريتية بين اللغات السامية .



●● الاستاذ لؤي عجان (سورية) قدم بحثا بعنوان « ايضاح بعض التعابير الغامضة من نص أقمت على ضوء اللغة العربية » حيث قام الاستاذ عجان بمقارنة بعض التعابير التي وردت في نص « أقمت » الاوغاريتي ببعض التعابير العربية ، وأشار الى أنه خرج بنتائج لعلها حلت بعض العقد ومنها مثلا تفسير كلمة وردت في مطلع النص الاوغاريتي حيث نجد « دائل لم يرزق ابنا يطعم ويستقي الآلهة (اوزر) ، اوزر ايلم يلحم و اوزر يشقي بن قدش » . وأشار الاستاذ عجان الى أن ترجمة كلمة (اوزر) ظلت غامضة وان اقترب بعضهم الى المعنى الصحيح حين اعتبروها نوعا من التقدمة للآلهة ، ولكن عند العودة الى اللغة العربية وجدنا ان الاعذار والعذار والعذير كلها تعني الطعام الذي يقدم بمناسبة الغتان . ودائل المحروم من الولد يقدم ذلك الطعام للآلهة لحنها على منحه الولد وكأنه يقول « هذا هو الطعام فأين الولد » . واستعرض الاستاذ عجان في بحثه حوالي عشرين



بالفيشاغوري ذي ابعاد الخمس متتالية (أو أبعاد
بالخمس وابعاد بالاربعة متناوبة) • البعد بالثلاثة
شديد التنافر لا يمكن استعماله عند تعدد الاصوات
والمحتمل انه لهذا السبب تعدد الاصوات غير مستعمل
بالشرق •

(٢) آثار اوغاريت :

افتتحت الجلسة المخصصة للأبحاث المقدمة حول
آثار اوغاريت بالبحث المقدم من الدكتور عدنان البني
(سورية) حول « القصر الملكي الاوغاريتي في ابن
هاني » تحدث فيه عن الظروف التي أدت الى الكشف
عن موقع ابن هاني وعن مواسم التنقيب الخمسة التي
قامت بها بعثة التنقيب المشتركة (عربية - فرنسية)



مدخل القصر الملكي

٣ - أهمية اللغة العربية في دراسة اللغة الاوغاريتية
مع تقرير خاص باستخدام اللغة العربية الدارجة في
سورية •

● الدكتور دينيس باردي من جامعة شيكاغو
(الولايات المتحدة) قدم بحثا بعنوان « كتاب بنحات
اور محاد الى معلها » وهو من ضمن بحث واسع عن
كتابة الرسائل الاوغاريتية قام به المؤلف بالاشتراك مع
(جاري توتل) و (دافيد وورتمان) من جامعة (ييل)
وهذه الرسالة هي من الخادمين (بنهت) و (يرمحد)
موجهة الى سيدهما الذي لم يذكر اسمه ، وتتضمن
الرسالة تسعة وعشرين سطرا موزعة في ثلاثة مقاطع
بخطوط أفقية ، يتضمن المقطع الأول عبارات العنوان
والتحية ، في حين أن المقطعين الآخرين يشكلان صلب
الرسالة ، وهدفت هذه الدراسة الى فحص عبارات
هذه الرسالة بالمقارنة مع الشكل الرسائلي العام الدارج
في اوغاريت باللغة الاوغاريتية والاكادية ومحاولة
تفسير بعض التماير الموجودة في صلب الرسالة •

● الاستاذ راوول فيتالي (سورية) قدم بحثا
حول « اللوحة الموسيقية الاوغاريتية وبعض
الملاحظات حول ترجمتها وتفسير معناها »
وتضمن البحث :

(١) - وصفا للوحة : وهي نشيد باللغة
العهورية مؤلف من ٤ أبيات تبدأ كتابتها على وجه
اللوحة وتكتمل على الوجه الآخر •

(٢) - معلومات عن اللوحة الموسيقية الاكادية :
لوحة تعطي اسماء اوتار القيثارة ، ولوحة أخرى
تعطي اسماء الأبعاد الموسيقية وموقعها على الاوتار
ولوحة تعطي معلومات على توافق اصوات القيثارة •
والنتيجة التي توصل اليها الباحث في بحثه هي :
أن السلم الموسيقي المستعمل هو السلم المسمى

الاوغاريتي وشيد هذا القصر بطريقة السطوح المتدرجة التي عرفت في ايمار (مسكنه) على الفرات ، وكل من السطوح مشكل من الرمل والتربة الفضارية الحمراء ... ولكن هذا القصر لم يعثر فيه على لقى كثيرة ويبدو انه قد أفرغ من اثاثه ومحتوياته من أجل الاصلاح أو خوفا من اجتياح شعوب البحر التي كانت تهدد القسم الشرقي من البحر المتوسط حوالي نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

أما القصر الشمالي فهو كالقصر الجنوبي كان مخططا واتجاهها وشيد على خط الساحل ولكنه في

والتي اوضحت في التل وما حوله خمس سويات أثرية هامة .. وأشار الى أن السوية الخامسة هي أقدم السويات المعروفة حتى الآن وتعود الى عصر البرونز الحديث الثاني ، والثالث (القرن الرابع عشر والقرن الثالث عشر قبل الميلاد) وقد انجلت عن قصرين جنوبي وشمالي وبينهما منشآت مختلفة الطبيعة عرف منها بعض المنازل .

والقصر الجنوبي تبلغ مساحته حوالي ٢٥٠٠٠ وهو موجه بزواياه الى الجهات الأربعة يصونه من الجهة الشرقية سور للدفاع والدعم يشبه السور الغربي



مخطط القصر الملكي



(رأس أمير أو أميرة من أوغاريت)

وضع اسلم .. وهذا القصر أغنى من الجنوبي باللقى وفيه فخار وبعض أجزاء أواني الألباثر والماسج .. ونصوص هذا القصر ذات قيمة فائقة لأنها أكبر مجموعة بين النصوص الاوغاريتية ولأنها من ناحية ثانية ذات محتوى هام اذ تضم مراسلات داخلية وخارجية كما تضم نصوصا اقتصادية ودينية وميثولوجية وعلية وسحرية .

● جاك لاغارس من المركز الوطني للبحث العلمي في باريس (فرنسا) قدم بحثا حول « منشآت الدعم والدفاع في رأس الشمرأ رأس ابن هاني » قال فيه « انه في سبيل تدعيم الانقاض التي كانت تقوم عليها أرض القصر الجنوبي في رأس ابن هاني ، قام معماريو عصر البرونز الحديث بإحداث ركابا بارتفاع ثلاثة أو أربعة امتار يحويه من الخارج جدار استنادي من الحجر بشكل سور شديد الميلان . وهذا الاسلوب على أهميته الدفاعية هو عمراني قبل كل شيء اذ بدونه لم يكن بالإمكان عملية القصر عن الصخور الطبيعية التي بني عليها .

من ألف وخمسمائة عام .. ويمكن القول ان القبور التي تعود الى عصر البرونز الحديث بالرغم من انها أقل أهمية من قبور اوغاريت ، فقد تم العثور فيها على أثاث جنازي غزير من الفخار وأدوات الزينة والتي تنتمي الى أصول متعددة : قبرصية ، الميسينية ، مصرية وكذلك محلية .

وان اكتشاف السور المائل في ابن هاني قد حدا بنا الى اعادة النظر في السور المائل برأس الشمره والتحصينات المتصلة به . وقد لاحظنا ان سور رأس الشمره المائل يحمي هو نفسه أيضا ، ركابا من ترابطة بيضاء مرصوفة واضحة وهنا نجد أن السور المائل له وظيفة تدعيم الطرف الغربي من التل .

● الاستاذ روجيه صيدح (لبنان) قدم بحثا بعنوان « اوغاريت وصيرون : بعض أوجه التشابه » تحدث فيه عن أعمال الحفر والتنقيب التي أجريت منذ بضع سنوات في ضواحي مدينة صيدا والتي كشفت النقاب عن مقبرة قديمة العهد استعملت خلال ما يقرب

ولقد جاء هذا الاكتشاف ليؤكد وجود مركز تجاري هام في صيدا بين عامي ١٤٠٠ - ١٣٠٠ ق م وانه لعب دورا كبيرا في جنوبي البلاد الفينيقية ومن الممكن مقارنته بدور اوغاريت .

أما المقبرة التي ترقى الى نهاية العصر الحديدي فقد عثر فيها على قبور تذكرنا بالقبور التي عثر عليها

الاستاذ شيفر في ربيع عام ١٩٣٣ والتي تعود الى العصر الحديدي ايضا .

ومنه يمكن القول ان الاثاث الجنائزي وما أضيف اليه من الكتابات اتاحت تحديد تاريخها بدقة بمقارنته بتاريخ القبور المعاصرة التي وجدت في اوغاريت .

● الاستاذ نسيب صليبي (سورية) قدم بحثا حول « المدفن الاوغاريتي الذي اكتشف صدفة عام ١٩٧٠ » وهو من القبور المعروفة جيدا في اوغاريت ويذكرنا بالقبور المسيحية الكبيرة . وقد أدت عمليات الكشف التي قامت في هذا المدفن الكبير الى اكتشاف الكثير من القطع والفخاريات التي قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بترميمها . كما اكتشفت بالاضافة الى ذلك في المدفن جرة من حجر الالباتر من مصدر مصري .

● الاستاذ سي ايشي ماسودا من جامعة طوكيو (اليابان) . قدم بحثا حول « فخار تل الرميطة في حوض الفرات وعلاقته مع حضارة العصر البرونزي في الساحل الشرقي للبحر المتوسط » . استعرض فيه الباحث اعمال التنقيب الاثري الذي قامت به البعثة الالمانية اليابانية خلال خمسة مواسم تنقيية منذ عام ١٩٧٤ بتل الرميطة وتل المشرفة الواقعين في حوض الفرات الى جانب تحريات واسبار في عدد من المواقع المحيطة بهما مثل : مدافن العصر البرونزي بما فيها مقابر الدولن ومدافن من العصرين الروماني والبيزنطي . كما بين في بحثه أوجه التشابه بين الفخار المكتشف في تل الرميطة وفخار مواقع العصر البرونزي الوسيط والمتأخر على ساحل البحر المتوسط في سورية بما فيها (اوغاريت) .

(٣) الديانة والاساطير :

من ضمن الابحاث المقدمة والتي تتعلق بديانة

واساطير اوغاريت قدم الاستاذ باولو كسيلا من جامعة روما (ايطاليا) بحثا بعنوان « الرب ، رشف ، في اوغاريت » قال فيه « خصص للرب السوري «رشف» حتى الآن عدد هام من الصفات والدراسات ورغم ذلك يمكن التأكيد بأن شخصية هذا الرب مازالت غامضة حيث المعطيات بسجلها بخصوصه تدلنا على سلسلة من الصفات المعقدة كثيرا أو المتناقضة لتوافق الحقيقة التاريخية ، ويعود كل هذا الى عادة اعتبار المعطيات (المصرية الاوغاريتية والفينيقية ..) ككل تعود الى عصور مختلفة جدا وباعطائنا الافضلية للوثائق السورية من الألف الثاني قبل الميلاد فأننا نفترض هنا اقترابا من - رشف - الذي يأخذ بعين الاعتبار العنصر التاريخي ويهدف أيضا الى اقامة شخصية الرب في البيئة والعصر الذين تدل عليهما المصادر

إن نصوص رأس الشمر ونصوص رأس ابن هاني تقدم لنا عدة معلومات عن حضوره في العبادة وعن دوره في مجتمع آلهة اوغاريت ، وعن شعبيته على الصعيد الشعبي ، وان تحليل صفاته (م ح ب ن) و (ح ج ب) و (س ب ي) و (م ل ك) و (ي د ر ب) مع الصفة موضع الجدال (ر ش ف ج ن) الموحدة مع (ر ا ش ف ج و ن) (من نصوص تل مردوخ - ايل) تعرض لنا لائحة غنية ومغرية وتؤدي الى نتائج بعضها جديد .

● الاستاذ بشير زهدي (سورية) قدم بحثا بعنوان « اوغاريت والفكر » قال فيه « ان نصوص اوغاريت المكتشفة من قبل البعثة الالمانية الفرنسية في رأس الشمر ، قد اغنت معرفتنا عن التاريخ الثقافي للشعب الكنعاني العربي الاصل » .

وقد هدفت دراسة الاستاذ زهدي الى عرض

بالبحث والتحليل الاختتام الاسطوانية السورية -
الرافدية من حيث الاسلوب والصور ، وأوضحت في
هذا البحث الطرائق المتبعة ، ونوعية المطبوعة ونمط
النتائج مع اشارة خاصة الى اوغاريت .

● الاستاذ وحيد حياطة (سورية) قدم بحثاً
حول « الديانة الكنعانية على ضوء النصوص المكتشفة
في أوغاريت » . وقد أشار الاستاذ حياطة في بحثه الى
أنه قبل اكتشاف أوغاريت لم تكن نعرف شيئاً مهماً
عن الحضارة الكنعانية ولم تكن النصوص التي عثر
عليها في أوغاريت مكتوبة باللغة الاوغاريتية ، فالى
جانب اللغة المحلية هناك السومرية والبابلية والهورية

اسهام شعب اوغاريت في نشوء الفكر وتطوره ومحاولة
دراسة بعض خصائص الفكرة الميتولوجية والدينية
والسياسية والحقوقية ، والاقتصادية والأدبية
والفلسفية والاخلاقية والجمالية . . . ان الفكرة لدى
المثقف الاوغاريتي تبدو وراء البحث عن مبادئ قادرة
على تفسير قوانين الكون . . . ان النصوص الاوغاريتية
تمكس نشاطاً ثقافياً كبيراً للفكر الانساني يتميز بغنى
التجربة وعمق التأمل .

● مارلين كيللي بوتشيلاتي الاستاذة في جامعة
لوس انجلوس (الولايات المتحدة الاميركية) قدمت
بحثاً بعنوان « ختم السلالة الاوغاريتية » تناولت فيه



(ختم اسطواني)



أدى الى تطور المؤسسات السياسية فضلاً عن ممارسة السلطة داخل الجماعات البشرية وتحديد السيادة بصورة متبادلة بين الدول . وبالنسبة لأكثر المجموعات البشرية كانت السلطة تتجلى بشكل دويلة ذات أراضٍ . والبداءة ، من بين الجماعات البشرية الأخرى وصلوا أيضاً الى مفهوم خاص للعلاقة بين الأرض والسلطة السياسية .

ويجب أن نميز بين نمطين أساسيين من البداءة ، البداءة على طريقة الدارة المغلقة ، والبداءة على طريقة الدارة المفتوحة . الحالة الأولى تقوم على وجود عشائر ترمي الماشية وتحط رحالها نظامياً في أماكن محددة في فصول السنة ، أما في الحالة الثانية ليس للبداءة ، ما يهدي الى خط سيرهم فتحركاتهم ليس لها ابتداء منهج محدد ، ولا يعودون الى منتجعاتهم السابقة الا صدفة ، فهم ينتقلون في دارة مفتوحة تماماً ، وهذا النمط من البداءة يماثل مبدئياً لما نراه لدى العجر في وقتنا الحاضر .

وهؤلاء العجر كظاهرة اجتماعية نوعية ميزوا في اللغة بدقة بدلالة أنه أطلق عليهم اسم واحد في مناطق لغوية مختلفة : ومن ذلك « حبيرو » في اللغة الأكادية . و « عفر » في اللغة الأوغاريتية ، و « عبريم » بالعبرية ، وهم كالعجر تماماً ، كانت لهم هوية محددة ، ولكن ليس لهم وحدة لغوية أو اجتماعية أو سياسية . كانت هويتهم سلبية ، لانهم كانوا أصلاً من المشردين وبقوا بالتالي اناس بلا وطن . كانوا يعيشون على هوامش المجتمع المدني والمستقر (بما في ذلك مجتمع البداءة الذين يعيشون على طريقة الدارة المغلقة فهؤلاء كانوا مرتبطين بالحدود الأرضية ان لم يكونوا مرتبطين بالحياة المدنية) . أن تحديد هوية « العجر » هو نتيجة

الحيثانية والحية الهيروغليفية . والهيروغليفية المصرية والقبرصية القديمة ... وقد جاءت اللقى والنصوص الأوغاريتية لتزودنا ببعض الافكار الواضحة نسبياً عن الديانة الكنعانية السورية القديمة . وعرفتنا نصوص أوغاريت على الديانة الرسمية للدولة . . وان الديانة الكنعانية لم تتأثر بجو عدم الاستقرار السياسي الداخلي الذي كانت تعاني منه سورية عبر تاريخها الطويل كما هو الحال في حضارتها التي تأثرت تأثيراً كبيراً بالحضارات المجاورة فترى أن الدين يشكل وحدة متماسكة واستمراراً ثابتاً فريداً قلما يشذ عن المتعارف عليه .

لقد أعطانا الانسان الأوغاريتي أدباً انسانياً شمولياً يمتد من الساحل السوري الى مصب الرافدين الى وادي النيل وهضبة الأناضول الى البحر الابحدي دون أن ينقص من خصائصه المحلية المميزة وإذا كنا لم نعر في نصوص أوغاريت على أساطير رافدية المنشأ الا ان الاكتشافات المدهشة الأخيرة في تل مردوخ سوف تساعدنا كثيراً في فهم الكثير عن الديانة الكنعانية التي لم تبدأ قطعاً في نصوص رأس شمرة من النصف الثاني من الألف الثاني ق . م وانما تمتد جذورها حتماً الى فترات أقدم .

(٤) تاريخ أوغاريت :

من ضمن الأبحاث التي قدمت في الندوة ضمن هذا الاطار البحث المقدم من جيورجيو بوتشيلاتسي الاستاذ في جامعة لوس انجلوس (الولايات المتحدة الأمريكية) . حول « العجر والبداءة : مسألة الخبيرو من خلال التطور السياسي لسورية القديمة » . ومما تناوله في هذا البحث ...

« ان تطور المدن في الشرق الأدنى القديم قد

وعى حاد في الحضارة التي تمثلها أوغاريت أروع تمثيل » .

● الأستاذ فريد جحا (سورية) قدم بحثاً حول « مكانة أوغاريت بين المدن » تناول فيه بالبحث مكانة أوغاريت كمدينة كنعانية وعربية وتحدث عن ازدهارها وحضارتها وسبل انتشارها ، وتأثيرها فيما حولها من مدن .. وتحدث مطولاً عما كتب حولها من مؤلفات ومقالات وعن كتاب « أوغاريتكا » السنوي الخاص بها وعن مواسم التنقيب فيها .. ثم عدد ما فيها من مرافق وشوارع وصفات هذه الشوارع وتلكم المرافق .. وعرض الى ما تجلى من ذوق أهالي أوغاريت في اللقى التي عثر عليها ، وموضوع الاهتمام بالحياة بعد الموت ، ذلك الاهتمام الذي تجلّى في العناية بالمدفن ، وفي كثرة الكهنة وفي وجود كاهن أكبر يدير مدرسة عالية يترن فيها الطلاب على القراءة والكتابة وعلى الترجمة خاصة . كما تحدث عن مكتبات مدينة أوغاريت الكثيرة وما حوت من تراث وما قدمت لنا من معلومات لم تعد منها نحن فقط بل أفادت منها الانسانية كذلك . انها مكتبات ان دلت على شيء ، فعلى ان سكان أوغاريت قد كانوا الى جانب ما تمتعوا به من ذوق فني علماء ورواد حضارة ضمت الجوانب المادية والفكرية منها في آن واحد .

● الأستاذ آلان ميلارد من جامعة ليفربول بانكلترا . كان بحثه بعنوان « قادش وأغاريت » تحدث فيه عما لهاتين المدينتين من أهمية كبرى في عصر البرونز الحديث وعن الدور الهام الذي لعبتهما من الناحية الاقتصادية والسياسية .. كذلك تحدث عن العلاقة بين المدينتين في ميدان الكتابات ، ذلك أن قطعة صغيرة من جرة فخارية كبيرة عثر عليها في قادش تحمل اشارات مسمارية ابجدية ، والحروف العشرة

تشكل نهاية لنمط من أنماط الاهداء .. غير أن وجودها في قادش يشير الى انتشار الابجدية المسمارية ، وهي ليست بالطبع ابجدية أوغاريت المعروفة وانما هي نمط آخر أكثر اختصاراً .

● الدكتور شوقي شعت (سورية) قدم بحثاً حول « العلاقة بين مملكة يحاض (حلب) وأغاريت في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد » . تحدث فيه عن المصدر الرئيسي لهذه العلاقة وهو أحد الرقم المكتشف في مدينة ماري على الفرات (تل حريري) ، هذا الرقم عبارة عن رسالة موجهة من ملك يحاض (حلب) الى زمر يليم ملك ماري يتوسط فيها لرجل أوغاريت ، بناء على طلب الأخير بأن يشاهد القصر الملكي في ماري الذي كان زمر يليم قد رسمه أو أكمل بناؤه وكان ذلك القصر ذائع الصيت في عصره في المنطقة الواقعة ما بين نهري الفرات والبحر المتوسط .. هذه الرسالة تدلنا على ما يلي :

١ - ان مملكة ماري كانت موجودة باسمها في مطلع الألف الثانية .

٢ - ان العلاقة بين أوغاريت ويحاض كانت علاقة تبعية أو صداقة وأن لاعلاقة مباشرة بين ماري وأغاريت والا لكتب أي ملك أوغاريت الى ملك ماري مباشرة دون الحاجة الى وسيط ...

٣ - سيطرة يحاض في عصرها على جزء كبير من البلاد .

« خلاصة القول يمكن الافتراض أن أوغاريت كانت في عصر قوة يحاض (القرن الثامن عشر) الذي لم تبذلها دولة معاصرة لها حتى في بلاد ما بين النهرين تابعة لها ، ومن الممكن ان يظل هذا الافتراض قائماً حتى يتسنى للمنقبين الاثريين العثور على مدينة حلب



(١) العمارة السكنية :

أشار الى أن من بين النتائج التي اسفرت عنها الحفريات في الاقطار المغربية وفي بعض جزر غربي البحر المتوسط معطيات تتعلق بالسكن .. فعلى اختلاف هذه البيوت من حيث حجمها وعناصرها ومن حيث منزلة أصحابها الاجتماعية والاقتصادية نراها تتخذ في مخططها الاساسي التالي : يفتح البيت على الطريق تفصله عنه مصطبة تقيه شر بعض الملوثات كماء الخنادق وغيرها من أوساخ الشوارع ومن الباب يتوغل الداخل في سقفة أو معبر طويل منعطف حتى لا يستطيع المارة ذوي الفضول اختلاس النظر داخل البيت ومن المعبر يصل الى فناء تحيط به الغرف ولهذا الفناء وظائف عديدة منها تزويد الغرف نوراً وهواءً نظياً وفي الفناء تقوم ربة البيت بانجاز الكثير من أشغالها المنزلية ، ثم نجد في الفناء البر أو الصهريج لخزن مياه المطر وتجده فيه مدرجاً يدفع الى الطابق العلوي أو الى عليه ولعلمهم كانوا يستخدمونه للصعود الى السطوح لترسيها أو لعرض بعض المواد المنزلية من مونة وغيرها لأشعة الشمس ... » « تلك هي أهم العناصر في البيت اليونيتي^(١) كما وضعتها الحفريات وتوجد نفس هذه العناصر منذ أقدم العصور في بيوت وادي الرافدين الى مدة ساحل البحر المتوسط ومنها مدينة أوغاريت » .

(٢) مدينة الاموات :

ما يتصل بهذا الموضوع اشار الدكتور منظر الى « أنه كان في معتقد الكنعانيين عامة والاوغاريتين

القديمة التي كانت عاصمة لمملكة يحاض تحت المدينة الحديثة وعلى وثائقها المكتوبة » .

● الدكتور محمد منظر الاستاذ في قسم التاريخ بالجامعة التونسية ومدير قسم الدراسات الكنعانية في المعهد القومي للآثار (تونس) قدم بحثاً بعنوان « من أوغاريت الى قرطاج » تناول فيه بعض أوجه القرابة بين العناصر الحضارية التي اينعت في أوغاريت خلال الألف الثانية قبل الميلاد والعناصر الحضارية التي برزت في البلاد المغربية تحت تأثير الفينيقيين أحفاد الكنعانيين والاوغاريتيين عرقاً وحضارة .. اشار في بحثه الى عنصرين أولهما يتعلق بالعمارة السكنية والثاني يتصل بشؤون الآخرة ..



١ - الحضارة اليونيتية : اسم يطلق على الحضارة التي امتزجت فيها العناصر الفينيقية والكنعانية مع العناصر الحضارية الافريقية العربية .

بالخصوص عقيدة تتعلق بشؤون الآخرة مضمونها أن الاموات يتمتقون في مدينة خاصة بهم مدينة (الأموات) ولكن كيف كان الكنعانيون وسكان أوغاريت يتصورون تلك المدينة ؟ ليس في الرقم ما قد يفيد بما فيه الكفاية للإجابة على هذا السؤال . أليس من الطريف والمثير كذلك أن نجد في تونس وثيقة تصور مدينة الاموات تعود الى القرن الرابع ق م » .

● عما نويل لاروش ، الاستاذ في الجامعة الفرنسية (باريس) قدم بحثاً حول « أهمية العنصر الحوري في أوغاريت القديمة » تحدث فيه عن وجود بقايا بشرية غير سامية اكتشفت في أوغاريت وهي تنتمي الى الشعب الحوري وحاول تقييم هذا الوضع من خلال دراسة اسماء الاعلام « ما هي الشخصيات التي تحمل اسماء حورية صحيحة وما هو مركزها الاجتماعي ومهنتها » ؟ ومن دراسة الدين « من خلال معرفتنا مجمع الآلهة الحورية في رأس الشجرة » . والحضارة ، من خلال مظهر سلمي « يبدو أن الشعب الحوري لم يكن ذا حضارة مادية خاصة به » . ومظهر ايجابي « ينتمي الحوريون في رأس الشجرة مع حوري إيمار (مسكنه) الى مجموعة غربية من الوحدة المرقية التي تأثرت تأثراً عميقاً بالثقافة البابلية » .

● ماريو ليفراني (ايطاليا) قدم بحثاً حول « المدينة والريف في مملكة أوغاريت ، محاولة في التحليل الاقتصادي » تناول فيه بالبحث مسألة (الوزن الاقتصادي) للمدينة في الشرق القديم . في حالة أوغاريت الخاصة . وما هي التكاليف الاجتماعية للبنجرات المعمارية والفنية ولمعيشة فئات الاختصاصيين غير المنتجين للغذاء ؟ ثم تطرق لدراسة النمط الاقتصادي لمملكة أوغاريت الذي يقوم على ثلاثة عناصر :

١ - القرى ومنها يؤخذ فائض غذائي ضئيل (١٠ بالمائة من المحصول) .

٢ - مزارع القصر ومنها يؤخذ فائض غذائي مرتفع (٥٠ بالمائة من المحصول) .

٣ - القصر مع اختصاصيه غير المنتجين للغذاء .

● الدكتور هشام الصفدي (جامعة دمشق) قدم بحثاً لم يكن مدرجاً في قائمة أبحاث الندوة بعنوان « انطباعات منقبة في رأس الشجرة ومدينة البيضاء » . تحدث فيه عن انطباعاته كمنقبة عن الآثار وكشارك في البعثات الوطنية الاثرية في رأس الشجرة ومدينة البيضاء منذ عام ١٩٥٦ ، وطالب من خلال بحثه بزيادة الاهتمام بالدراسات الاثرية والاستفادة من الطلاب الجامعيين العرب السوريين وزيادة التعاون بين المديرية العامة للآثار والمتاحف والبعثات الاثرية الاجنبية وجامعات القطر العربي السوري .

● الاستاذ جبرائيل سعادة (عاشق أوغاريت المقيم) قدم بحثاً عن « مدن وقرى المملكة الاوغاريتية » وقد ألفت البحث بالنيابة عنه الدكتورة ليلى بدر بسبب حادث بسيط ألم بالاستاذ سعادة منعه من القيام بذلك ... وقد تضمنت الدراسة ثلاثة أقسام :

القسم الاول :

تناول فيه بالبحث النصوص المكتشفة في رأس الشجرة والتي تذكر أسماء مدن المملكة الاوغاريتية وقراها .

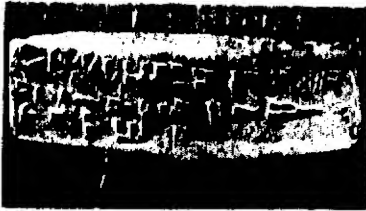
القسم الثاني :

تناول فيه معطيات الاسماء الحديثة للمدن والقرى الموجودة حالياً في الاراضي التي كانت تتألف منها في الماضي مملكة أوغاريت .

● « هذه الندوة منظمة بشكل جيد ومريحة وقد أتاحت الفرصة لاعطاء أحدث الدراسات عن الشرق القديم وذلك لقدوم عدد كبير من العلماء . ومن خلال ذلك تبادلنا الآراء والخبرات في مجال أعمال التنقيب والدراسات وهو يعود بالنفع على كل المشاركين في هذه الندوة .. ونحن شاكرين جداً للسلطات العربية السورية التي أتاحت لنا مثل هذه الفرصة » .
د. هارت موت كونه (المانيا الغربية)

● « ان الندوة العالمية للدراسات الاوغاريتية كانت على غاية من النجاح وآمل أن تعاد ثانية .. ولدى نشر جميع المحاضرات والابحاث التي أقيمت في هذه المناسبة سيتعرف العالم الى وجهات نظر العلماء القادمين من بلاد مختلفة .. حيث أن الابحاث لا تتركز على فئة واحدة بل على الفئات المختلفة التي من خلال لقاءها أعطت ثمرات جديدة للباحثين » .
د. ادمون سولبرجيه - المتحف البريطاني

● « لقد تعلمت كثيراً مما ألقى في هذه الندوة العالمية لأنها حوت الكثير ... وعلمت لأول مرة عن ابن هاني وهو شيء هام » .
هنري كازيل (استاذ في معهد الدراسات العليا في باريس)



□ □

وقام بمقارنة اسماء المنتي مدينة وقرية الواردة في النصوص القديمة مع أسماء الـ (١٢٣٦) قرية ومدينة الموجودة حالياً في المنطقة نفسها ووجد بعض التشابه بين عدد منها وبين الاسماء القديمة .

القسم الثالث :

قدم فيه لمحة عن التلال الموجودة في المنطقة وعما يجب أن يتم فيها من أعمال تنقيية .

آراء في هذه التظاهرة الحضارية الهامة .

● « هذه الندوة فضلاء عن المساهمات العلمية التي قدمها المشاركون سواء في ميدان الكتابات المسامرية أو في ميدان العسارة فأنني أعتقد أن لها مغزى أو ينبغي أن يكون لها مغزى .. ذلك أن تجعل منا نحن العرب واعيين لمدى المساهمات التي قدمناها في سبك الحضارة المتوسطة والبشرية عامة » .

— الدكتور محمد منظر (تونس)

● « لقد دفعت هذه الندوة العالمية بالدراسات الاوغاريتية الى الامام وأعطتها زخماً جديداً خاصة وأن أبحاثاً جديدة قد قدمت ، وطرحت أيضاً أفكاراً جديدة حول الديانة والفنون » .

— آن ميلارد — جامعة ليفربول — انكلترا —

● « هذه الندوة كانت مناسبة جد موفقة لجميع علماء الدراسات الاوغاريتية » والكثير من الابحاث تطرقت الى مواضيع جديدة سواء في حقل اللغة أو في حقل الآثار .. وأن الكثير من الابحاث قد فتحت أمامي آفاق جديدة » .

— د. جون هيلي — بريطانيا —

الجلّيس واللائس للمعانى بن زكريا القاضى البحرى

سكينة الشهابى

التعريف بالمؤلف :

هو المعانى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد ،
ابو الفرج النهروانى القاضى ، علم من اعلام القرن الرابع
الهجرى ، قال عنه الخطيب البغدادي (١) : « كان من
اعلم الناس في وقته بالفقه والنحو واللغة وأصناف
الأدب » ، ونقل عن أبي محمد الباقي قوله : « إذا حضر
القاضى ابو الفرج فقد حضرت العلوم كلها . . ولو أوصى
رجل بثلث ماله أن يدفع الى أعلم الناس لوجب أن يدفع
الى المعانى بن زكريا (٢) » .

نصر المعانى حياته على علم والأدب ، فلم يرغب
في منصب ولم تستبد به محبة الجاه والسلطان ، بل ربما
كان يدفع المراتب عن نفسه عملا بحديث رسول الله ﷺ
وما أكثر ما حذر من السعي الى اماره وأنذر الساعي
بسوء العاقبة ووبال المصير (٣) ، وربما من أجل ذلك
أجبه معاصروه ، وصدّقوا في وصفه بما هو أهله ، قال
الخطيب البغدادي : « سألت البرقاني عن المعانى فقال :
كان أعلم الناس (٤) » . وهذه العبارة يقولها البرقاني
تدلنا على المكانة الكبيرة التي كان يحتلها المعانى نفسى
نفوس تلامذته ومعاصريه .

وتحدثنا اخباره أنه ولي القضاء بباب الطاق في
الجانب الشرقي من بغداد نيابة عن القاضى ابن صير ،
ولاندري متى كان ذلك ولاشك أن مدة توليه هذا
المنصب لم تطل ، وظل شغله الشاغل في حياته التفسير
والحديث والأدب وكل ما يمت الى اللغة والدين بصلة ،
فلم يصب حظا من الدنيا لانه ما كان يهتم بأن يصيب .
قال الذهبي (٥) : « وقيل : كان قليل الشيء متعففا » ،
واظن أن قارئ الجلّيس واللائس يحس بما كان يتمتع

حين يسألنا سائل عن امهات كتب
الأدب العربية نجيب على الفور
وبدون تردد : البيان والتبيين
للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والأمالى
لابي علي القالى هذا ما حفظناه في
دراستنا ، حفظنا إياه مدرسون
وحفظناه بدورنا لتلامذتنا . ولم أسمع ولومن قبيل الإشارة
العابرة من ذكر : « الجلّيس واللائس » للمعانى بن
زكريا القاضى ، لم أسمع أستاذنا من أساتذتي نوه باسم
هذا الكتاب وذكر مؤلفه بالاجلال والاكبار ، أو اقترح أن
تدرس نصوص منه في مدارسنا ، لأن أخباره الأدبية مثلا
تعرض بطريقة شبيقة وهي حافلة بهدردات انتن المؤلف
عرضها عقب الأخبار منسقة ومشروحة :

بقيت أجهل الكتاب الى أن عملت في تحقيق تاريخ
دمشق لأبن عساكر فوجدت في أخبار هذا التاريخ كتابا
في الأدب يتخذ الحافظ أصلا غير الكتب التي التفت ،
ومؤلفا يعطى من ذكر غير المؤلفين الذين هرعت . توالى
أمام بصري اسم المعانى بن زكريا القاضى وتوالت النقول
من كتاب أثار اهتمامي ، لأنني وجدت مؤثرا ضخما يدل
على قوة شخصية المؤلف وغزارة مادته في اللغة .
ووهضت في تفكري منذ ذلك الوقت أنه كتاب يضاهي
« كامل المبرد » و « أمالى القالى » ، والا لما اختاره
الحافظ ووضعه في حسابه قبل ذنك الكتابين . ظل ذلك
الى أن تم لي التعرف بالكتاب ومؤلفه ، بالكتاب عن طريق
تلك القطعة الموجودة منه في المكتبة الظاهرية ، وبالمؤلف
بواسطة الكتب الكثيرة التي ترجمت له ونوهت بمؤلفاته
الكثيرة ومن بينها « الجلّيس واللائس » .



الرابع فقد ولد سنة ٣٠٥ على أصح الروايات التي
تتلك منه وتوفي باجماع المراجع في النهروان سنة
٣٩٠ هـ .

واحب ان اعرف القارئ الكريم بالاصول التي
وصلت اليها من هذا الكتاب وان استعرض معه بعض
الاخبار فاطلعه على اسلوب المعافى وطريقته في عرض
الاخبار وتفسيرها علي* اضع بين يديه الدليل الكافي على
اهمية الكتاب وضرورة الاسراع في نشره .

اصول الكتاب :

يوجد في خزانة مخطوطات الظاهرية قطعتان من
الكتاب :

١ - مجلدة تضم خمسة وعشرين مجلسا من
المجالس المائة التي يتألف منها الكتاب جاءت بعنوان :
« الجزء الثالث من كتاب الجليس والانس من امالي
القاضي ابي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني رحمة
الله عليه » .

بدا هذه المجلدة بالمجلس الثامن والاربعين وتنتهي
بالمجلس الثاني والسبعين وتتألف من ١٩٩ ورقة ذات
وجهين ، وهي جيدة الخط خالية من السماعات

به صاحبه من ثروة علمية وخلقية هائلة تعبر عنها تلك
التعليقات الكثيرة المتناثرة عقب الاخبار .

كان المعافى احد اثنين في القرن الرابع ، فهو صنو
ابي حيان التوحيدي معاصره ، يذكرنا به في روعة
الاسلوب وإشراق البيان وفصاحة المنطق ، وقد نسرع
الى تفضيله على ابي حيان اذا كنا نميل الى الادب
واللغة والفقه ولانحب ان نضيق في مناهات التصوف
والفلسفة .

ويخيل إلي ان نوعا من التعاطف كان يربط بين
الرجلين ، ربما كان ذلك بسبب القاسم المشترك الذي
الف بينهما الا وهو الفقر ، حدثنا ياقوت قال (١) :
« قال ابو حيان التوحيدي : رايته - اي المعافى - في
جامع الرصافة وقد نام مستدبر الشمس في يوم شات
وبه من اثر الفقر والبؤس والضر امر عظيم ، مع غزارة
علمه ، واتساع أدبه ، وفضله المشهور ومعرفته باصناف
العلوم ولاسيما علم الاثر والاخبار وسير العرب وأيامها ،
فقلت له : مهلا ايها الشيخ وصبرا فلنك بعين من الله
ومراي منه ومسمع » ، هذه العبارات التي نقلها ياقوت
وامادها بايجاز الذهبى (٢) توحى لنا بشيء من الود كان

يربط الادبيين الكبيرين ، كما انها تلقي ظلالة شاحبة من
البؤس على حياة المعافى . وكان حظه من الدنيا لم يكن
احسن من حظ ابي حيان ، ولكنه لم يرشاكيا ، ولا برما
ساخطا ، كان ذا نفس كريمة وروح راضية ، اذا غضب
لا يغضب لنفسه ولكنه يغضب لواقع يريد اصلاحه
وأمر يراها معوجة فيسمى الى تقويمها (٣) ، ومن هنا
يختلف طريقته عن طريق ابي حيان ذاك الذي أحس
بمرارة الواقع ، ونظر الى مفاسد عصره فلم يأخذها
ككل ولكنه صب سباط غضبه على افراد استثاروا
غضبه ، وحركوا نيران تقمته .

هذا ادبنا المعافى بن زكريا الجربيري الذي ناصر
مذهب ابن جرير الطبري ونسج على منواله فنسب
اليه ، وقد ذكرت المصادر انه ألف كثيرا من الكتب ،
وذكر له كل من ابن النديم والذهبي تفسيراً في ستة
مجلدات (٤) ، ولم يصل اليها من كتبه سوى الجليس
والانس .

امتدت حياة المعافى على القسم الاكبر من القرن



والتعليقات معجزة ومشكولة ولكنها كثيرة التصحيح
والتحريف.

النسخة : فهو : شيخ ابن عساكر الذي تلقى عنه كتاب « الجليس والآنيس » إذنا ومناولة وقرأ عليه أسناده وقال له : أروه عني . فالطريق إذا هو طريق نسخة ابن عساكر التي استقى منها في تاريخه الكبير ولكنها ليست نسخة ابن عساكر فقد رواها عن أبي العزرجل آخر .

ولابدأ المجالس في هذه المجلدة بداية واحدة ، فقد نجد في بعض المجالس الرواية المباشرة عن المعاني من غير ذكر اسم الراوي (١١) ، وقد يبدأ المجلس بـ « أخبرنا أبو علي محمد بن الحسين بن محمد الجازري قال : أخبرنا القاضي أبو الفرج (١٢) . . » . وربما بدأت طرق بعض المجالس بشيخ المعاني مباشرة (١٣) .

والذي يبدو لي أن هذه القطعة من الكتاب نقلت من أصل موثق روى عن أبي العز بن كادش ، وليس من المعتقد أن تكون قطعة من الكتاب ذاته الذي اذن بروايته أبو العز لمعاصر ابن عساكر أبي سعيد محمد بن عبد الرحمن السمودي .

ب - في الظاهرية أيضا مجلس مفرد من مجالس
الجلس والانیس هو المجلس الخمسون جاء برقم
٥٥٤ . وهو مستل من نسخة جيدة قديمة كتبت
سنة ٥٤٢ .

ح - وهناك ثلاثة أصول لكتاب الجليس والآنيس
حدثنا الأستاذ أكرم العمري حديثا وافيا عنها (١) ،
وهي : صورة بالفوتستات موجودة بالمكتبة المركزية
التابعة لجامعة بغداد ، وأصل مخطوط محفوظ في
خزانة أحمد الثالث بتركيا وآخر في مكتبة الحرم المكي
الشريف .

وماذا عن طبع الكتاب :

أصول هذا الكتاب متوفرة بشكل جيد فلماذا لم يطبع الى الآن ؟ سؤال طرحته على نفسي عشرات المرات وأنا أسمع الأنباء المتضاربة عن تحقيقه : كان الأستاذ أحمد ستر يعمل في تحقيقه منذ فترة طويلة ، وحقق حوالي ثلثه في العراق (١٥) ، وهناك أنباء تقول انه يحقق في الهند . . .

ولكن لماذا لم يطبع الى الآن ، الا يساوي هذا الكتاب في القيمة كامل المبرد وأمالى القالي وحيون أخبار ابن قتيبة وبيان الجاحظ . وفي اعتقادي أنه يفوق هذه الكتب في غزارة المادة التي يضمها بين دفتيه وفي طرافة

رقم هذه المخطوطة في خزانة الظاهرية ٣٢٠١/عام/
وهي واضحة البداية والنهاية فيها كثير من الخروم
ولا يشعر بهذه الخروم توالي ترقيم المخطوطة . أما
طريقها فقد جاء في بداية المجلس السادس والستين
كما يلي : « أخبرنا الشيخ الإمام تاج الدين بهاء الاسلام
أبو سعيد - ويكنى أبا عبد الله (١٠) - محمد بن عبد
الرحمن بن محمد بن أبي الحسن مسعود المسعودي
قال : أنبا الشيخ الإمام أبو المر أحمد بن عبيد الله
ابن كادش العكبري فيما أجازه قال : أنبا أبو علي
الحسين بن محمد الحازري قال : ... » .

وأما أبو العز بن كادش الذي أجاز المسعودي في

[illegible]

حيث ربط بين حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الفناء وبين خبر طويل عن المغني اسماعيل بن جامع نفيد منه ان الرشيد كان ذواقة للفناء يشجع المغنين ويبعد عنهم الفاقة والعوز ويكفيهم السعي في طلب الرزق ، وكانى بالمعافى اراد حين قدم هذا الخبر - ان يقارن بين حال الادباء والعلماء وما كانوا يلقون من رعاية وتكريم في عصر الرشيد وبين البؤس والفاقة التي كانوا يعانون منها في القرن الرابع يقول : « فرأيت ان ارسمه هاهنا اذ هو مما يستحسنه ويصفي الى استماعه ذوو الفضل من الادباء ، وينشط للوقوف عليه اولو الحجى من الرؤساء » .

والحقيقة اننا نخرج من الخبر وملء اسماعيل وابصارنا صور من حضارتنا العربية ومجالس انسها : وربما اغمض احدا عينييه على يقلت من عنصر الزمن

عرضه للمادة اللغوية ، وفي سعة الفترة التي يروي ميون اخبارها . ثم ان اسم المعافى في عالم الادب والنحو والفقه ليس اقل إشراقا من أسماء أولئك الاعلام الذين ألفوا قبله (توفي الجاحظ سنة ٢٥٥ ، وابن قتيبة سنة ٢٧٦ ، والمبرد سنة ٢٨٥ ، والقالي سنة ٣٥٦) .

انني لا اجد سببا في حبس هذا الكتاب من ابدى القراء الا المصادفة المحضة فهل نسمح للمصادفة ان تحرمنا من علم كثير وثروة لغوية نادرة قد لايسهل علينا هضمها وابتلاعها من غير كتاب المعافى لانها ستعرض بطريقة معجبة تجعل القاري غير الباحث زاهدا فيها منصرفا عنها .

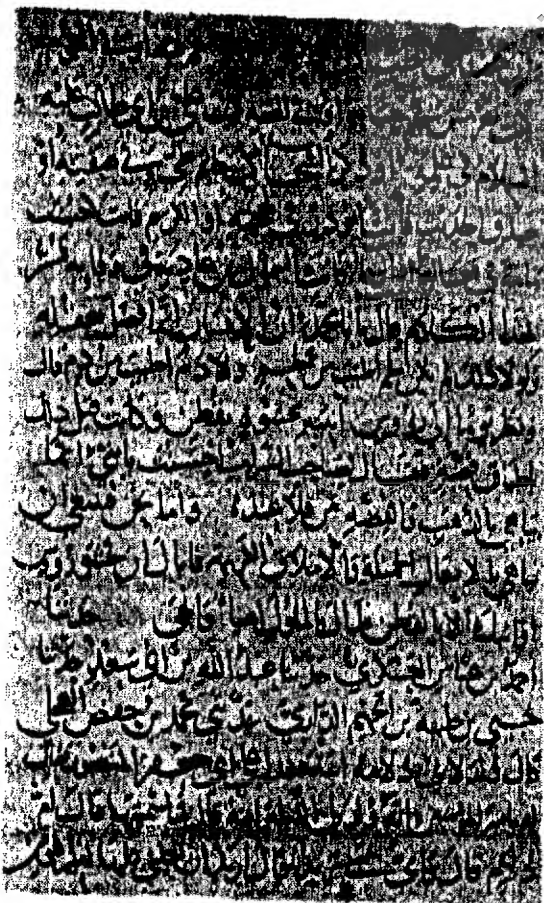
ولعل الاوان قد حان ان يخرج هذا الكتاب بحلة جديدة ونحن نعمل في بحث تراثنا والتثقيب من مخبأته في زوايا المكتبات كخطوة أولى في الوصول الى سابق عزمنا وسالف حضارتنا .

اهمية الكتاب ومنهجية المعافى في عرض مادته :

نوهت المصادر القديمة بمؤلفات ابي الفرج الجبري ومن بينها كتابه هذا ، فقد وصفه ابن النديم بانه من خير كتبه وقال : « يذكر فيه فضائل جمعة واخبارا مستحسنة وغير ذلك من الفوائد » (١٦) .

والحقيقة ان للكتاب اهمية كبيرة فهو حافل بالأخبار الادبية الطريفة والاشعار المستلحة والنوادر التاريخية والشروح اللغوية ، ولانغالي حين نقول انه يعطينا صورة حية صادقة لجوانب من الحياة العربية قلما جادت بها مصادرنا الاخرى التاريخية والادبية بالإضافة الى الشروح اللغوية المستفيضة والتعليقات الادبية النفيسة التي تؤكد لنا ان المعافى لم يكن رجلا لغة ونحو وانما كان اديبا ذواقة يميز بين النصوص ويفاضل ويقارن ليضع يدنا على مواطن الجمال . ولعلنا نلمح بعض هذا في عرضنا نماذج من الكتاب .

لايجد قارئ الجليس والانيس موضوعا سار عليه مؤلفه ، ولكنه قسمه تقسيما هندسيا يذكرنا بكتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي . معاصر المعافى ، فالكتاب مائة مجلس وكل مجلس من هذه المجالس يبدؤه المعافى بحديث يروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر ماجاء فيه من الغريب ثم يسترسل فيما شاء الله له من اخبار لامتقده في ذلك وحدة الموضوع الا ما جاء غفو الخاطر كما جاء في الباب الحادي والسبعين



على اساور . وحكى ثعلب أن الفراء قال : اسورة جماعة سوار للذي في اليد يضم وبكر .

وبقيني أن القاريء لن ينسى ابدا معنى كلمة الخوان ولن يخطئ في جمعها ، ولن ينسى الأمثلة التي ضربها المعاني لقياس هذا الجمع . ولورجعنا الى معاجنا ولنأخذ اكثرها تفصيلا وأمثلة الا وهو لسان العرب . حين نستعرض مادة « خون » في اللسان لانجد فيها هذا التفصيل الدقيق « للخوان » وجموعه وما جاء عن العلماء فيه هذا بالإضافة الى أن قاريء الخبر يشمر كان التفسير جاء طلبا منه فلا يجده ثقيلا مملا جافا لانه كان نابعا من الخبر احتجنا اليه في معنى اللفظة نعرفناه وعرفنا موضع استعماله .

وليس تعقيب المعاني على الاخبار تعليقات ادبية وشروح لغوية فقط ، لقد عودنا أن يكون معلما ماهرا يعطي لكل مقام مقاله المناسب ويعقب على كل خبر بما يحتاج اليه طالب العلم منهم .

يبدأ المعاني في مجلسه الخمسين بحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم معناه أن رجلا دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : استعملني فقال : « إنا لاستعمل على عملنا من طلبه ، ولان حرص عليه » . ويعقب المعاني : « تأملوا رحمتنا الله وإياكم ماورد به هذا الخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم فسي اخبره أنه لا يستعمل على الناس من طلب العمل عليهم ، ولا من حرص على ولاية أمورهم ، لأن من سأل هذا وحرص عليه لم يؤمن زيفه عن العدل في من يلي عليه : ومحاباته لمن يوليه ، وشفاء فيظه ممن يعاديه والاستطالة بما بسط فيه على من بسط عليه فيجور في حكمه ويستعين في سلطانه على ظلمه » .

أرابنا اي أسلوب بسيط وأضح بعيد عن التكلف نسر به قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : وبمعنى آخر أرابنا هذا الثوب من الالفاظ والتراكيب الذي البسه المعاني لمعانيه ، كانت المعاني شافية وإفيدة ، وكانت الالفاظ رداء ليس بالواسع الفضفاض ولا بالضيق الحرج ، لم تثقله الصنعة ، ولم يخل من التائق والدوق ، وكان هذا الأسلوب أخرجه بد صناع حملت فيه بآلة سحرية فبدت فيه السهولة الممتعة التي تستسلم لكل قاريء وتمجز كل كاتب ، وهي البلاغة التي وصفها ابن المقفع بقوله : « إذا رآها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » .

فيميش ، ولو فترة قصيرة في ذلك العز المسيطر والحضارة الوارفة ، أو يسمع على الأقل صوت ابن جامع ، هذا الذي احيا الرشيد ووزيره جعفر ليلهما في الاستماع اليه .

والمعاني لا ينسى تفسير الالفاظ الغريبة كلما وجد ضرورة لذلك ، ويستعرض في تفسيرها أمثلة من الشعر والحديث والقرآن الكريم ، وهو في ذلك تلميذ ابن قتيبة ، ربما كان ذلك عن قصد منه أو عن غير قصد ، وفي اعتقادي أن طريقته هي الطريقة المثلى لاستاذ العربية في عصرنا الحاضر إن أحسن استخدامها ، ويمكن من السير على نهجها ، فاحدث المناهج التربوية تنادي بطريقة المعاني من غير أن تدري ، إنه استاذ العربية الأصيل وأبو جودة تلك الدروس النموذجية التي ينادي بها اساتذة التربية . وحذا لو اتبع المقال لأعرض على القاريء بعض اخبار المعاني كاملة ليحس باللذة التي أحس بها ، ولكن المقال لا يتسع لاستعراض النماذج الكاملة لذلك اكتفي بعرض المقتطفات وأحيله الى المصدر هل اصواتا كثيرة تنضم الى صوتي مطالبة بطبع الكتاب .

يروى لنا المصنف في المجلس الثاني والسبعين خبر رجس اشتمى الحلوى فخرج الى الطريق فاذا : « . . . اخاوين حلوى فنودي : يا اسمايل هذا الذي اشتهيت وان تركته خير لك . . » وبعد أن ينتهي المعاني من سرد الخبر يقول : « قوله : اخاوين حلوى ، يقال لما يجعل عليه الطعام قبل جعله : خوان ، فاذا جعل عليه فهو مائدة ، فاذا رفع الطعام منه عاد الى تسميته : خوانا . وزعم بعضهم أن المائدة انما تسمى بهذا الاسم اذا خف ماعليها من الطعام لانها حينئذ تبيد . . » . وقال بعضهم : الخوان بالكسر كلام العرب ، وهو خوان بالضم باللسان الفارسي ، وروي لنا من الفراء الكسر والضم في الخوان من كلام العرب وجمعه اخاوين مثل سوار واساور . وجمع السوار ايضا على اسورة واساورة ، والهاء في اسورة عوض عن الباء في اساور ، وذكر نحو هذا سيبويه في زنديق وزنادقة . . . وقال الأخفش في قوله تعالى : فلولا التي عليه اسورة » لانه جمع اسوار واسورة . . . قال القاضي : وقد قال الله جل ذكره : « وحلو اساور من فضة » ، وقال تعالى : يحلون فيها من اساور من ذهب فأتى الجمع هاهنا



كان يرويه عهد بني هاشم وبني أمية ، ولكن الاخبار المتفرقة في المجلدة التي بين يدي وما رواه ابن مسافر من اخبار نقلنا عن اقسام الكتاب التي ليست بين يدي تدلنا بوضوح على قناعة الرجل التامة بما يقول وتبين ذلك الهوى الهاشمي الذي لم يستطع اخفائه .

يروى المعافي (١٩) أن عبد الملك بن مروان طلب من الشعبي أن ينشده أحكم ما قالت العرب فينشده مجموعة من الابيات يقول عبد الملك بعد سماعها : « حججتك يا شعبي » يقول طفيل الغنوي :

ولا اخالس حاري في جليلته

ولا ابن صمي هالتني إذا غول
حتى يقال اذا وليت في جدث

ابن ابن عوف أبو قرآن مجمون

قال القاضي أبو الفرج : بيتا طفيل اللذين انشدهما عبد الملك وفضلهما وزعم انه حج الشعبي ، من اشعار الشعراء غير مقصر عنهما ، ومن تأمل ما وصفنا وجده على ما ذكرنا من غير أن يحتاج الى تكلف تفسير ذلك واظناب الاحتجاج له . وسمع قول المعافي هذا لا يسعه إلا أن يقول : ان الحق معه فقول طفيل لا يمكن أن يقف لاقوال أولئك الشعراء الذين استشهد بهم الشعبي ، ولكنه حين يتأمل مباداة المعافي وقوله عن عبد الملك : « وزعم انه حج الشعبي » ، يلاحظ شيئا من التحامل على الخليفة الاموي . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هذا الخبر نقله ابن مسافر عن غير المعافي ، ولم نجد بين من روى الخبر أحدا عابذوق عبد الملك أو سفه حكمه ، وأين موقف المعافي هذا من موقفه من المأمون مثلا (٢٠) ، والاشادة بكل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ومن قوله في الرشيد معلقا على استحسانه لهذه الابيات لأبي عبد الله بن مصعب الزبيري (٢١) :

وإني وإن قصرت عن غير بغضة

مراعٍ لأسباب المودة حافظ

وانتظر المتبى وأغضي على التقذى

الابن طورا أمره وأغالب

وانتظر الاقبال بالود منك

وأصبر حتى أوجعني المفاظ

وجربت ما يسلي المحب على الهوى

واقصرت والتجريب للمرء واعظ

بهذا الاسلوب البليغ يقيس المعافي بجرأة ماورثنا إياه الرسول الاعظم والسلف الصالح بما يراه ويسمعه ، ويقول معقبا : « والى الله المشتكى مما نراه في زماننا هذا من غلبة السفلة والجهال والسخفاء الضلال للاحكام ، وإجلالهم مجالس الأئمة الاعلام ، مع عظيم جهالتهم ، وسقوط عدالتهم ، وفساد أمانتهم ، وتبحر الظاهر والباطن من أمرهم ، والله ولي الانتقام ممن يطوي في هذا الباب نصيحة الامام ويسمى الى ما يساق اليه من الاحكام في حد شريعة الاسلام ، ونستعين بالله على تمكيننا من إفصاح هذا الامر وانهاله الى من اليه الامر ، من ساسة الامة ، ومدبري الملة » .

والمعافي في أسلوبه اللفظي يذكرنا بمعاصره ابي حيان التوحيدي ، فهو واضح العبارة ، مشرق الديباجة ، حريص في جملة على نوع من التناغم الموسيقى ، والتألف الصوتي ، أما في المنهج الفكري فان طبيعة عالم اللغة والادب تختلف عن طبيعة الفيلسوف .

يقول المعافي (١٧) معلقا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أي الخلق أعجب ايمانا » : « قال القاضي فالحمد لله الذي هدانا لدينه والايمان بنبيه . وتصديقنا بكتابه ووحيه ووقفنا لموالاة من تقدمنا من السابقين الاولين وتابعيهم باحسان من السلف الصالحين وبصرنا فضل أئمتنا الخلفاء الراشدين المهديين الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » . من هذا المقطع يتضح لنا ان المعافي كان على سنة السلف الصالح وهداهم ينكر على من عاداهم ولا يتعصب لبعضهم على بعض .

ويلاحظ كل قارئ لاجبار الكتاب وتعقيبات المعافي عليها أن المؤلف كان يتبع منهجا موضوعيا ، ولكنه لا يستطيع أن يتخلى عن نزعة هاشمية تبدو واضحة في كثير من اخبار الكتاب ، ففي اكثر من موضع نسمع نداءه على بني هاشم وتعريضه السافر ببني أمية ، بل إنه يصل الى اعتبار فضائل بني هاشم وعيوب بني أمية من الامور البديهية يقول (١٨) « ولو شرعنا في استقصاء هذا الباب - يريد بذلك باب تعداد مزايا بني هاشم الحميدة فضائلهم - وأحصينا ما يوجد فيه من مناقب - الهاشميين ومعائب الامويين لاصبحنا الى انشاء كتاب فضلا من الاقتصار على باب » ومن المؤسف حقاً أن خرمنا في الكتاب حال بيننا وبين معرفة الاخبار التي



قال القاضي رحمه الله : ولعمري إن هذه الأبيات لمن مستحسن الشعر في معناها ، وأعجاب الرشيد بها مما يشئ على خلوص أدبه وصفاء قريحته » . لقد حدثنا المعاني بأن هذه الأبيات جيدة المعنى ولكنه لم يعلق على المبني لأن ذلك التعليق سيكون صادقا ، وسيضعف من ثنائه على الرشيد وحسن انتقائه ، وليت شعري لو كان المستحسن لهذه الأبيات عبد الملك فماذا سيقول وقتها المعاني ؟

والجدير بالذكر أن المعاني قد أحسن انتقاء الاخبار التاريخية والنوادر الادبية التي فضلت بني هاشم في الشرف والشجاعة ، ولعل من افضل هذه الاخبار ما نقله ابن مسافر في تاريخه عن المعاني (٢٢) في اخبار عبد الله بن جعفر مما لا نعث له على ذكر في الكتب الادبية المعروفة ولا أريد أن أقتبس بعض هذه القصة خشية أن أفقدها روعة العرض الذي قدمها به المعاني وأتى لي في هذه الاسطر أن آتي على تلك الجولات التاريخية واللغوية التي جالها وهو يفر اللفاظ ويستحضر في تفسيره لها الامثلة والشواهد .

ورغم هذه النزعة الهاشمية التي عرضنا نماذج منها في هذا المقال تظل النزعة العلمية الموضوعية غالبية على المجلس والانيس فتطالعنا فيه من حين إلى آخر اخبار نجد انفسنا بأشد الحاجة اليها ونحن بخلو وجه ماضينا المشرق . ولعل خير ما ختم به مقالنا هذا الخبر الذي رواه ابن عساكر في التاريخ (٢٣) عن المجلس والانيس : « وفد عبد الله بن جعفر على معاوية بن أبي سفيان فأنزله في داره ، فقالت له ابنة قرظة امراته : إن جارك هذا يسمع الغناء ، قال : فإذا كان ذلك فاعلميني فأعلمته ، فأطلع عليه ، وجارية له تغنيه وهي تقول :

إنك والله لردو ملة^١ يطرفك الأدنى عن الأبد
وهو يقول : يا صدقاه . قال ثم قال : استقني ، قالت : ما استقك ؟ قال : ماء وصلأ . قال : فانصرف معاوية وهو يقول : ما أرى بأسا . فلما كان بعد ذلك قالت له : إن جارك هذا لا يدعنا ننام الليل من قراءة القرآن ، قال : هكذا قومي رهبان بالليل ملوك بالنهار » . لقد صدق الخبر في تصوير معاوية فإذا هو الخليفة الكبير ينصف أبناء عمومته ويسهر على رعايتهم وكرامهم ، وهناك أخبار كثيرة تصور جرأتهم عليه وحلمه معهم مما يمكن أن يكون ملحمة رائعة تحكي سيرة هذا الخليفة الكبير

وحسن سياسته للأمور .

وبعد اليس من حق هذا الكتاب أن يطبع لقد أحسننا بأهميته من النواحي اللغوية والادبية والتاريخية ورائنا أن طريقتنا في عرض المادة اللغوية كانت جيدة لأنها تسهل على القارئ فهم هذه المادة وتوسع له طعمها وهذا ما لم نألفه في كتب اللغة المعروفة ولم تحسن استعماله كتب الادب كما أحسن المعاني . وإذا أضفنا إلى هذا مكانة المعاني في القرن الرابع الهجري والمنزلة التي وضع فيها معاصروه وفي مقدمتهم أبو حيان التوحيدي ، وتلاذذه وفي مقدمتهم أبو بكر البرقاني شيخ الخطيب البغدادي أيقنا بالضرورة الملحة التي تستحثنا لإخراج هذا الكتاب .

(١) انظر تاريخ بغداد ١٣/٢٢٠

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر المجلس الخمسين ورقة ١٤ ب

(٤) انظر تاريخ بغداد ١٣/٢٣٠

(٥) انظر تذكرة الحفاظ ٣/٢٠٤ .

(٦) انظر معجم الابهاء ١٩/١٥١

(٧) انظر سير الاعلام النبلاء ١٠/٥٦٨ .

(٨) انظر المجلس والانيس المجلس ٥ ورقة ١٤ ب

(٩) انظر التهذيب ٢٣٦ وتذكرة الحفاظ ٣/١٥١ .

(١٠) هو الفقيه الملقب بالمسند تاج الدين أبو عبد الله وأبو

سميد محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودي المروزي

الصوفي ولد سنة ٥٢٢ هـ ، وتوفي سنة ٥٨٤ هـ ، أجاز له أبو المعز

ابن عداش . انظر سير اعلام النبلاء ١٣/٤٠ .

(١١) انظر المجلس الثامن والأربعين .

(١٢) انظر المجلس الستين .

(١٣) انظر المجلس الهادي والخمسين .

(١٤) انظر موارد الطيب البغدادي ٢٤١ .

(١٥) هقل السيد محمد مصطفى أرسلان حوالي ثلث الكتاب في

رسالته للماجستير . انظر موارد الطيب البغدادي ٢٤١ .

(١٦) انظر الفهرست ٢٣٦ .

(١٧) انظر المجلس الهادي والخمسين .

(١٨) انظر الورقة ١٩٩ المجلس ٢٢ .

(١٩) انظر المجلس والانيس ورقة ٤٢ ، والمطبوع من تاريخ دمشق

عاصم - عايد ص ٢٠٢ .

(٢٠) انظر على سبيل المقال ورقة ١٠٠ من المجلس والانيس .

(٢١) انظر المجلس والانيس ورقة ١٩٤ م

(٢٢) انظر المطبوع من تاريخ دمشق ص ٣٦ (عبد الله بن جابر -

عبد الله بن زيد) ، والمجلس والانيس من ١٤٣ .

(٢٣) انظر تاريخ دمشق ٣٢ (عبد الله بن جابر - عبد الله ابن زيد) .



السيرة النبوية في التراث الأندلسي

د. محمد رشيد — وان الداية

كلية الآداب - جامعة دمشق

- ١ -



كانت الأندلس ، على بعدها
النائي عن المشرق ، موصولة الاسباب
به ، وثيقة الصلة . وكانت الحياة
الثقافية بخاصة ، والحضارية بعامة ، وجهاً في جملة
وجوه الثقافة العربية الاسلامية : تتشابه منجزاته
وصوره حيناً ، وتختلف وتستقل حيناً آخر . ولكنها ،
على كل حال ، كانت دائمة الاشتباك بالثقافة المشرقية .

وكان (انقطاع) الأندلس السياسي عن المشرق
منذ أوائل الاستقرار - أي منذ عهد عبد الرحمن بن
معاوية (الداخل) معيد دولة بني مروان ... كان
إيذاناً بقضايا كثيرة ، ومرشحاً لنتائج خطيرة ترتبت
على ذلك الانقطاع . ولكن هذا الموقف السياسي
المحض لم يؤثر في طبيعة العلاقات الثقافية بين المشرق
والأندلس ، واتصلت الحضارة (في المشرق) ومنجزات
الفكر فيه ببلاد المغرب والأندلس من ثلاث جهات :

الجهة الأولى : حركة الكتاب على الوجه الذي
كان يخرق فيه أقطار الدولة الكبرى ويستقر عند
طلابه وراغبيه . ولا تنسى أن سيطرة العرب بعد

فتح المغرب والأندلس امتدت الى طرق التجارة البرية
والبحرية ، ولا تنسى أيضاً صيرورة بغداد العاصمة
الثقافية الاولى بالاضافة الى عدد من المدن والمراكز
الثقافية الأخرى . ومن جهة ثانية كان خروج الأندلسيين
الى المشرق متلاحقاً لاداء فريضة الحج ، ولقاء العلماء ،
وأفذاذ الرجال ، على اختلاف معارفهم وما اشتبهوا به ،
ولتلقى العلم وروايته . وكان انتشار المذهب المالكي
وغلبته في الأندلس - والمغرب - حافزاً لمتابعة تراثه
ولقاء رجاله ... ومن جهة ثالثة فإن الأندلس منذ
استقرار الامور فيها في عصر الامارة المروانية كانت
تستقبل الوافدين اليها رغبة منهم ، والشخصيات التي
كان يطلب اليها من قبل السلطة الأندلسية الحضور الى
قرطبة وغيرها . وكان القصد الملبي هو الغالب المعروف
في مثل هذه الدعوات . ويلحق بذلك - من المقاصد
والدوافع - الرغبة في بناء الأندلس فكرياً وحضارياً ،
ومنافسة بغداد وغيرها من عواصم الفكر التي نبغت
مهما أو بعدها ...

وقد أثبت عدد كبير من العلماء والأدباء الأندلسيين
في برامج وفهارس خاصة مروياتهم ومسموعاتهم من
الكتب والنصوص ، وذكروا شيوخهم الذين

أخذوا عنهم القراءات والتفسير والأصول ... الخ .
وسلسلوا طرق أخذهم ، ولو وصلت إلينا كتب برامج
العلماء الأندلسية جسيماً إذن لاجتمعت لدينا معلومات
كاملة تقريباً عن حركة الكتاب ، وعن التطور الثقافي ،
وعن سيادة كتب — دون سواها — في زمان ومكان
معينين في البلاد الأندلسية . ومع ضياع كثير من تلك
البرامج والفهارس نجد المتبقي منها كافياً للدلالة على
ما نذهب إليه من اتصال الثقافة الشرقية بالأندلس ،
ومن اقتداء الأندلسيين زماناً بالكتاب الشرقي ، في
الوقت نفسه الذي كانت الأندلس تخرج كبار العلماء
والفقهاء والأدباء .

ومرّ زمانٌ قبل أن نرى مؤلفات الأندلسيين
أنفسهم في بيان الكتب المقررة ، أو التي تشارك نظائرها
من الكتب الشرقية وتسايرها .

... ..

ويصدق هذا الحكم العام ، الغالب ، على قضية
تأليف الأندلسيين في موضوع السيرة النبوية . وعلى
رغم استمرار رواية كتب السير والمغازي والأصحاب
وما وصل إلى الأندلس منذ وقت مبكر ، نجد
للأندلسيين باعاً في هذا المجال ، يصح أن نعرض له ،
وندرسه ، ونبيّن شيئاً من خصائصه ومزياه ، وأبرز
أعلامه .

... ..

— ٢ —

إذن اهتمّ الأندلسيون — كالمشاركة — ومن مداخل
مختلفة بالكتب المؤلفة في السيرة النبوية ، والمغازي ،
وأعلام النبوة ، والشمال ، والمعجزات ... كما
اهتموا بالتأليف في صحابته (ص) . وكانت الأصول
الشرقية قد انتقلت إلى الأندلس ، ورواها جيل عن

جيل في متابعة ومواصلة . ونجد في فهرسة ابن خير
الاشبيلي أسماء عدد من هذه المؤلفات (١) مثل أعلام
النبوة لأبي داود السجستاني ، ودلائل النبوة لأبي
ذرّ الهروي ، وشمال النبي (ص) لأبي عيسى الترمذي ،
ومغازي ابن عقبة ، والمغازي والسير لابن إسحاق ،
وسيرة رسول الله ومغازيه للواقدي ، وسيرة رسول
الله لابن إسحاق ... إلى غير ذلك من الكتب
والمصنّفات .

وكان إلى جانب هذه المؤلفات وما جرى مجراها
كتب السنّة وكتب الطبقات ، وكتب الأصحاب ،
مما يقدم مادة غزيرة في بيان حياة رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، ودلائل النبوة ، وأحواله ، وشماله ،
ومعجزاته . وأسهمت كتب الأدب أيضاً في الحديث عن
بلاغته (ص) وما أوتي من جوامع الكلم .

واكتفى الأندلسيون زماناً بما وصل إليهم من
المصنّفات الشاملة والمؤلفات الخاصة فيما يخص
السيرة النبوية . حتى إذا كان القرن الخامس — على
الأرجح وبحسب ما وقع لي في المصادر والمراجع
المتوفرة — ظهر في الأندلس من يخرج على الاكتفاء
بالمؤلفات الشرقية في السيرة النبوية وما يتعلق بها .
ونعني بذلك ابن عبد البر ، وابن حزم ، العالمين
القرطبيين الشهيرين . ثم توالى المؤلفات بعد ذلك على
توالي الأجيال ، بالإضافة إلى العناية برواية الأصول
الشرقية ، فكان المؤلفات الأندلسية إضافة إلى الأصل ،
أو ايضاح له ، أو اتفاق منه أو غير ذلك من الوجوه
التي سأحدث عنها .

في الفصل الذي عقده ابن خير لما رواه « من كتب
السير والأنساب ونحو ذلك مما يتصل به » نجد
الكتب الشرقية المعروفة ، كما نجد بعض المؤلفات
الأندلسية متداولة متناقلة . فقد ذكر مثلاً كتاب



الأزدي . سعت عليه جميع كتاب الشفا للقاضي عياض . وكانت وفاة الرعيني سنة ٦٦٦ هـ .
وتحدث ابن أبي الربيع (أبو الحسين عبيد الله ابن محمد بن أبي الربيع القرشي المتوفى سنة ٦٨٨ هـ) عن مروياته ، فذكر في جملتها كتاب الشفا للقاضي عياض (١٠) .

وكان المؤلفون الأندلسيون يعتمدون في جملة مراجعهم ومصادرهم عدداً من الأصول الأندلسية المتقدمة عليهم ، أخذاً منها ، ووثوقاً بها ، وتقديراً لصنيع أصحابها ، وصحة رواياتهم ، ودقة تصنيفهم ، وحسن تبويبهم ، الى غير ذلك مما يدخل في باب العلم والتأليف وما يتعلق به .

فمن ذلك اعتماد ابن حزم على استاذة ابن عبد البر ، في مواضع لا يدركها العصر في هذه المعجالة (١١) . واعتماد أبي الربيع الكلاعي في كتابه الاكتفاء على كتاب شيخه أبي القاسم بن حبيش (١٢) .

ومنه اعتماد القاضي عياض في (الشفا) على جمهرة من شيوخه ، من أشهرهم أبو علي الصدي الأندلسي ، وعدد من المصادر الأندلسية .

أما ابن سيّد الناس اليعربي الأندلسي الأصل ، المصري ، فيذكر من أصوله الأندلسية التي اعتمد عليها كتاب الأنساب للرشاطي (ت ٥٤٢) المسمى : اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار . وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر القرطبي ، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ . وكتاب : الروض الأنف للسهملي . ونقل أيضاً عن طرر (حواش وتقييدات) للشلوبين اللغوي النحوي الأندلسي (ت ٦٤٥) . ولا شك في أن كتب (السيرة) الاولى التي رويت

مغازي رسول الله ﷺ تأليف موسى بن عقبة ، وكتاب السيرة لسليمان بن طرخان التيمي ، وكتاب المغازي للواقدي وكتاب المغازي والسير لابن إسحاق . وسيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام ، وكتاب المغازي لعبد الرزاق بن همام ، وكتاب السير لأبي إسحاق الغزاري ، وكتاب السير لسعيد بن يحيى الأموي .

وذكر فيما رواه عن شيوخه كتاب « الدرر في اختصار المغازي والسير » لأبي عمر ابن عبد البر القرطبي . وكتاب سيرة رسول الله ﷺ تأليف أبي عيسى يحيى بن عبد الله بن أبي عيسى اللثبي . أما الأول فمعروف مشهور وأما الثاني فترجم له في جذور المقتبس (٣٥٤) ، ونقل الترجمة بحروفها الضبي في بغية الملتبس (٢) . وكانت وفاة ابن خير الاشيلي سنة ٥٧٥ هـ .

وفي برنامج شيوخ الرعيني ، في ترجمة أبي زكريا يحيى بن عصفور ، أنه قرأ على شيخه أبي العباس اللورقي كتاب حجة الوداع لابن حزم (٣) . وفيه أيضاً في ترجمة أبي القاسم أحمد بن أبي الوليد الأموي - أنه قرأ على أبي القاسم السهملي (من سهل قرب مالقة بالأندلس) كتاب الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام (٤) . وسمع أبو الحسن سهل بن مالك الأزدي كتاب السهملي في شرح السيرة (٥) . ومثله أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج اللخمي (٦) . وفي برنامج الرعيني نفسه في ترجمة ابن أبي عرفة (أبي العباس اللخمي) أنه سمع كتاب الشفا للقاضي عياض اليحصبي الأندلسي السبتي على شيخه أبي عبد الله الجرامي (٧) وسمعه أبو زيد القمارشي (٨) . وتلقى الرعيني كتاب الاكتفاء للكلاعي منه مباشرة (٩) وقال الرعيني في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الله

وكتب للمؤلفات الأندلسية في السيرة وشروحها
ذبوع وانتشار ، وأغلب هذه الكتب طارت لها شهرة في
حياة مؤلفيها . فكتاب الدرر كان المعتمد الكبير الذي
رجع إليه ابن حزم في تأليف كتابه جوامع السيرة .
وكتاب ابن حزم (جوامع السيرة) كان في جملة ما
يقروءه ويدرسه . وقال ابن فرحون في كتاب الشفا
لمياض . . . » .

إنه : أبدع فيه كل الإبداع وسلم له كفاءته فيه
ولم ينازعه أحد في الاقتراد به ولا أنكروا مزية
السبق إليه بل تشوّفوا للوقوف عليه وأنصفوا في
الاستزادة منه وحمله الناس عنه وطارت نسخه شرقاً
وغرباً . . . وتحدث الرعيني عن كتاب الكلاعي الاكتفاء
فوصفه بالكتاب الجليل ، ووصف المؤلف بأنه أجل من
كان بقي من الأعلام الأكابر .

وقال الشوكاني في البدر الطالع (١ : ٢٥٠) في
ترجمة ابن سيد الناس : « وله تصانيف منها السيرة
النبوية المشهورة التي انتفع بها الناس من أهل عصره
فمن بعدهم » . وكانت شهرة كتاب الروض الألف
للسهلي سبباً في تقريب أمره الموحدين له واستدعائه
إلى حضرتهم في مراكش (المطرب ٣٣٢) . . .

وكان مؤلفو كتب السيرة وما يلحق بها من
الأندلسيين ، في الجملة ، من الشخصيات ذوي المكانة
العلمية - الفكرية ، المنظور إليهم في فنون من العلم
والثقافة والمعرفة وكانوا يشتركون في :

- ضبط الرواية ، واتقانها ، والتقدم في علوم
- الحديث ، والسير والأصحاب ، والرجال ، والتواريخ .
- التقدم في علوم القرآن والتفسير والقراءات
- والأصول والفقه . . .
- التقدم في علوم اللغة وما يتعلق بها ، والبراعة

وتنقلت من بلد إلى بلد هي الأصل الأول الذي اعتمد
عليه كتاب السيرة اللاحقون . ويلخص هذا ما قاله ابن
سيد الناس في مقدمة سيرته (١ : ٧) « وعمدتنا فيما
نورده من ذلك - في سيرته - على محمد ابن اسحاق
اذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا » . وهذا
الاعتماد الكبير على ابن اسحاق لا يعني
الاكتفاء بها والوقوف عندها ، فقد كان في كتب السير
والمغازي والشمال والاصحاب وفي كتب السنن وغيرها
ما يفتح المجال واسعاً للتأليف والتصنيف والتهديب .
وكان لطبيعة الظروف الثقافية في بلد دون آخر ، وفي
زمان دون زمان ما يدعو إلى الشرح والايضاح وإضافة
الحواشي والطرر والتعليقات أو ما يدعو إلى كتابة
المختصرات التعليمية والمنظومات والأراجيز . . . الخ .
فالمادة التي يرجع إليها كتاب السيرة متقاربة ،
وتختلف طريقة تناول ، والعرض ، ورغبة المؤلف في
الاسهاب أو الاختصار ، والرد التاريخي أو الاعتماد
على التفصيل والتبويب ، وذكر الأسانيد وحذفها ،
والاستطراد بالشعر والنسب والخبر أو الاكتفاء
بالنزر اليسير من ذلك كله . . . والقصد إلى تناول
السيرة بجملة أو الوقوف عند أعلام نبوته ، أو
خصائصه وشماله أو غزواته أو غير ذلك من أحواله
وأفعاله . . .

ويبقى لسيرة ابن عبد البرّ (الدرر) مكانة
خاصة ، وصدى في كتب السيرة وما يلحق بها ، كما
تبقى له شخصيته النافذة المؤثرة . ولأنكاد نجد واحداً
في المؤلفين الأندلسيين استغنى عن كتاب (الدرر) في
تأليفه لكتاب في السيرة بالإضافة إلى استفادتهم من
كتبه الأخرى . وانتقل الكتاب إلى المغرب ، والمشرق
أيضاً مع الأندلسيين . الذين لم تنقطع رحلاتهم
المستمرة إلى المشرق واستمرار بعضهم فيه .



في الآداب والاشعار والبصر بطلقات الشعراء ونقد الشعر .

— وكانوا — في الجملة — رؤوس أزمانهم في معارفهم ، واليهـم كانت الرحلة ، وقصد التلقي ، والإفادة .

— واشتهرت عنهم مؤلفات مختلفة كان لأكثرها شهرة ، ومكانة في فنونها وأبوابها . وكانت المؤلفات في السيرة من مشهور مؤلفاتهم ، بل قد يكون كتاب السيرة ، أبرز أعمال بعضهم فالشفا لـمياض والروض الألف للسهلي وعيون الأثر لابن سيد الناس تعد أشهر ما ألفوا وأكثرها ذيوفاً .

وكانوا في الجملة من الشخصيات الفذة في العلم ، وفي جوانب من النشاط الثقافي ، والسياسي ، والعقائدي ، فقد كان ابن حزم إماماً للمذهب الظاهري ، وكان الكلاعي مثالا للعالم العامل المجاهد . (مات شهيداً في وقعة أنيسة عند بلنسية) . وسأبسط في تراجم المؤلفين ، فيما يتبع من هذا المقال ، ما يوضح هذا الجانب ويبيـنه .

ولو نظرت في الدوافع التي حفزت أولئك المؤلفين على الكتابة في السيرة لاجتمعت دوافع مشتركة فيما بينهم ، وربما ظهرت دوافع خاصة بمؤلف دون آخر . فمن الدوافع المشتركة : ما قصد اليه المؤلفون من التعبير عن محبة رسول الله ﷺ في صبره ، والتقرب الى الله سبحانه بإظهار محبته (*) . والدعوة الى الاقتداء به ﷺ في صبره ، وكفاحه ، وثباته ، وفي أحواله جميعاً . والغرض التعليمي الذي يقف وراء وازع عدم كتمان العلم وضرورة بثه في الناس ، والذي يهدف الى تقريب السيرة الى الناشئة أو الكبار ، وتعليمها ، وإيضاح ما فيها . وهناك بعد ذلك كله : مابسة البحث العلمي التي تدفع وتحفز ، وتحرك الأقلام ، ومن جهة ثانية نجد ابن عبد البر — مثلاً —

يقصد الى تأليف مختصر للسيرة النبوية « سيرة محررة لا تعتمد على كتب السيرة المشهورة وحدها بل تعتمد أيضاً على كتب الحديث ورواية الموثقين مع الموازنة بين الاخبار والأحاديث واستخلاص الآراء الصحيحة ومع الوفاء بالدقة في أسماء الأعلام ، ومع التوقف في موضع التوقف والنفوذ الى الرأي السليم ومع المعرفة الواسعة بالحديث ورجاله وتمييز صحيحه من زائفه » .

من مقدمة الدكتور ضيف .

ونجد ابن حزم في جوامع السيرة كان يرمي « الى وضع مختصر قريب المأخذ سهل المتناول في أيدي طلابه كما فعل في كثير من رسائله التاريخية مثل رسالة فقط العروس ورسائله في رجال القراءات والحديث والفتوح وتواريخ الخلفاء ، وأنه كان في هذا المختصر يضع الاصول التي لا يستغني عن تذكرها أو استظهارها كل من اشتغل بالسيرة النبوية من طلاب العلم » — من مقدمة المحققين — . ولابن حزم غرض آخر : فإن من يعرف قيمة النقل والاستكثار من السنن في مذهب أهل الظاهر عامة وعند ابن حزم خاصة — والسيرة جزء هام من هذا النقل — يجد أن تناول ابن حزم للسيرة بالنظر

✽ ومنذ القرن الخامس فيما وقع لي من الاخبار — وربما من قبل ذلك — تبدو لنا ظاهرة كتابة الرسائل وارسالها الى مقام النبي (ص) محبة فيه وتشوقا الى زيارته ، وتطلعا الى أداء فريضة الحج والعمرة والزيارة . فمن ذلك رسالة لابي محمد السيد البطليوسي (ت ٥٢١) ، ورسالة للقاضي عياض (ت ٥٢٤) (ولزاد هذه الظاهرة انتشارا مع الامصر التالية أيام الموحدين والنصرين ، كما ترافق اشتداد الحملة على بلاد الاندلس وأهلها من تحالف الدول الشمالية ، ومدهدا الخارجي ... واشتداد المقاومة الاندلسية — المغربية .

(وهذه ظاهرة تصح دراستها مستقصاة في الاندلس والشرق)



الجديد والتحديد والتقييد إنما هو جزء من مذهبه ...
والسيرة صورة عليا من الكمال الانساني في نفس ابن
حزم ، ولذلك فلا غرابة في أن يجعلها موضوعه المحبب ،
وأن يحاول وضعها للناس وضعا ميسرا قريبا بين
الحقائق ... » .

وقصد القاضي عياض في جملة ما قصد اليه :
التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما
يجب له من توقير وإكرام ، وما حكم من لم يوف
واجب عظيم ذلك القدر أو قصر في منصبه الجليل
قلامه ظفر ، وأن يجمع ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من
مقال ... » وذهب الى بيان خصائصه عليه السلام التي لم
تجتمع قبل في مخلوق « . مقدمة الشفا للقاضي
عياض ٣ - ٥٥ .

أما الكلاعي فقد عاش في مدة اشتدت فيها
الحرب بين اجتماع الاندلسيين والمغاربة من جهة ،
وبين جمع الدول المعادية في شمال الجزيرة الاندلسية
ومن اجتمع اليهم من دول أوربية من جهة أخرى . وتجد
في مقدمة سيرة الكلاعي (الاكتفا) صدى لأمرين
انسين .

أحدهما : الدعوة الى سلوك الطريق القويم ،
ونبذ الفساد ، والدعة المفرطة . ودعوة أصحاب
القلوب البطالة الى الابتعاد عن موارد الجهالة
والفضالة ... فان في السيرة النبوية ما يحفز على
الفضل ونبذ المفاسد بالقوة والاسوة .

والثاني : الدعوة الى الثبات في وجه العدو ،
والى جهاده في عمر داره وقد كانت الاندلس في أيام
الكلاعي في شدة مواجهة الحرب الصليبية الماثلة
للحرب الأخرى على الجهة الشرقية (بلاد الشام
والشرق) . قال في مقدمة الاكتفا : وإنه لا يخلو
الناظرون في هذا الكتاب من أن يسمعوا ما صنع الله

لرسوله عليه السلام في اعداد تنزيله فيستجزلوا ثواب الفرج
بنصر الله أو يسمعوا ما امتحنه الله به من المحن التي
لا يطيق احتمالها الا نفوس أنبياء الله بتأييد الله
فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب ويصطبروا
لعوارض الكروب تأدبا بأدابه ، وجرياً في الصبر على ما
يصيبهم ، والاحتساب على ما ينوبهم على طريقة صبره
واحتسابه . وتلك غاية لن تبلغ غفوها بجهدنا ولن نصل أدناها
بنهاية ركضنا وشدنا ، وإنما علينا بذل الجهد في قصد
الاهتداء ... » (من المقدمة ١ : ٥٥) . وقد كانت
حياة الكلاعي ومساته ، فيما بلغنا من تراجمه - من
المقتدين ، الصابرين ، المحسبين .

أما ابن سيد الناس فقد قصد الى التبرك بالدخول
في جملة المعتنين بالسيرة ، وهدف أيضاً الى إعادة كتابة
السيرة ، بحيث تحقق غرضين معاً : الاختصار
والاقتصار على الباب ، اللاصق بموضوع السيرة
دون استطراد . ثم : الاحاطة - على قدر الاجتهاد -
بأخبار النبي عليه السلام وأحواله وشماله ومجريات حياته ،
وأهله ، ومغازيه ، وما يتعلق بذلك كله .

وجاءت سيرة ابن سيد الناس (عيون الاثر)
جامعة ، وافية ، بالإضافة الى غزارة علمه ، وثقة نقله .
ولا بد من أن يلاحظ الدارس أن العناية بالسيرة
النبوية ، وشروحها وإعادة التأليف فيها ، وفي مغازيه
عليه السلام ومغازي الصحابة (رض) من بعده مرتبط على
أكثر من وجه بالموقف الفكري ، والاتباء العقيدي
لمواجهة بعض الدعوات ، والفرق ، والدويلات ، التي
ترددت أصدائها في مواطن متفرقة من بلاد المغرب ،
والشرق ، مما يعد مخالفة لما كانت عليه الجماعة ،
أو خروجاً على الفكر الإسلامي جملة .

وقد كان لجمهرة الفقهاء والعلماء والمحدثين
بالأندلس دور فعال أساسي في مدة دول الطوائف لمنع



والأسوة الحسنة ، لدفع الناس الى التضحية ، والبذل في سبيل الله . . بذل الأموال والأرواح .

ففي أخبارهم أنهم كانوا يحملون مصحفاً وصل اليهم من مصاحف عثمان (رض) أنى توجهوا على ناقة حمراء عليها من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة (المعجب ٣٢٦) .

وفي بعض أخبار أبي يعقوب يوسف أنه لما توجه الى غزو الروم أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على الموحدين ليُدروسوها (المعجب ٣٢٨) .

وفي أخبار أبي يوسف يعقوب المنصور (الحل الموشية ١٥٩) بعد انتصاره في موقعة الأرك (سنة ٥٩١) أمر كاتبه أبا الفضل بن أبي الطاهر أن يوجز في كتاب هذا الفتح ، وأن ينحو منحى كتب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وكان تأليف السهيلي (ت ٥٨١) كتابه الروض الألف في شرح السيرة سبباً رئيساً في تقريب الخليفة الموحدي له ، واستقدامه الى العاصمة مراکش والمبالغة في إكرامه (المطرب لابن دحية ٢٣٢) .

إن نظرة سريعة الى الكتب والرسائل المؤلفة في غرض السيرة تظهر أن التأليف فيها تناول الجوانب المختلفة المتعلقة بالسيرة النبوية ابتداء من الطرر والتعليقات والشروح على كتب السيرة المشرقية ، مروراً بالتأليف في بعض خصائص النبي ﷺ من الشرائع والمعجزات والبلاغة النبوية ، وانتهاء الى التأليف الشامل في سيرته العطرة . وقد وصل بنا عدد من هذه الكتب ، وغاب عدد آخر فيما ضاع منها أو فيما نهج حقيقة مكانه الى أن يظهر في يوم من الأيام . فتمألف في السيرة الشاملة كتاب الدرر لابن عبد البر ، وجوامع السيرة لابن حزم ، والسيرة لأبي حفص الملاي (١٤) ، وما ألف في معجزاته ﷺ الإحكام

حدوث تدهور فكري أو عقيدي قد يرافق الانهيار السياسي والتقاوى الجهادي . وقد أسلفت ، فيما سبق ، أن التأليف الاندلسي في السيرة بدأ - على ما رجحت - في هذا العصر (القرن الخامس الهجري) .

ثم جاء المرابطون الذين اعتسّدوا على جهود الفقهاء ، وأحيوا الجهاد ، ومكنوا أهل العلم والقضاء من مناصب الدولة .

فلما كان عهد الموحدين ازدادت العناية بالعودة الى الأصول : الكتاب والسنة .

وقد كان العصر الموحدي عصر ازدهار للكتابة في السيرة النبوية ، والمغازي ، وكتابة الشروح المطولة والمختصرة ، وازدهار فن المدائح النبوية وتسجيل أحداث السيرة في قصائد وأراجيز . . . الخ . وتبرز في هذا المجال ملاحظات وتعليقات عديدة ، أقف منها عند جانبين اثنين :

أحدهما : أن دولة الموحدين التي قامت على انقاض دولة المرابطين القوية ، هدفت الى العودة الى القرآن والسنة ، والاهتمام بالأصول دون الاستغراق في الفروع ، والى الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث . ولا شك في أن نشر السيرة ، والتأليف فيها ، يمد في جملة ما يمين على الوقوف عند النصوص والآثار وما يبعد الى الأصول . ونذكر هنا جهود ابن حزم في السيرة وأخذ دولة الموحدين بالمذهب الظاهري وازدهار هذا المذهب في أيامهم من جديد (بالنشيا ٢٣٧ - ٢٣٩)

والثاني : أن الموحدين كانوا يخوضون حرباً ضروساً في الاندلس ، للجهاد والدفاع . وكان خلفاء الموحدين يحرضون العلماء والمحدثين على توعية الناس ، وتقريب الأحاديث اليهم في قضايا الجهاد والاستشهاد . وكانت (السيرة النبوية) القدوة المثلى



— الدرر في مختصر المغازي والسير لأبي عمر بن عبد البر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .

— جوامع السيرة لأبي محمد بن حزم القرطبي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

— الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع سليمان بن موسى ابن سالم الكلاعي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ .

ويضاف الى هذه المؤلفات كتابان آخران ، ألفهما عالمان يتيان الى أصل أندلسي . وعاش أحدهما — وهو القاضي عياض (رحمه الله) — مدة في الأندلس ، واستقضى في بعض مدنها ، وأخذ العلم الغزير عن شيوخها . أما الآخر فقد ولد في القاهرة لأب أندلسي ، وهو ينتسب الى أسرة عريقة أندلسية اشتهر منها عدد جم من المحدثين والعلماء ، وهو ابن سيّد الناس اليمري .

وقد حفزني على اعتبارهما في المؤلفين الأندلسيين أنها يتيان الى أصل أندلسي قريب . وأنهما اعتمدا في مؤلفاتهما ، وبخاصة الكتب الخاصة بالسيرة ، في جملة ما اعتمدا عليه ، على أصول أندلسية ، فهما على أكثر من وجه ، من المدرسة الأندلسية ، إن صحّ هذا الإطلاق ، ومن جهة ثالثة فاني وجدت كتب التراجم القديمة ، وكتب تاريخ الادب الأندلسي المعاصرة تسلكهما في المؤلفين الأندلسيين كالذي نجد في تاريخ الفكر الأندلسي (٢٥) .

(ج) القاضي عياض أندلسي الاصل ، موطنه (سبتة) . وقد ارتبطت هذه المدينة بالأندلس سياسيا في مكد مختلفة ، وهي تمثل مركزا متقدما من مراكز الحضارة الأندلسية وصلة هامة مع المغرب من النواحي السياسية والثقافية والتجارية والبشرية ...

في معجزات النبي عليه السلام لأبي الحسن الجبائي (١٥) والدرر البهية في معجزات خير البرية (١٦) ، وكتاب في معجزات خير البرية ذكره صاحب النفع في ترجمة ابن عصفى الإشبيلي (١٧) والآيات البينات في ذكر ما في أعضاء (١٨) رسول الله ﷺ من المعجزات (١٩) .

وما ألف في خصائصه ﷺ : ملاذ المستعين في بعض خصائص سيّد المرسلين للمتشافقي (١٩) وخلاصة الصفا من خصائص المصطفى لأحمد بن ميمون الأشعري (٢٠) .

ولابن دحية كتاب التنوير في مولد السراج المنير (٢١) . وللإفريقي : الفرر من كلام سيد البشر (٢٢) والنجم من كلام سيد العرب والعجم ، ولابن دحية ايضا رسالة في شرح أسماء النبي ﷺ .

ومن الشروح كتاب الرّوض الأثف للسهي ، وكتاب أبي ذرّ الخثني . ومنها طرر للشلويني (٢٣) وكتاب لأبي الوليد المهري في تفسير مغازي الواقدي (٢٤) ولا يمكن الاستقصاء هنا ، وليس ذلك مقصودا .

وإنما أنه الى وفرة المؤلفات والمصنفات في السيرة وما يتعلق بها ، وأنّ التأليف في ذلك كان تيارا من تيارات العناية بالسنة النبوية ، والتاريخ الإسلامي بالاضافة الى أنّ في العناية بالسيرة قصدا واضحا الى التعرف الى السيرة العطرة ، والافتداء بالنبي ﷺ ، والى إظهار محبته ﷺ ، والتشوق اليه والى روضته ومسجده ، والى الارض المطهرة .

واذا راجعنا المطبوع من الآثار الأندلسية في السيرة وما يتعلق بها ، استلطنا أن نبيّر الاتجاهات التالية :

آ — المؤلفات التي قصد أصحابها الى كتابة السيرة النبوية من مبدئها الى منتهاها مما يخص تاريخ حياته ﷺ وأخباره وشماله وخصائصه ... ونجد من هذه الكتب :



والكتابان هما :

— الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض
المتوفى سنة ٥٤٤ هـ .

— وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل
والسير لابن سيد الناس اليعمري المتوفى سنة ٨٧٣ هـ .

ب . المؤلفات التي عثيت بجانب من جوانب حياة
النبي ﷺ وأسيرته ، وبين أيدينا من هذا النوع كتاب
حجة الوداع لابن حزم .

ج . كتب السيرة المختصرة ، التي يختصرها المؤلف
عن كتاب مطول سبق أن ألفه . وبين أيدينا من هذا
النوع : كتاب : نور العيون في سيرة الأمين المأمون ،
لابن سيد الناس اليعمري ، وهو أوراق ملخصة من
كتابه الذي سبقت الإشارة إليه : عيون الأثر في فنون
المغازي والشمائل والسير .

د . كتب الشروح على السيرة النبوية ، ولعل
هذا النوع هو أوّل ما عرفته الأندلس من تقييدات على
السيرة . وقرأت في طبقات اللغوين والنحويين
للزيدي أنّ أبا الوليد المهري صنف كتابا في تفسير
مغازي الواقدي (٣٦) .

وبين أيدينا من هذا النوع :

— الرؤوس الألف لأبي القاسم السهملي، المتوفى
سنة ٥٨١ هـ .

— « شرح السيرة النبوية » لأبي ذر مصعب بن
مسعود الخثني ، المتوفى سنة ٦٠٤ هـ .

وكلا الكتابين شرح على السيرة النبوية برواية
ابن هشام .

هـ . المنظومات والأراجيز التي اختصر فيها

أصحابها كتب السيرة النبوية . وهي كثيرة ، ذكر
منها أصحاب كتب التراجم ، والبرامج عددا ، وبعضها
قد وصل إلينا ، وإن كان المطبوع منها قليلا . ويلحق
بهذا النوع فن المولدات الذي يختلط فيه المديح
النبوي ببرد السيرة . (ويصح أن يستقل هذا النوع
بدراسة مستقلة) .

فن ذلك ما نقله ابن عبد الملك المراكشي في الذيل
والتكملة (٢٧) من أن أحمد بن عيسى بن حجاج المعروف
بأبي الوليد الأفيلاج وضع أرجوزة مخمسة في السير
سماها : « نظم الدرر وثر الزهر » قال ابن عبد الملك :
وهي من أحسن ما نظم في معناها ، أودعها نكت السير
لأبي بكر محمد بن إسحاق بن يسار . وألف أبو بكر
ابن أبي الأفيلاج المذكور : الدرر البهية في معجزات
خير البرية .

ولأحمد بن محمد بن ميمون الأشعري المالقي
قصيدة مطولة سماها بـ « خلاصة الصفا من خصائص
المصطفى » (٢٨) .

ومن المطبوع لابن سيد الناس اليعمري السابق
الذكر قصيدة مطبوعة ، عنوانها « بشرى اللبيب في
ذكرى الحبيب » (٢٩) .

يقتضي الترتيب الزمني ، وقد وصلت الى عرض
كتب السيرة وما يتعلق بها ، أن أقدم الإمام ابن حزم
(ت ٤٥٦) لانه توفي قبل ابن عبد البر القرطبي (ت
٤٩٣) . ولكنني سأبدأ بابن عبد البر لانه شيخ
ابن حزم أولا ، ولأن ابن حزم اعتمد على كتاب شيخه
(الدرر) اعتمادا كبيرا ، في جملة ما اعتمد عليه من
مصادر ومراجع .

حافظ المغرب ، وماتا في سنة واحدة . وهما إمامان في هذا الفن .

ابن عبد البر (٣٦٨ - ٤٦٣)

وَأَلَّفَ ابن عبد البر ما جمع تواليف نافعة سارت عنه (٢٧) كما قال الحميدي . فمن تواليفه : التمهيد ، (وقد سبقت الإشارة إليه) ، وكتاب في الصحابة سناه : الاستيعاب في أساء الأصحاب ، وكتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، وكتاب : بهجة المجالس وأُنس المجالس بما يجري في المذكرات من غرر الآيات ونوادر الحكايات (٢٨) . وغير ذلك من الكتب . ومنها كتاب الدرر .

هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النري . من أهل قرطبة ، ولد بها سنة ٣٦٨ . ونشأ ، وتلقى علومه ، وسمع قبل الأربع مئة بمدة من جماعة من علماء الأندلس ورواتها . وقد تنقل في البلاد الأندلسية ، فخرج الى الغرب وأقام مدة . واستقضاء المظفر بن الأفطس (من بني الأفطس أصحاب بطليوس أيام الطوائف) فتولى قضاء الأشبونة وشترين ، ثم تحول الى شرق الأندلس ، وكان ثمة مجاهد العامري ، من أمراء الطوائف ، وكان معروفا بحب العلم وتقريب العلماء ، فجال ابن عبد البر في دانية وبلنسية وشاطبة . وكانت وفاته بشاطبة عن سن متقدمة عام ٤٦٣ .

في ترجمة الحميدي - تلميذ ابن عبد البر وتلميذ ابن حزم وصاحبه - في جذوة المقتبس لاستاذة ابي عمر ابن عبد البر : أبو عمر فقيه حافظ مكثر ، عالم بالقراءات وبالاخلاق في الفقه ، وبعلوم الحديث والرجال ، قديم السماع ، كثير الشيوخ . وقد حرص الحميدي على إجازة شيخه ، فكتب اليه بذلك (٢٩) . وقد أثنى على ابن البر أبو الوليد الباجي فقال : لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث . وقال ابن بشكوال : هو إمام عصره وواحد دهره (٣٠) . وقال الحجاري : إمام الأندلس في علم الشريعة ورواية الحديث لا أستثني من أحد (٣١) . وقال ابن حزم في معرض التعريف بكتاب ابن عبد البر « التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد » : « لا أعلم في الكلام على فقه الحديث فكيف أحسن منه ؟ (٣٢) » . وقال ابن خلكان (٣٣) : تقدم في ترجمة الخطيب البغدادي أنه كان حافظ المشرق ، وابن عبد البر

سقى ابن عبد البر كتابه « الدرر في اختصار المغازي والسير » . فهو قصد كما يظهر في العنوان الى وضع مختصر يفي بالغرض . وقد أوضح هذا في مقدمة الكتاب فافتتحه بذكر منهجه ومراجعته ومصادره الرئيسية فقال : هذا كتاب اختصرت فيه ذكر مبعث النبي ﷺ ، وابتداء نبوته ، وأول أمره في رسالته ومغازيه وسيرته فيها ، لأنني ذكرت مولده وحاله في

(*) ترجمة ابن عبد البر في : جذوة المقتبس للحميدي : ٣٤٤ . والصلة لابن بشكوال ٢ : ٦٧٧ وبغية المتنبس للزبي : ٤٧٤ ، ومطلع الانفس لابن خاتقان : ٦١ . والمغرب لابن سعيد ٢ : ٤٠٧ . ووفيات الاعيان لابن خلكان ٦ : ٦٤ . والديباج المذهب لابن مرحون : ٣٥٧ . وشذرات الذهب للحنبلي ٣ : ٣٤٤ . وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣ : ٣٠٦ . والعبر في خبر من خبر ٣ : ٢٥٥ . وترتيب المدارك ٤ : ٨٠٨ .

وانظر دراسة آتخل بالنيا : ٣٩٦ . ومقدمة التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد (للمحققين) . ومقدمة الدرر للدكتور شوقي ضيف والاعلام للزركلي . ومقدمة بهجة المجالس (طبعة المجلس الاعلى بالقاهرة) تحقيق م . الخولي .



نشأته وحيونه من أخباره في صدر كتابي في الصحابة (٢٩) . وأفردت هذا الكتاب لسائر خبره في مبعثه وأوقاته عليه السلام .

وتحدث ، بعد ، عن مصادره وأصوله : واختصرت ذلك من كتاب موسى بن عقبة ، وكتاب ابن إسحاق ، رواية ابن هشام وغيره . وربما ذكرت فيه (الدرر) خبرا ليس منها ، والنسق كله على مارسه ابن إسحاق ، فذكرت مغازيه وسيره (جهاده) على التقريب والاختصار والاقتصار على العيون من ذلك دون الحشو والتخليط (٤٠) .

فكتاب الدرر إذن وضع ليكون تهذيبا واختصارا لما رواه من كتب السير والمغازي والشمال والأخبار ، من الأصول المعتمدة والروايات المختلفة . ولم يكتف بذلك بل أضاف الى التهذيب والاختصار أخبارا رواها ، وآراء نثرها في جوانب السيرة ، « وهي آراء علم من أعلام الفقه والحديث » (٤١) . وهو من جهة حذف بعض الأسانيد وبعض الحشو ، وكأنما رأى كتب السيرة تحتوي على حشو كثير فرأى أن يكتفي بالدرر والفوائد التي تجعل منها خيطا ممدودا متصلا (٤٢) .

وكما أسلفنا مما نقلناه من مقدمة المؤلف ، فإن كتاب الدرر يبدأ من البعثة النبوية . اما ما قبل ذلك من ولادة الرسول عليه السلام ونسبه ووفاته أبيه وأمه وجده وكفالة عمه أبي طالب ونشأته وأطواره قبل البعثة وزواجه بالسيدة خديجة (رض) فقد أجمله في صدر كتابه : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

وهو ، على متابته في الخط العام لسيرة ابن إسحاق ، كما أشار في المقدمة ، فإنه خرج على ذلك بما حذفه منه ، وبما أضافه من مصادره الأخرى مثل

كتاب ابن عقبة في المغازي وكتاب ابن أبي خيثمة ، وروايات شيوخه من الاحاديث .

وقد كان من مصادره الرئيسية سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام ، وبروايتين آخرين : رواية يونس ابن بكير (٤٣) مكرر ورواية ابراهيم بن سعد . واستعان بهذه الروايات على المقارنة والموازنة . ومن مصادره : مغازي الواقدي ، وطبقاته ، وكتاب أبي بكر بن أبي خيثمة . قال الدكتور ضيف : ويظهر أنه كان له كتاب في السنن بجانب كتابه التاريخ الكبير في تعديل الرواة وتجريحهم (٤٤) . قال : ولا شك في أن وراءها مصادر آخر لم يعن بإيرادها .

وخلاصة القول أن ابن عبد البر اقتصر على العيون من الأخبار ، وألفه بطريقة المحدث الحافظ ، مبتعدا عما لم يصح من الروايات ، مع مناقشة ما رواه من ضعيف الأخبار وذلك بميزان الجرح والتعديل ، وأداره بروح المؤرخ الأديب والناقد الخبير (٤٥) .

وقد كانت السيرة التي صنفها ابن عبد البر (الدرر) في أول مصادر ابن حزم في (جوامع السيرة) ، وفي أهم مصادر ابن سيد الناس في (عيون الأثر) مما يلحق الحديث به ، في موضعه . ولا شك في أنها كانت بين يدي الأندلسيين الذين ألفوا في السيرة أو في شروحاتها أو الكتابة في جوانب تتعلق بها ، كما كانت كتب ابن عبد البر الأخرى شائعة سائرة .

(*) طبع كتاب الدرر في القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٦٦ م من لجنة احياء التراث في المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية . واضطلع بتحقيقه الدكتور شوقي ضيف . وجاء الكتاب في جزء واحد في نحو ٣٥٠ صفحة كبيرة ، يذهب اقل من مئة صفحة منها للمقدمات والتهارس .

واستمر ابن حزم ، ذا شخصية قوية متمكنة ،
يدرس العلم لطلابه الذين يقصدون اليه حيث انتقل ،
أو حيث أزعجه الأمراء . ويؤلف الكتب لم يشنه أحراق
بعض كتبه أمر بأحراقها المعتضد بن عباد متقربا
الى بعض الفقهاء والعامة . .

وكما كان تحصيله من الآداب والعلوم شاملا
واسعا غزيراً ، كانت مؤلفاته انمكاسا لذلك الشمول
والاتساع ، وكانت ، أيضا ، كتباً ذات قيمة علمية عالية
من مؤلف مدقق غزير متدفق القلم حاسم الرأي ، قوي
الحجة . وجمع الإمام ابن حزم العلوم النقلية الى
العلوم العقلية ، وسع ساعا جمًا كما قال تلميذه
الحبيدي (٤٧) . وقد روى الحديث عن علماء كثيرين ،
وروى التاريخ للطبري وحدث به عن شيخه ابن
الجور الأموي . وكتب تراجمه تحفل بأسماء شيوخه ،
وهم كثرة من جهة ، وهم متمددو الاهتمام
والاختصاص من جهة ثانية .

قال الحبيدي إن ابن حزم ألف في فقه الحديث
كتابا كبيرا سماه : الايصال الى فقه الخصال الجامعة

نقل المقرئ في نفع الطيب عن صاعد الأندلسي
قوله في ابن حزم : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس
قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم
اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار (٤٥) . وقال
الدكتور احسان عباس بعد ترجمته لابن حزم : كان
نسيج وحده فيمن أنجبتهم الأندلس (٤٦) .

وأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم
الأندلسي ، فقيه الأندلس وعالمها ، وصاحب التصانيف
في الفقه والجدل والتواريخ والسير والأصول والآداب .
ومجدد مذهب داود الظاهري ومقتد أصوله ومبين
أحكامه . . الفقيه الأديب الناقد المؤرخ الوزير .

ينتمي ابن حزم الى أسرة فارسية الأصل ، في أرجح
الآراء ، ويحسب مانقل ابن حزم نفسه . وكانت أسرته
ذات سابقة في خدمة الدولة المروانية ، والعامرية .
وكان أحمد (والده) مشهورا بالعلم والآدب والشعر ،
وكان وزيرا معدودا في دولة المنصور بن أبي عامر .
وحصل ابن حزم على العلوم الدينية والدنيوية ،
وكانت دائرة إحاطته وتحصيله العلمي واسعة جدا ،
شملت علوم عصره ، (عدا الحساب والهندسة) (٤٦) ، مكرره .

وبعد أن شارك في الحياة السياسية ، وصلي بناراها
في مدة الفتنة بعد سقوط العامرين بقرطبة أقلع عن
ذلك كله ، والتفت الى التأليف ، والدفاع عن الرسالة
ومجادلة أهل الملل ، وتشعبت اهتماماته التي ألف فيها
فكتب في المنطق ، والفقه ، والأصول والآداب ،
والتاريخ ، وتراجم الرجال ، واتسع صدره ليكتب في
الحب (طوق الحمامة) . وكان ابن حزم لسان المذهب
الظاهري فالف فيه كتباً كثيرة ، وترمض لنقمة بعض
الفقهاء ، وبعض من جاراتهم من أمراء الطوائف .

(*) ترجمته في جذوة المتنبس للحبيدي ٢٩٠ ،
بغية المتنبس رقم ١٢٠٤ صفحة ٤٠٣ ، والصلة لابن
بشكوال ١ : ٣٩٥ طبقات الامم لمساعد الاندلسي ١١٧ ،
المغرب لابن سعيد ١ : ٣٥٤ والخيرة لابن بسام ١-١ :
١٤٠ ، والمعجب للمراكشي ٩٣ ، ومطبع الانفس لابن
خاتان ٥٥ ونفح الطيب ١ : ٣٦٤ ، وتذكرة الحفاظ
للذهبي ٣ : ٣٤١ وشذرات الذهب ٣ : ٢٩٩ . وتاريخ
الحكماء للنفطي ١٥٦ .

للاستاذ سعيد الانغاني غناية بابن حزم . راجع
مقدمة كتابه : ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة .
ومصادر ابن حزم وكتبه في بروكلمان : الاصل ١ : ٤٠٠
والمحقق ١ : ٦٩٢ . وانظر تاريخ الادب الاندلسي ١ : ٣٠٣ .
د . احسان عباس . وتاريخ النقد الادبي في الاندلس :
د . رضوان الداية .



لجعل شرائع الاسلام في الواجب والحلال والحرام . وله الإحكام في أصول الأحكام ، والفصل في الملل والأهواء والنحل ، والتقريب لحدّ المنطق . قال وكان له في الآداب والضرع نفس واسع وباع طويل ونبه على عناية ابن حزم بالحديث ، وسماعه الكثير عن شيوخ كثيرين .

ولمّا أريد في هذه المقدمة السريعة أن أيسّن عناية ابن حزم بالحديث والأصول وعنايته بمناقشة أهل الملل ، ومنافحته عن المذهب الظاهري الذي التزم به وكتب فيه . وأن عنايته بالسيرة النبوية لم يكن بعيدا عن منهجه الفكري العام ، ولم يكن مشاركة عارضة لمؤلف غزير الآثار .

ونبه محققا كتاب ابن حزم « جوامع السيرة » في مقدمة الكتاب الى صنيع ابن حزم ، وما هدف اليه من كتابة السيرة ، ومزايا الكتاب وخصائصه (١٨) . فالهدف العلمي والتعليمي أن يضع كتابا مختصرا ، قريب المأخذ سهل المتناول ، كما فعل في كثير من رسائله التاريخية لتقريب هذه الأغراض الى طلابه ، والدارسين . وتناول ابن حزم للسيرة تدخل في جملة اهتمامه بالاستكثار من النقل والسنن متابعة لما يقتضيه الاحتجاج لمذهب الظاهري ، فالنقل أساس من أسس المذهب الظاهري (١٩) . والسيرة النبوية - الى ذلك - صورة عليا من الكمال الإنساني في نفس ابن حزم ، فالكتابة فيها حث على الاقتداء به ﷺ .

والسيرة دليل من الأدلة على ثبوت نبوته ﷺ . وفي هذا يقول ابن حزم : إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة بأنه رسول الله ﷺ حقا . فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى (٢٠) . وميّز بالعناية فصلين هامين هما أعلام نبوته وخلقه وشماله لأنهما شاهدا حق على نبوة الرسول ﷺ ولأن خلقه

وشماله تمثل الجانب العملي في الكمال الخلقي . ورد في كتاب « جوامع السيرة » ذكر اثنين من مصادر ابن حزم هما : تاريخ أبي حسان الزيادي ، وتاريخ خليفة بن خياط ، وقال المحققان إن البناء العام لكتاب السيرة يدل على أنه ابن حزم يتكلم كثيرا على سيرة ابن اسحاق ، وأنه أفاد في كتابه هذا مما صنعه من قبله شيخه ومعاصره أبو عمر بن عبد البر مؤلف كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير بالإضافة الى كتب أخرى يمكن أن ترفد كتاب ابن حزم .

وتحدث الدكتور شوقي ضيف في مقدمة « الدرر » عن استفادة ابن حزم في « جوامع السيرة » من كتاب أستاذه في الدرر . ولكن نشر جوامع السيرة قبل كتاب الدرر لم يسمح لمحقق كتاب ابن حزم بالمقارنة بين الكتابين ، أو الإفادة منه في توثيق النص (مقدمة الدكتور ضيف للدرر صفحة ١٤ - ١٦) ويقدر الدكتور ضيف في شيء من المقارنة والتشثيل بالأدلة أن ابن حزم أكثر من الاستفادة من كتاب (الدرر) ، وأنه « لا يتابع ابن عبد البر في نسق كتابه وما تضمنه من الأحداث وأسماء الأعلام فحسب ، بل كثيرا ما يتابعه في سرد كلامه ناقلًا نص عباراته مع شيء من التصرف أحيانا ، وقد يترك النص الذي ينقله عن أستاذه دون أي تصرف . . . » (٢١) .

وهذا اللقاء بينه وبين أستاذه يدل على وحدة المنهج ، واعتداد ابن حزم بأستاذه ، ومتابعته إياه . ويكون نقل بعض النصوص بأعيانها اكتفاء بالفحوى والنص عن المغايرة أو الخلاف .

(*) نشر كتاب جوامع السيرة لابن حزم في دار المعارف بمصر بتحقيق الدكتورين الاستاذين احسان عباس وناصر الدين الاسد ومراجعة الاستاذ العلامة احمد محمد شاكر .





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

نسقا . وفيه سبعة وعشرون فصلا ، ٣ - فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها تعظيم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته . وفيه اثنا عشر فصلا ، ٤ - وفيما أظهره الله على يديه من الآيات والمعجزات وشرفه من الخصائص والكرامات ، وفيه ثلاثون فصلا .

والقسم الثاني : فيما يجب على الانام من حقوقه عليه الصلاة والسلام ويترتب القول فيه في أربعة أبواب : ١ - في فرض الايمان به ووجوب طاعته واتباع سنته (في خمسة فصول) ٢٠ - وفي لزوم محبته ومناصحته (في ستة فصول) ٣٠ - في تعظيم أمره وتوقيره وبره . ٤ - وفي حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفصيلته (في عشرة فصول) .

والقسم الثالث فيما يستحيل في حقه وما يجوز عليه وما يتنع ويصح من الامور البشرية أن يضاف اليه . قال القاضي عياض وهذا القسم هو سر الكتاب ولباب ثمره هذه الابواب . وجعله في بابين : في أحواله (من) الدينية والدنيوية .

والقسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه عليه السلام في بابين اثنين . وبعد أن عرض القاضي عياض أقسام كتابه قال : « تتم الاقسام والأبواب وتلوح في غرة الايمان لمعة منيرة وفي تاج التراجم درة خطيرة تزيح كل لبس وتوضح كل حدى .

(ج) وطبع كتاب (الشفا) طبعات عديدة في المشرق والمغرب ، وطبع مع بعض الشروح ايضا . (راجع معجم سركيس ، وتاريخ الادب العربي لبروكلمان) ومن شروحة المطبوعة شرح الخفاجي . وقد كثرت نسخة في المشرق والمغرب لانه كان يورق (ينسخ) في المساجد تبركا .

١٦٩ ، وغيرها) . وبرنامج ابن أبي الربيع (صفحة ٤٧) وكلاهما يروي كتاب الشفا من طرق عدة . ومنها برنامج الوادي أشي كما نقل الدكتور عبد العزيز الأهواني في مقدمة برنامج ابن أبي الربيع (صفحة ١٩) . وقد اعتنى العلماء والمحدثون والمشتغلون بالتواريخ بكتاب الشفا . ووضعوا عليه التعليقات والشروح والمختصرات . وقلم بعضهم الشفا شعرا . ولا يمكن استقصاء ذلك في مقالة كهذه . ويكفي أن يرجع الدارس الى ما ذكرته كتب التراجم والتواريخ كما في كتاب بروكلمان ، وكتاب حاجي خليفة كشف الظنون (صفحة ١٠٥٢ - ١٠٥٣) .

وكان الاهتمام مشتركا من المغاربة والمشاركة . ألف القاضي عياض كتاب الشفا تلبية لدعوة صديق أو عزيز ، واستجابة لداعي العلم وطلباً للثواب ، لكنني لما رجوت لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال أو ثواب بتعريف قدرة الجسيم وخلقه العظيم وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق . . . بادرت الى نكت سافرة عن وجه الغرض مؤدياً من ذلك الحق المفترض اختلستها على استعجال . . . و . . . ترجمته ب : « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » .

ويتميز كتاب الشفا بالتبويب والترتيب ، وقسمة أخباره ^{بأبواب} وشمايله وخصائصه الى أقسام ، ووضعها تحت عناوانات مختلفة . وقد حدد القاضي منهجه في مقدمة كتابه ، ومضى عليها من أول كتابه الى آخره . قال : وحصرت الكلام فيه (الشفا) في أقسام أربعة : القسم الأول : في تعظيم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في أقسام أربعة أبواب ١ - في ثنائه ، ٢ - في تكميله له تعالى المحاسن خلقا وخلقا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه



ولم يصرح القاضي عياض بذكر ثبت مصادره ومراجعته في مقدمة الكتاب أو في خاتمته ، ولكنه نشر ذلك في صفحات الكتاب . فكان يسوق الخبر تارة بسنده كاملا ، وكان يختصر ذلك تارة أخرى . وقد يشير الى النقل عن كتاب ويذكر اجازته أو سماعه . الخ . وكان ينص أحيانا على النقل من ابن اسحاق . ويشير الى النقل من كتب مختلفة في الاصول والتفسير والحديث والسير والايخبار والتواريخ وكتب المتكلمين مما يخص الثقافة الاسلامية الواسعة ، وما يرفد الكتاب الذي يؤلفه ويؤيد المنهج الذي يتبعه .

وربما يكتفي بإشارة سريعة فلا يوضح اسم الكتاب المنقول ولا صاحب الفكرة أو الرأي كقوله : قد رأيت لبعض السلف (الشفا ١ : ١٦٠) وقد وقع لبعض المفسرين (١٦١ / ١) وقال بعض العلماء (٤٦ / ٢) وأضفنا بعض ما وقع من مشاهير كتب الأئمة (٢٠٥ : ١) الخ .

وتظهر لك شخصية القاضي عياض في انتقائه ، واختياره ، وفي منهجه الذي رسمه وقدرته على ضبطه ومتابعته ، وفي إبداء الرأي في قضايا مختلفة تخص الفقه أو الأصول أو علم الكلام أو الاخبار . . .

كما يظهر شيوخه الذين روى عنهم ، ونخص منهم أبا علي الصديقي الشهيد ويظهر أعلام السير والكلام والفقه والأصول في نقوله عنهم وروايتهم المتصلة بهم .

وعلى العموم يحرص القاضي عياض على رواية الاخبار بأسانيدها ، ونسبة الآراء الى أصحابها ، والنص على النقل من كتب يسميها أو يسمي أصحابها . . . وقد يعدل عن هذا ، مكتفياً بشهرة الخبر أو باعتقاده ، وتحمله مسؤوليته وتوثيق نسبه . ولا شك في أن

ويشفي صدور قوم مؤمنين ويصدع بالحق ويعرض عن الجاهلين . . . »

وكتاب (الشفا) كتاب متوسط الحجم بالقياس الى كتب السيرة تقريبا ، على أن القاضي ينص على أنه يكتب مختصرا « فبادرت الى نكت سافرة عن وجه الغرض مؤديا من ذلك الحق المفترض ، اختلستها على استعجال ، لما المرء بصده من شغل البال بما طوفه الإنسان من مقاليد المحنة التي ابتلي بها فكادت تشغل عن كل فرض ونقل . . . » (٥٧) .

وهو ، على كل حال ، لاحق بكتب السيرة الشاملة ، أعني التي لاتقف من الحديث عن ناحية واحدة من حياة الرسول الكريم ﷺ أو خصائصه وشأنه . الخ . وإن لم يلتزم القاضي عياض في كتابة التاريخ الكامل لمراحل حياته ﷺ ، والتزم بالمنهج الذي رسمه في مقدمته : فعرف بسيرته العطرة على وجه الإجمال ، والتفت الى التنويه بشخصه الكريم . وأخلاقه العظيمة ، وشأنه المثلّي . ونقل من أخباره ﷺ وأحواله والتفاف صحابته حوله ، ووقف طويلا عند محبته ﷺ واتباع سنته ووجوب طاعته وتوقيره وتمظيم أمره ونقل الأحكام الفقهية في ذلك . الخ . والقاضي - على نقوله الكلامية ومناقشاته المختصرة والمطولة - يصرح بأنه لم يؤلف كتابه للرد على المنكرين ولا لنصب البراهين ، وإنما يؤلفه لأهل ملته المبين لدعوته ، المصدقين لنبوته ليكون تأكيداً في محبتهم له ، ومنامة لأعمالهم وليزدادوا إيماناً مع إيمانهم . (٥٨)

واختتم القاضي كتابه بمثل ما بدأ به ، وعطف ببيان نجاز مقاصده التي قصد إليها ، من إبراز خصائصه ووسائله ، وذكر فضائله وبيان شرف مكاتبه ﷺ . . . (٥٩) .





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وذكر أبو الربيع الكلاعي مقصده من هذا التأليف وعينه في تقطين :

— أن المراد فيه بالقصد الاول وجه الله سبحانه وتعالى .

— والقصد الثاني الرغبة في اناس الناس بأخبار نبهم (عليه السلام) . فان من قرأ سيرته (عليه السلام) وجد فيها القدوة الحسنة : فيستجزل ثواب الفرح بنصر الله ، ويضرب على المحن والشدائد ويصطبر للشدائد ، ويتأدب بأدابه (عليه السلام) .

ولخص في مقدمة الاكتفا (طبعة القاهرة) صنيح أبي الربيع الكلاعي في كتابه بأنه تأنى في الاختيار والترتيب واستكمل النقص وجمع المزايا ، كما يفهم قارئ مقدمة المؤلف (٦٩) . وكان الكلاعي لا يتدخل برأيه الا عندما تختلف الروايات ليفصل فيها ويرفع الاشكال . وأنه ربما فصل بين بعض الاحاديث المتشابهة لضرورة ... الخ .

٥ - ابن سيد الناس اليمعري * ٦٧١ - ٧٢٤

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليمعري الربيعي . أصل سلفه من الاندلس . وكان جده الأعلى قد دخل الاندلس في الايام الاولى واسكنه بلج بن بشر أبذه جيان لشبهها بنبج الشام أصلهم القديم . وكان جده أبو بكر محمد خطيب المسجد الجامع بتونس ، وعده بالنشأ في متابعي مذهب ابن حزم الظاهري .

ولد أبو الفتح محمد بن سيد الناس في القاهرة سنة ٦٧١ . قال الصفدي : وهو من بيت رياسة وعلم (يشير الى مكانة أسرته بالاندلس ، باشيلية) عنده كتب كثيرة وأصول جيدة . سمع وقرأ وارتحل وكتب وصنف وحدث وأجاز ، وتفرّد بالحديث في وقته .

... واستطرد في ذكره مشاهير شيوخه ثم قال، ولعل مشيخته يقاربون الالف . ونقل الصفدي في صفته : وكان طيب الاخلاق بساما صاحب دعاية ولعبه . وكان صدوقا في الحديث حجة فيما ينقله له بصر نافذ بالفن وخبرة بالرجال وطبقاتهم ومعرفة بالاختلاف ويدطولي في علم اللسان ومحاسنه حجة .

قال : وكان صحيح القراءة سريعها ، سريع الكتابة . كتب ختمة في جمعه . وكان يكتب السيرة التي له في عشرين يوما وهي مجلدان كبيران وبسرع بكتابة الخطين المغربي (الاندلسي) والمشرقي . وكان صحيح العقيدة جيد الذهن يفهم به النكت العقلية ويسارع اليها ولكنه جمد عقله لاقتصاره به على النقل (٧١) .

وكان يده مع مشيخة الظاهرية (بمصر) مدرسة أبي حليقة على بركة الفيل ومسجد الرصد وخطابة جامع الخندق . وله رزق . وله في صفد راتب ، وفي حلب فيما أظن (٧٢) .

وقد أحضر كتابا حجة ثينة ، أغلبها أحضر له من تونس في جملتها تاريخ ابن أبي خيشمة والمحلى لابن

(*) ترجم له معاصره وصديقه صلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات ١ : ٨٩ - ٣١١ . وابن شاكري في الفوات ٢ : ٣٤٤ وابن الاثير في البداية والنهاية ١٤ : ١٦٩ وابن حجر في الدرر الكامنة ٤ : ٣٣٠ والسبكي في طبقات الشافعية ٦ : ٢٩ وابن تفردي بردي في النجوم الزاهرة ٩ : ٣٠٣ والشوكاني في البدر الطالع ٢ : ٢٤٩ وابن العماد في الشذرات ٦ : ١٠٨ . وانظر أيضا : ثبت شيخ الاسلام زكريا الانصاري الورقة ٣٤ . ومقدمة عيون الاثر .



حزم والتمهيد والاستيعاب لابن عبد البر والاستذكار له ، وغير ذلك .

وصنف « عيون الاثر في فنون المغازي والسائل والسير » ، ومختصره الذي ساء « نور العيون في سيرة الامين المأمون » . ومن مصنفاته :

تحصيل الاصابة في تفصيل الصحابة وكتاب بشرى اللبيب بذكرى الحبيب (٧٢) ، ومنح المدح والمقامات العلية في كرامات الصحابة الجليلة . وله شعر كثير .

وقال ابن قاضي شعبة فيما نقله ابن العماد : سمع من الجهم الغفير وتفقه على مذهب الشافعي وأخذ الحديث عن والده وابن دقيق العين ولازمه سنين كثيرة وتخرج عليه وقرأ عليه أصول الفقه وقرأ النحو على ابن النحاس . . . وكانت له رحلة الى دمشق .

أما كتابه في السيرة فهو : عيون الاثر في فنون المغازي والسائل والسير وقصد فيه الى ان يكتب السيرة بحيث يتجنب فيها اطالة المكثر واخلال المقل . ومع ذلك فانه يقول عن سبقه « فليس لي في هذا المجموع الا حسن الاختيار من كلامهم والتبرك بالدخول في نظامهم » (٧٢) . وأنه انما يجمع المتفرقات وينظمها ويختار منها . وهو بلا شك يعتد الروايات الصحيحة ، ويأخذ بالاخبار الموثوقة ويتدخل حيث يمكن له ان يبدي رأيا أو يناقش قضية .

وأوضح منهجه الذي اتبعه من الاختصار والابجاز « سالكا في ذلك ما اقتضاه التاريخ من ايراد واقعة بعد أخرى لا ما اقتضاه الترتيب من ضم الشيء الى شكله ومثله حاشا ذكر أزواجه وأولاده عليه السلام » ، فانه لم يسق ذلك على ما اقتضاه التاريخ (من تسلسل الوقائع) بل أتبع به باب المغازي والسير

من باب الحلى والسائل ، الا تزويجه السيدة خديجة (ع) لما وقع في أمرها من أعلام النبوة .

وأضاف الى ذلك تنفا من الاشعار وأشياء في الانساب . ولم يشغل الكتاب بذكر الاسانيد وكتب السنن والسير والمصنفات المختلفة ، بل اكتفى بأن ذكر كله مجملا في آخر الكتاب (وستحدث عنها في مصادره) . أما في الفوائد الملتقطة والاجزاء المتفرقة فكان يذكر أسانيد فيها في مواضعها .

وأما في الانساب فكان يذكرها مرة ثم لا يكررها اكتفاء برموز يحيل عليها اختصارا (٧٥) : مثل (سا) للسابقين الاولين و (ها) للمهاجرين الاولين - الى ارض الحبشة - الخ . .

مصادره : قال ابن سيد الناس : وعمدتنا فيما نورد على محمد بن اسحاق ، ونبه الى ملاحظة لطيفة فاضاف « اذ هو العدة في هذا الباب لنا ولنيرنا » . . الا أن ابن سيد الناس كان يذكر خبر ابن اسحاق اذا ورد عند غيره مستندا ، ترجيحاً لمكان الاسناد .

ونقل عن الواقدي . وعقد فصلا مطولا للحديث عن الرجلين لبيان حالهما * .

وفي خاتمة الكتاب تحدث المؤلف عن الاسانيد التي وقعت له من المصنفين الذين اعتمد كتبهم في تأليف سيرته (٧٦) . وذكر من الكتب : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن أبي داود وكتاب الجامع للترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجه . قال : وما كان في الكتاب عن ابن اسحاق ضمن السيرة النبوية النبوية من رواية ابن هشام وتهذيبه . وما كان فيه من كتاب المغازي عن موسى بن عقبة فمن الامام عز

(٧٥) وكان السهيلي قدم بتعريف حال ابن اسحاق (الروض الانف : ٤ : ١ - ٥) .

عني بها جماعة اختصارا ، وظلما وشرحا مما يطول
التفصيل فيه ، في هذا المقام .

واختصر المؤلف كتابه (عيون الاثر) بمختصر
لطيف سماه نور العيون في تلخيص سيرة الامين
المأمون . وقال في مقدمته : لما وضعت كتابي المسمى
عيون الاثر في فنون المغازي والسير ★ متعا في باب
مغنيا عما سواه لقاصدي هذا العلم وطلابه رأيت أن
الخص في هذه الاوراق منه ما قرب مأخذه ونقله
وسهل تناوله وحمله ليكون للبتيدي تبصرة والمنتهي
تذكرة وسميته « نور العيون في تلخيص سيرة الامين
والمأمون » .

ونور العيون ملخص سريع ، شاف ، على ترتيب
وقائع السيرة النبوية بأسلوب مقبول ، وعرض دقيق .

ابو القاسم السهيلي * ٥٠٨ - ٥٨١

هو أبو القاسم ، وأبو زيد ، عبد الرحمن بن
عبد الله ... بن فتوح وهو الداخل الى الاندلس ،
السهيلي الخنمي . مولده بقرية سهيل من اعمال

(*) طبع كتاب عيون الاثر بعناية الاستاذ حسام
الدين القدسي معتبدا على اصول جيدة ومعاونة (راجع
مقدمته) سنة ١٣٥٦ هـ . وطبع كتاب نور العيون سنة
١٣٥٤ هـ بعناية رضوان محمد رضوان . طبع كلاهما في
القاهرة .

(*) ترجم له الضبي في بغية الملتبس ٣٥٤ . وابن
حشية المطرب ٢٣٠ . وابن سعيد في المغرب ١ : ٤٤٨ . وابن
خلكان في الوفيات ٢ : ٣٢٣ . وابن نرحون في الديباج ١٥ :
وابن شجري بردي في النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٠ . وابن
العماد في الشذرات ٤ : ٢٧١ والصغدي في نكت الهميان
١٨٧ وصلوان بن ادريس في زاد المسائر : ٩٦ .

الدين الفاروقي وجماعة . وذكر من مصادره أيضا
كتاب المغازي لابي عبد الله القرشي . وكتاب
الطبقات الكبير لابن سعد . ومارواه عن الطبراني
وأبي يعلى الموصلي وأبي بشر الدولابي وأبي عروبة
الحراني بأسانيد ذكرها . ومن مصادره ايضا معجم
أبي الحسين الفسائي .

ومن مصادره : الدرر في احتضار المغازي والسير
لابن عبد البر . وكتاب الانساب للرشاطي والشفا
للقاضي عياض والروض الالف للسيدي . وطرركتها
الصلوبين على هامش السيرة الهشامية على نسخة بخط
جده ابي بكر .

وهذه الكتب والتعليقات جميعا أندلسية .
وقد تحدث الدكتور شوقي ضيف في مقدمة
(الدرر) عن استفادة ابن سيد الناس من كتاب ابن
عبد البر ، قال : ولعل أهم من خلفوا ابن عبد البر افادة
من سيرته ابن سيد الناس (ت ٧٣٤) فقد جعلها نصب
عينه في سيرته النبوية المطولة التي سماها عيون الاثر
في فنون المغازي والشمال والسير . وفيها ينقل
فصولا وفقرات كثيرة عن ابن عبد البر مصرحا باسمه غالبا
وقد راجعه كثيرا في أسماء الاعلام وفي جواب مختلفة
من مادة سيرته وآرائه أو كتابه . وقال ده ضيف في مكان
آخر : وقد كثرت نقول ان سيد الناس عن سيرة ابن
عبد البر كثرة مفرطة (٧٦) ، ودائما يرجع الى كتابه
الاستيعاب في موازاته ومراجعاته . بل ان ده ضيف
يري ان سيرة ابن سيد الناس تحولت الى ما يشبه
نسخة من كتاب الدرر الخ .

وقد أثنى معاصرو ابن سيد الناس على كتابه ،
وشاع في الناس . وكان يكثر من كتابه بخطه . وكان
في جملة مرويات شيخ الاسلام زكريا الانصاري من
كتب السيرة ، كما ذكر في فهرسة شيوخه (٧٧) وقد



مالقة ونشأ بمالقة ، وتعلم ، وظهر . وسع من كثير من أهلها ورحل الى اشبيلية فلزم القاضي أبا بكر ابن العربي وأخذ عنه كثيرا من الحديث والاصول والتفسير ، وسع من غيره من مشاهير أهل اشبيلية . وبرع في علوم القرآن والحديث والنحو والصرف واللغة والادب .

كان مولده سنة ثمان وخمس مائة ووفاته سنة احدى وثمانين في مدينة مراكش وله الايات المشهورة:

يا من يرى ما في الضمير ويسع
أنت المعد لكل ما يتوقع

قال تلميذه ابن دحية ، في الطرب (٧٨): وتصانيفه كثيرة فمذهبتُها : كتاب « الروض الأتف والمشرح الروي في تفسير ما اشتمل عليه حديث رسول الله ﷺ واحتوى » . وله أيضا : « التعريف والاعلام فيما أبهم في القرآن من الاسماء الاعلام » . قال ابن دحية وسمعت عليه مسألة رؤية الله تعالى في المنام ورؤية النبي ﷺ .

ومن كتبه (نتائج الفكر) ، وغيره .

قال ابن خلكان : وأشعاره كثيرة ، وتصانيفه متممة . وكان بيلده يتسوخ بالعنفاء ويتبلغ بالكفاف حتى نمي خبره الى صاحب مراكش (الامير الموحيدي) فطلبه اليها وأحسن اليه وأقبل اليه بوجهه غاية الاقبال ، وأقام بها نحو ثلاثة أعوام . وبراكش كانت وفاته .

وذكر الرشيني في برنامجه عددا من الذين رووا عن السهيلي كتابه الروض الاتف من الاعلام (أنظر مثلا ص ٥٢ وغيرها) .

كان كتاب الروض الاتف من الكتب الذائعة أيام المؤلف ، وبه اشتهر دون غيره من الكتب والمؤلفات ،

وقد رواه عنه جماعة من تلامذته في الأندلس والمغرب . وكتب للروض الاتف السيرة بعد مؤلفه ، الى زماننا هذا ، قال بالنشأ في تاريخ الفكر الأندلسي (٣٩٨) ومن اشتهر بالتحقق في علوم الحديث عبد الرحمن ابن عبد الله السهيلي : وكان عالما بالقراءات واللغات والعربية وضروب الآداب ، حافظا للسيرة والأخبار والأنساب إماما في الحفظ والذكر والادراك ، مقدما في الفهم والفتنة والذكاء ، له حظ وافر من قرض الشعر والتصرف في فنون من العلم يغلب عليه علم العربية والغريب وأشهر كتبه الروض الاتف في شرح السيرة لابن إسحاق . وهو أجل تواليفه ، دلّ به على سعة حفظه ومتانة علمه .

وذكر السهيلي في مقدمة الروض الاتف انه يشرح سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام ، وذكر طرقة في روايتها ، وأنه بدأ الشرح إملاء في محرم سنة ٥٩٩ وفرغ منه في جمادى الاولى من ذلك العام . وقد أفاد في كتابه قارئه من : فوائد العلوم والآداب وأسماء الرجال والأنساب ومن الفقه والنحو والاعراب ، مما استخرجه من عشرين ومئة كتاب ، قال: هذا « سوى ما أتجه صدرى وتجه فكري وتجه نظري ولقنته عن مشيختي من نكت علمية لم أسبق اليها ولم أرحم عليها ... مع أني قلت الفضول وشذبت أطراف الفصول (٧٩) » .

ويمكن إيجاز عمله بخمسة أمور ، العناية باللفظ الغريب ، وشرح الكلام المستغلق ، وإعراب الغامض ، والحديث في بيان النسب وتسمية الأخبار الناقصة (٨٠) . وقد ذكر السهيلي في كتابه أسماء بعض مصادره وأغفل كثيرا منها . وما ذكره تفسير بقي بن مخلد ، وبعض كتب ابن العربي ، وأبي علي القالي وابن دريد وأبي الفرج الأصفهاني ... الخ .



المزدغي كان يقدمه في العربية وفي علم الحديث ويقول:
كتابان لا يحسن أحد أن يسبهما في يده مع أبي ذر:
وهما مسلم (الصحيح) والسير ، يعني في الضبط
والتنقيد ، وكان مع ذلك راوياً لكتب كثيرة في فنون
شتى من العلم .

وله إملاء " حسن على كتاب السير .
وله شعر رائق في فنون شتى .

وترجم له ابن الأبار في التكملة ، وذكر أنه سمع
عن علماء (سآهم) بحيان وتلسان وبجاية وفاس ،
قال وكان رئيساً في صناعة العربية عالماً بها قائماً عليها
درّسها حياته كلها ورحل الناس إليه فيها مع المعرفة
بالآداب واللغات والأخذ بحظ من قرض الشعر .

وكان أبو بكر محمد من علماء الأندلس ومحدثيها،
وله فهرسة (برنامج) جمعه ابنه مصعب (أبو ذر) ،
ذكر ذلك أستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني في
مقدمته على برنامج ابن أبي الربيع (صفحة ١١) .

شرحه على السيرة : كان أبو ذر الخشني كما تذكر

والكتاب مرجع ضخم ، هام لإيضاح مسائل من
السيرة ويشرح كثير من غريبها ومعاني أعلامها ،
ولإضافة فوائد مختلفة قيّمة في النسب واللغة والنحو
والآداب والخبر .

وقد طبع « الروض الأثف » بهذا العنوان (قابل
بما قاله ابن دحية من عنوان الكتاب) . وطبع بهامشه
سيرة ابن هشام في جزأين ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م .
بالقاهرة .

أبو ذر الخشني (٥٣٢ - ٦٠٤ هـ

هو أبو ذر مصعب بن أبي بكر محمد (المعروف
بابن أبي ركب) بن مسعود بن عبد الله بن مسعود
الخشني ، قال مؤلف الذخيرة السنية (٨١) : الأستاذ
المقرئ، النحوي الجليل القدر . أصله من جيان
(بالأندلس) روى عن أبيه وعن أبي بكر بن طاهر ،
وتجول بالعدوة والأندلس ، وطلب العلم واعتنى به
وقيّد . وروى بفاس عن جماعة . . . وروى بقرطبة
عن ابن بشكوال وغيره ، وروى ببجاية عن عبد الحق
الأزدي الاشيلي وكتب إليه الإمام أبو الطاهر السلفي
وأبو محمد الدياجي .

قال « وكان رحمه الله أحد الأئمة المتقدمين ضبطاً
وتقييداً ، وأحد المعتمد عليهم في علم اللغة والآداب ،
اماماً في العربية ، عالماً بكتاب سيبويه » . ووصفه
بالفضل والدين والورع .

وأقرأ أبو ذر الخشني ببلده جيان ، وببجاية
وإشبيلية وفاس وبها استقر إلى أن توفي سنة ٦٠٤ .
وقد تولى الخطبة بجامع إشبيلية مدة ، وكان يقرئ
العربية بها أيضاً . وولي القضاء للمنصور الموحي
ببلدة جيان . ونقل في الذخيرة أيضاً أن الإمام الحافظ

(٥) ترجم له ابن الأبار في التكملة (طبعة مصر
٢ / ٧٠٠) وصاحب الذخيرة السنية ٤٢ ، وأبو بحر
صفوان في زاد المسافر ١٤٧ . وانظر برنامج شيوخ
الربيعي صفحة ٤٥ ، وبرنامج ابن أبي الربيع صفحة
١١ . وترجم له ابن سعيد في المغرب ٢ : ٥٥ والسيوطي
في البغية ٢ : ٢٨٧ وابن سعيد في الرايات ١٠٣ وابن
العماد في الشذرات ٥ : ١٤ .
وترجم الضبي لآبيه أبي بكر صفحة ١٢١ . وياتوت
في معجم الأدباء ١٩ / ٥٤ .
والسيوطي في بغية الوعاة ١ : ٢٤٤ وتوفي أبوه
(أبو بكر) سنة ٥٤٤ .



الكتاب (أو جامعوه) يحرص على عبارة « حدثنا الشيخ الفقيه أبو ذر » مرة بعد مرة من أول الكتاب الى آخره .

وقد جعله الناشر في جزأين . غير أن المؤلف قسم كتابه على عشرين جزءا ، وأثبت الناشر تجزئة المؤلف ، فقد كان ينص على نهاية الجزء وبداية الذي يليه .

وشرح أبي ذر الخشني على السيرة يهتم بشرح الغريب من اللغات والأسماء والأعلام . وشرح العويص من الشعر الذي ذكره ابن اسحاق . وإضافة إيضاحات من العربية والنحو والصرف وما يتعلق بذلك . وكان ينسب الأبيات أو ينسب على روايات في نسبتها .

وكان يذكر أحيانا بعض المصادر وأسماء بعض المؤلفين مثل قاسم بن ثابت صاحب الدلائل والخطابي ، والوقشي ، وتفسير ابن هشام لغريب السيرة والنقاش ، وابن عبد البر القرطبي ، وموسى بن عقبة . . . الخ

وكان يرجع الى كتب التفسير والقراءات والأنساب ، ويصحح بعض الأنساب (صفحة ٩٩ مثلا) ، وينقل عن كتب السنن والسير لإيضاح النص أو معارضته أو ايراد روايات أخرى . (انظر مثلا ٢٣٦) .

وربما نقل عن شيوخه مغفلا الاسم ، وقد يذكره (راجع مثلا ١٣٦) .

ولا شك في أن أبا ذر الخشني كان يرجع الى روايات السيرة ، سوى رواية ابن هشام ، والى الكتب المعتمدة في السنن والسير ، وأن التراث الأندلسي بخاصة كان تحت يده أو في المروي المحفوظ ، كما مرّ مثلا من ذكر قاسم بن ثابت والوقشي وابن عبد البر وغيرهم بالإضافة الى شيوخه الذين عاصروهم وأخذ عنهم .

وكتاب أبي ذر ، يدل على علم غزير واطلاع

الكتب القليلة التي ترجمت له بارعا في اللغة وعلومها ، كما يذكر ابن الأبار أنه قد بعد صيته في الإقراء والتدريس . وكان على خطة فذة في التدريس « فقد منع تلاميذه التبسط في السؤالات وقصرهم على ما يلقى اليهم دون استزادة ، ولم يكن ذلك لأحد من أهل عصره ! » (٨٢) .

وقال ابن الأبار أيضا : وله تأليف في شرح غريب السير لابن إسحاق ، وتأليف صغير في العروض .

وقال السيوطي : من تصانيفه : الإملاء على سيرة ابن هشام . وقد طبع الكتاب بعنوان : (شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) ، وذلك سنة ١٣٣٩ هـ بمصر . استخرجه وصححه بولس برونل .

ونقرأ في مقدمة المؤلف : هذا إملاء أمليته من حفظي بلفظي على سيرة رسول الله ﷺ التي تقدم محمد بن إسحاق الى جمعها وتلخيصها أوانه سمع هذا الكتاب مني ، وقيدت رواياته بطرقها عني ، قصدت فيه شرح ما استبهم من غريبه ومعاليه وإيضاح ما التبس تقييده على حامله وراوييه ، مع اختصار لا يخل وإيجاز يتم به البيان ويستقل ، لم يقصد فيه قصد التأليف فتدأطناه ولا ينحو به نحو التصنيف فتشهد فصوله وأبوابه ، وإنما هي عجالة الخاطر وغنية الناظر .

ثم عرض عليّ هذا الإملاء بعد كماله فتصفحته ، ورغب في حمله عنّي فبعد لأي ما أذنت في ذلك وأبحثه . والله تعالى ينفعنا بما قصدناه ويجزل ثوابنا على ما ابتغيناه وتوخينا . . . الخ » .

ويظهر طابع الإملاء على الكتاب ، وكان مبيّض



واسم ومعرفة بفنون اللغات والآداب والأخبار والأنساب
والسير ، وعرف له معاصروه هذه الخصائص فقدموه
وأخذوا عنه .

وبعد

فهذا ما تيسر الحديث فيه من (السيرة النبوية في
التراث الأندلسي) قصدت فيه الى رسم الخطوط
العريضة ، وإثارة الانتباه الى أهمية الموضوع ، وأن
أصيب من المعلومات ، والاضافة ، والتحليل ، ماتطيقه
مقالة في مجلة ، وما أستطيعه من النظر في الكتاب
المطبوع الممكن الرجوع اليه على وجه .

وآمل أن أتابع هذا الموضوع باستيعاب ، وتفصيل
وزيادة تحليل ، أو أن ينهض به مهتم بالتراث الأندلسي ،
محبة له .

والحمد لله رب العالمين .

□ □

حواش وأحالات :

(١) فهرسة ابن خير الاشبيلي — الطبعة الثانية —
بيروت ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م راجع مثلاً ص ١١٠ ، ١٥١ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ولغيرها . وانظر
في المسارد مواد : الاعلام والسيرة والشمال
والفتوح ، والمغازي ..

(٢) جذوة ٣٥٤ وبغية المتتبع ٤٨٨ .

(٣) برنامج شيوخ الرعيني دمشق صفحة ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ٥٢ .

(٥) المصدر نفسه ٦٠ .

(٦) المصدر نفسه ١٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ٤٥ .

(٨) المصدر نفسه ١٤٨ .

(٩) برنامج ابن أبي الربيع ٤٧ .

(١٠) المصدر السابق .

(١١) مقدمة التحقيق كتاب الدرر للدكتور شوقي ضيف .

(١٢) الاكتفا للكلاعي ٥٥ طبعة أوربة . وقد بقيت منه

قطع في لندن ومديد .

(١٣) عيون الاثر ٢ : ٣٤٧ .

(١٤) نفع الطيب ٥ : ٤١٤ .

(١٥) الذيل والتكملة ٢/٥ : ٢٧٨ .

(١٦) الذيل والتكملة ١ : ٣٥٦ .

(١٧) نفع الطيب ٢ : ٢٠٧ .

(١٨) عنوان الدراية ٢٢٨ .

(١٩) نفع الطيب ٦ : ١٤٥ .

(٢٠) الذيل والتكملة ٢/٢ : ٥٢١ .

(٢١) عنوان الدراية ٢٢٨ .

(٢٢) نفع ٢ : ٥٩٩ والذيل والتكملة ٢ : ٥٢١ .

(٢٣) عيون الاثر ٢ : ٣٤٧ .

(٢٤) طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٢٩ .

(٢٥) تاريخ الفكر الأندلسي ٣٨٩ .

(٢٦) طبقات الزبيدي ٢٢٩ .

(٢٧) الذيل والتكملة ١/١ : ٣٥٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ٢/١ : ٥٢١ .

(٢٩) الاعلام للزركلي ٧ : ٢٦٣ .

(٣٠) فهرسة ابن خير ٤٢٠ .

(٣١) برنامج شيوخ الرعيني ١٦٩ .

(٣٢) جذوة المتتبع ٣٤٦ .

(٣٣) الصلة لابن بشكوال .

(٣٤) المغرب ٢ : ٤٠٧ .

(٣٥) جذوة المتتبع ٣٤٥ .

(٣٦) وفيات الاميان ٦ : ٦٩ .



- (٣٧) الجذوة ٣٤٤ .
- (٣٨) طبع بعنوان بهجة المجالس وائس المجالس وشحف
الذاهن والهاجس .
- (٣٩) يعني كتاب الاستيعاب في معرفة الاصحاب .
- (٤٠) الدرر ٢٩ .
- (٤١) مقدمة تحقيق الدرر : ١٣ .
- (٤٢) المصدر نفسه . (٤٢ مكرر) حقق الدكتور سهيل
زكار قطعتين هامتين من سيرة ابن اسحاق برواية ابن
بكير وطبعه في دار الفكر (بيروت ١٩٧٨) بعنوان
كتاب السير والمغازي .
- (٤٣) مقدمة الدرر ٩ .
- (٤٤) راجع المقدمة .
- (٤٥) النفع ١ : ٣٣٧ .
- (٤٦) عصر سيادة ترطبة ٣١٨ . (٤٦ مكرر) المصدر
نفسه .
- (٤٧) جذوة المقتبس ٤٧ .
- (٤٨) انظر مثلا ٥ - ١٤ من جوامع السيرة .
- (٤٩) مقدمة جوامع السيرة : ٥ .
- (٥٠) الفصل ٢ : ٩٠ ، وراجع المقدمة صفحة ٦ .
- (٥١) مقدمة الدرر : ١٥ .
- (٥٢) تاريخ الفكر الاندلسي ٣٩٧ - ٣٩٨ .
- (٥٣) التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد .
- (٥٤) التعريف بالقاضي عياض ٢ - ٥ .
- (٥٥) التعريف .
- (٥٦) نقل القاضي النباهي في المرتبة أن القاضي (عياض)
سكن بالقة مدة وتول بها أملاكا .
- (٥٧) الشفا ١ : ٤ - ٥ .
- (٥٨) الشفا : ٢٠٤ .
- (٥٩) الشفا ٢ : ٣٤٤ .
- (٦٠) المرتبة ١١٩ .
- (٦١) الذيل والتكملة ٤ : ٨٣ - ٨٤ .
- (٦٢) الذيل والتكملة ٤ : ٨٥ .
- (٦٣) الذيل ٤ : ٨٩ .
- (٦٤) الروض المعطار ٤١ ونفع الطيب ٤ : ٤٧٣ -
٤٧٤ .
- (٦٥) الاكتفا ١ : ٥٠ .
- (٦٦) الاكتفا ١ : ٥٢ .
- (٦٧) الاكتفا ١ : ٥٣ .
- (٦٨) الاكتفا ١ : ٥٥ .
- (٦٩) الاكتفا « ط الخانجي بمصر » - مقدمة المحتق .
- (٧٠) تاريخ الفكر ٢٣٨ .
- (٧١) الوافي بالوفيات ١ : ٢٩١ .
- (٧٢) المرجع نفسه .
- (٧٣) ذكر سر كيس في معجبه انه طبع قسم من الكتاب .
- (٧٤) حيون الاثر ١ : ٦ .
- (٧٥) عيون ١ : ٧ .
- (٧٦) عيون ٢ : ٣٤٢ .
- (٧٧) مكرر - الدرر : مقدمة : ١٧ - ١٨ .
- (٧٧) الورقة ٣٤ .
- (٧٨) المطرب ٢٣٦ .
- (٧٩) الروض الانف ١ : ٣ .
- (٨٠) المرجع نفسه .
- (٨١) صفحة ٤٢ .
- (٨٢) التكملة لابن البار ٢ : ٧٠٢ .



الأثر العربي الشرقي في القانون الروماني-اللاتيني

المحامي أحمد غسان سبانو



والقدماء على فراق . الا أن الحقيقة والواقع أن حضارتنا واحدة ومنشأنا بالاصل واحد . عالمنا العربي وشعبنا واحد ، وابدأنا مهما قسموا أو بعدوا ، هم سكان أرضنا العربية ، وتراثهم تراثنا .

على أرض الوطن العربي كان فجر الانسانية ، وأول حضارة عرفها العالم تلك الحضارة التي هي بحق أم الحضارات العالمية .

انها حضارة عربية سامية بدأت مع فجر الانسانية واستمرت دون انقطاع حتى هذا العصر وستبقى مستمرة ما دام على هذا الكوكب نبضة حياة .

ان حضارتنا العربية العريقة تعود الى آلاف السنين الغابرة الا ان دراستنا لتاريخ حضارتنا ما زال في بدايته وقد سبقنا الى هذه الدراسة علماء الغرب فألفوا ووضوا النظريات والتفسيرات بما يرضي هواهم فقسّموا حضارتنا ، وقربوا بعضها وأبعدوا بعضها ، هنا حضارات سامية ، وهنا غير سامية ، هنا حضارة تعود لأقوام هاجرت من الجزيرة العربية ، وهنا أقوام لا نعرف أصلهم وفصلهم ، وهدفهم في ذلك واضح ومعلوم .

من ذلك كانت نظرتنا للتراث متضاربة مختلفة ، فبعضنا يعتبر تراثنا هو التراث العربي الاسلامي ، وبعضهم يعيده للوراء قليلا أو كثيرا ، بعضهم يقول قد انقطعت صلتنا بالماضي ، فنحن

الا أن اضاعتنا لتلك الفترات القديمة والمتوسطة القدم في تاريخنا باعد بين التراث مما أوجب علينا البحث والتقصي لنعيد الحق الى نصابه ولنحفظ تراثنا المهمل بالضياع . ولتعرف جماهيرنا صفحات مشرقة من تاريخنا الذي ضمته متاحف ومعاهد التراث الاجنبية ومكتبات الغرب . من هذه الصفحات ندرس الآن الأثر العربي الشرقي في أهم منجزات الرومان الحضارية ولعلها الوحيدة الا وهي المنجزات القانونية الرومانية لنعرف حقيقة « رومنتها » وتأثير أجدادنا العرب فيها .

تسهل دراسة روما والشعب الروماني لوضوح التأسيس ووضوح التأثير الاجنبي ، ووضوح التكوين .

فلقد نشأت مدينة روما من اتحاد قبائل

من المهاجرين الهندو - أوريين الذين تجمعوا بين نهر « التير » ونابولي وسموا باسم اللاتينيين وجاوروا قبائل السابيفيين والامبريين وقد اتحدوا فيما بينهم وأنشأوا مدينة البالونكا عند سفح جبل « ألان » وعلى بعد عشرين ميلا منها للشمال الغربي أنشأوا مدينة لاغراض دفاعية في ٢١/٤/٧٥٤ ق م على تل البالاتان واتسعت هذه المدينة فشملت سبعة تلال أشهرها « البالاتان » و « الكابيتول » و « الكيرينال » و « الآفانتان » هذه المدينة الدفاعية دعت روما .

وكان لهذه المدينة الحظ الوافر فاصبحت هي المركز الرئيسي لشعب اللاتين . وقد تطورت المدينة لتصبح مملكة وبقيت كذلك حتى عام ٥٠٩ ق م حيث قام النظام الجمهوري الذي بقي حتى عام ٢٧ قبل الميلاد حين اعتلى الحكم في روما « أوغوست » بعد أن أنهى حكومة القناصل . وقد برت الحقوق الرومانية خلال تاريخها في أربعة عهود وهي :

١ - عهد نشأة الحقوق ويبتدىء منذ بناء روما عام ٧٥٤ ق م وحتى سقوط الملكية عام ٥٠٩ ق م وفي هذا الدور كانت الاعراف والعادات هي التي تحكم وتنظم أمور الناس وما لبثت تلك الاعراف والعادات ان شكلت قواعد قانونية بقيت بايدي رجال الدين .

٢ - عهد الحقوق الرومانية القديمة : منذ أوائل العهد الجمهوري حتى بدء العصر الامبراطوري (٥٠٩ ق م - ٥٠ ق م) .

وبهذا العهد توسع الرومان في فتوحاتهم وخالطوا الشعوب المجاورة من يونان وكريت

وفينيقيين وكل هذه الشعوب كان للعرب والفينيقيين خصوصاً أثر كبير على حضاراتهم .

وبهذا الدور نشأت أقدم النصوص الحقوقية المكتوبة ومنها الألواح الاثنا عشرية عام ٤٤٩ ق م وكانت الحقوق الرومانية تطبق على انرومانيين . وكان القانون المحلي هو الذي يحكم الشعوب المجاورة والتي أصبحت مع الأيام مستعمرات رومانية . ونتيجة اختلاط الحقوق الرومانية مع أنظمة الحقوق لدى الشعوب الأخرى جرى تطور كبير في الحقوق الرومانية جعلها تبتعد عن البدائية والشكلية وأصبحت أكثر قدرة على استيعاب المسائل المستجدة والمتطورة للمظاهر الحضارية .

٣ - العهد العلمي من عام ١٥٠ ق م وحتى عام ٣٠٣ م في عهد الامبراطور قسطنطين وهو أزهى العهود الحقوقية الرومانية وبه ظهر أعظم فقهاء الرومان « فقهاء العهد العلمي » وهم جميعاً من أصل فينيقي عربي وأثارتهم هي التي سميت فيما بعد « مدونة جوستينيان » كما سنرى .

٤ - عهد الامبراطورية العظمى (٣٠٣ - ٥٦٤ م) من عهد الامبراطور قسطنطين الى موت الامبراطور جوستينيان ولم يكن للابداع دور في هذا العهد بل كانت سمتا النقل والتحشية على مؤلفات العهد العلمي ، ولكن في هذا الدور اكتمل التجميع القانوني للمؤلفات والدراسات في مجموعات وصلت

١٧

الينا وتبناها نابليون وأخذتها أسرة الحقوق
اللاتينية التي تعتمد حقوق نابليون كأساس في
قوانينها .

فما هي هذه المجموعات ؟

يطلق أسم مدونة جستنيان عادة على ثلاث
مجموعات هي كما يلي :

١ - مجموعة القوانين والدساتير الامبراطورية
وهي تجميع لمصادر من قوانين ودساتير .

٢ - الموسوعة وتشمل القانون القديم
المتمثل في كتابات الفقهاء وهي التي تسمى القانون
المدني .

٣ - النظم : وهو مختصر للقانون المدني
وهو بالاساس كتاب مدرسي لطلاب الحقوق .

ولتبيان الأثر الشرقي العربي على مدونة
جستنيان التي أصبحت مجموعة نابليون ،
سندرس الأصول التي استقلت عنها مدونة
جستنيان مصادرها . ثم ندرس طريقة تجميع
هذه النصوص وأخيرا ندرس كيف انتقلت الينا
هذه النصوص .

١ - المصادر التي أخذت عنها الحقوق الرومانية
ومدونة جوستنيان .

وهي مصادر الحقوق عامة :

١ - العرف والعادة وهو أساس القوانين
وقد كان العرف والعادة بالاساس رومانيين
بختين الا انهما تطورا مع الفتوحات فأخذ عن
اليونان وكريت وصقليا وبلاد العرب وذلك بتطور
المحيط ونتيجة التجارة وتبادل العلماء والاسرى
والعبيد والجيوش والسياح وسواهم .

٢ - المراسيم والدساتير الامبراطورية
والمراسيم والدساتير الصادرة عن حكام الاقاليم
وهناك أثر كبير للشرقيين العرب في هذه الدساتير
حتى ان صياغة عدد منها صدر بفعل اباطره
عرب من أسرة الامبراطور سبتيم سيفر (١٩٣ -
٢١١) م الحمصية وأولاده كركلا (٢١١ - ٢١٧)
وغيتا (٢١١ - ٢١٤) م وأكابالس (٢١٨ - ٢٢٢) م
واسكندر سيفروس (٢٢٢ - ٢٣٥) م بعد ذلك
جاء فيليب العربي . (٢٤٤ - ٢٤٩) من شهباء .

كذلك كان قسم من المراسيم قد صدر من
تأثير رؤساء الديوان الامبراطوري (أي ما يعادل
رئيس الوزارة) أمثال بابنيان من حمص والبيان
وبولس ومودستان من الساحل السوري .

٣ - الفتاوي وهي استنباط الاحكام من
النصوص الأساسية وقد مرت الفتوي بمراحل
كالتالي :

١ - مرحلة اعطاء الفتاوي بشكل حر للجميع .

ب - حصر الافتاء باصحاب الامتياز المعطى
من الامبراطور .

ج - حصر الافتاء بمجلس استشاري برئاسة
الامبراطور .

د - ظهور الفقهاء العلميين وظهور المدارس
الفقهية .

٤ - المؤلفات الحقوقية وقد وصلنا منها
عدد محدود ويعود حصرا لفقهاء العصر العلمي
السوريين وهم غايوس من الشمال السوري
وبابنيان من حمص وبولس والبيان وتلميذه
مودستان وهم جميعا من الساحل السوري .

الدساتير من عهد هادريان الى عهد دقلديانوس
مرتبة حسب تاريخ صدورها .

ب - المجموعة الهرمونية نسبة لجامعها
هرموجيان وكملت سابقتها وصدرت بعد عدة
سنوات منها .

ج - المجموعة النيودوزية نسبة الى الامبراطور
نيودوز الثاني وصدرت عام (٤٣٨) م شاملة
للدساتير من عهد قسطنطين حتى تاريخ صدورها .
د - مجموعة جيستنن وتضم ثلاث
مجموعات :

١ - مجموعة القوانين ونظم الدساتير
الامبراطورية وصدرت نهائيا عام ٩٢٩ م .
٢ - الموسوعة : وتشمل القانون القديم
متمثلا بكتابات الفقهاء وصدرت عام ٥٣٣ م .
٣ - النظم : وهي مختصر القانون الروماني
ووضعت بالاساس لغرض تدريسي .
وصدرت عام ٥٣٣ م .

ثانيا : من جستنيان الى نابليون :

صدرت مدونة جستنيان في عهده وبقيت
مطبقة حتى القرن الثامن الميلادي وفي عام ٧٤٠
وضع الامبراطور ليون باللغة الاغريقية مختار
القوانين . وفي القرن التاسع قام الامبراطور بازيل
(٧٦٧ - ٨٧٩) م بوضع مجموعة سماها « الموجز
في القوانين » .

وفي نهاية القرن التاسع وضع الامبراطور
ليون السابع المجموعة « البازيليكية » التي طبقت
حتى سقوط القطنطينية بيد « فراك » عام
١٤٥٣ م .

٥ - دور المدارس القانونية (الجامعات)
التي كانت تقوم بالتدريس بمدة أربع سنوات
أضيف اليها فيما بعد سنة خامسة وأهم هذه
الجامعات معهد روما ومعهد « أثينا » ومعهد
القسطنطينية ثم معهد بيروت ومعهد الاسكندرية
ومعهد القيصرية والثلاث الاخيرات عربيات المنشأ
والأقليم .

٦ - دور المحاكم وقرارات القضاء سواء ما
يطبق منها الحقوق الرومانية أو ما يطبق القانون
الاجنبي الأكثر تطورا .

●● كيف وصلت الينا مدونة جوستنيان ؟
وهذا يقتضي البحث في تطور الحقوق الرومانية
حتى أصبحت باسم مدونة جوستنيان أي كيف
تشكلت مدونة جوستنيان ؟

وبالتالي كيف أصبحت مدونة جوستنيان
قانوناً فرنسيا ؟

وأخيراً كيف دخل القانون الفرنسي الى قوانين
البلاد العربية وأصبح مطبقا فيها ؟

أولا : أصول مدونة جوستنيان .

كان أول تجميع وتدوين للحقوق الرومانية
في عام ٤٤٩ ق م عندما ظهرت الألواح الاثنا
عشرية . الا ان التجميع والتدوين العلمي للقوانين
والانظمة والدساتير الرومانية أنما تم عام (٢٩١ م
بالشكل التالي مع ذكراهم المجموعات :

٦ - المجموعة الأولى المجموعة الجريجورية
الصادرة عام (٢٩١) م في عهد دقلديانوس
وسميت جريجورية نسبة لجامعها وقد ضمت

الفرنسية باسم الحقوق اللاتينية القانون اللاتيني
في الدول العربية .

تعتبر مضر أولى الدول العربية التي طبقت
الحقوق الفرنسية وقد كانت مصر تطبق الشريعة
الاسلامية التي تعتبر مصدر التشريع . واخذت
بعض القوانين الوضعية بالظهور اعتباراً من
أول القرن التاسع عشر .

وظهر بالتالي القضاء المختلط والقوانين
المختلفة التي أعدها أحد المحامين الفرنسيين
المقيمين في مصر وأسمه « مونوري » من هذه
القوانين القانون المدني المختلط الذي كان في
حينه يعتبر ورقة رابحة للتخلص من الامتيازات
الاجنبية .

ثم ظهرت المحاكم الأهلية التي تطبق الشريعة
الاسلامية وأضافة لها القوانين الوضعية . وتخلصاً
من هذا ازدواج بين قانون مختلط وقانون أهلي
وكذلك الامر بالنسبة للمحاكم فقد شكلت لجنة
أعدت مشروعاً أخذت ثلاثة أرباعه من القوانين
المصرية المختلطة والأهلية التي أساسهما القانون
الفرنسي . أما الربع الرابع فقد أخذ أحكامه من
الشريعة الاسلامية السمحاء وطبق هذا المشروع
كقانون عام ١٩٤٨ .

وفي سورية طبق القانون المصري بنصه
وحرفيته عدا تبديل أسم الدولة وبعض التبديلات
البسيطة الأخرى وصدر في سوريا ١٩٤٩ . كذلك
طبق في لبنان والعراق وليبيا وغيرها من الدول
العربية .

الأثر العربي الشرقي في الحقوق الرومانية :

ويتجلى هذا الأثر في مصادر الحقوق الرومانية
وفي منها وفي طريقة تجميع هذه الحقوق .

وكل المجموعات المذكورة أخذت نصاً وروحاً
عن مدونة جوستنيان وذلك في الامبراطورية
الرومانية الشرقية (بعد الانقسام الى شرقية
وغربية) أما في الامبراطورية الغربية فقد
طبقت مدونة جوستنيان على فترات وخلال مناطق
مختلفة وصدرت عليها هناك عدة تعديلات .

في أواخر القرن الحادي عشر قامت في أوروبا
حركة تهدف الى أحياء القانون الروماني وكان
المركز الرئيسي لهذه الحركة مدينة بولونيا في
إيطاليا وقد أسس هذه الحركة أرنويولس وأفتتح
مدرسة لتدريس مجموعات جستنيان التي كانت
تسمى مجموعة القانون المدني وأخذ أرنويولس
وبعض الفقهاء بشرح المدونة وتفسيرها ووضع
الهوامش عليها وجمعت أعمالهم باسم « الحاشية
الكبرى » التي أصدرها أكورسيوس (١١٨٢ -
١٢٢٠) م وعلى أعقاب هذه المدرسة ظهرت
مدرسة المحققين اللامعين وعلى رأسها الفقيه
بارتول (١٣١٤ - ١٣٥٧) م .

وفي فرنسا وعلى يد الفقيه كيجاسن (١٥٢٢
١٥٩٠) بدأت الدراسة العلمية لمدونة جوستنيان .

وظهرت حركة مماثلة في ألمانيا تزعمها الفقيه
ساقيني (١٧٧٩ - ١٨٦١) م وفي فرنسا كان هدف
الحكومات الفرنسية توحيد القوانين المطبقة في
فرنسا بمجموعات وقد عجزت الملكية عن تطبيق
هذا الهدف كما عجزت الجمهورية عن ذلك أيضاً
لأن نابليون في عهد القنصلية أصدر المجموعة
النابليونية في ٢٧/٣/١٨٠٤ . وذلك نقلاً عن مدونة
جستنيان . وقد فرضتها فرنسا على الدول التي
استطاعت السيطرة عليها آنذاك وعرفت الحقوق

١ - الأثر العربي الشرقي في مصادر الحقوق :

ففي العرف والعادة كان لاختلاط الرومان المباشر مع البلاد العربية وسوريا على الخصوص والمستعمرات الفينيقية القديمة أو الدول التي كان للفينيقيين والعرب عموماً تأثير مباشر عليها مثل اليونان وكريت وغيرها ونتيجة للحروب والاسرى والتجارة والسياحة وسواها كان التأثير العربي للعرف والعادة الرومانية .

أما في المراسيم فانها أيضاً صادرة عن تأثير هذا الاختلاط المذكور . وكنا قد ذكرنا ان هناك خمس أباطرة سوريين ولا أقل عن أربعة رؤساء دواوين (رؤساء وزارة) عرب سوريين حكموا روما واصدروا الكثير من المراسيم نذكر أسمائهم كما يلي :

الإباطرة : أسرة سيفير الحمصية وقد حكمت على الشكل التالي : سبتيم سيفر (١٩٣ - ٢١١) م كركلا (٢١١ - ٢١٧) وغيتا (٢١١ - ٢١٢) م واكابالس (٢١٨ - ٢٢٢) م واسكندر سيفروس (٢٢٢ - ٢٣٥) م .

ثم جاء امبراطور آخر من أسرة سورية عربية من مدينة شهباء هو الامبراطور فيليب العربي الذي حكم ما بين عامي (٢٤٤ - ٢٤٩) م .

أما رؤساء الدواوين والحكام البرينوريين (القضاة فنذكر منهم : بابنيان / وبولس / / واولبيان / ومودستان / .

كما وان هناك الكثير من المراسيم التي صدرت تخص مفتين عرب نظمت الفتوى أو أعطت كتابات بعض المفتين أولوية في التطبيق نذكر من هذه المراسيم ما يلي :

١ - دستور قسطنطين الصادر عام ٣٢١ م

الذي أمر فيه بعدم الاعتداء بالحواشي التي وضعها الفقهاء أولبيان وبولس على كتاب الفتاوي للفقهاء بابنيان وكل من ذكر من أصلي عربي سوري .

٢ - دستور قسطنطين الصادر عام ٣٢٧ م الذي يعطي لكتاب الاحكام للفقهاء بولس قوة رسمية مطلقة .

٣ - قانون الاسانيد الصادر عن تيودوز الثاني امبراطور الشرق . وفالنينيان الثالث امبراطور الغرب الصادر عام ٤٢٦ م الذي نظم بموجبه طريقة الاعتماد على الافتاء . فقد أعطى هذا القانون لكتابات كل من غايوس وبابنيان وبولس واولبيان ومودستان وهم جميعاً من العرب السوريين قوة القانون . وقد نظم الاستدلال بأرائهم على الشكل التالي: اذا أجمع هؤلاء الفقهاء على رأي في مسألة معينة كان رأيهم ملزماً للقاضي . فان لم يجمعوا الزم القاضي بأخذ رأي الأكثرية وفي حال التساوي على القاضي الاخذ بالرأي الذي فيه الفقهاء بابنيان . فان لم يكن لبابنيان رأي كان للقاضي حرية اختيار ما يناسبه .

اثر العرب في الفتاوي :

وقد ذكرنا بعض هذه الآثار في البحث السابق ونضيف أن أهم كتب الفتاوي انما صدرت عن الفقهاء الخمسة (فقهاء العصر العلمي) المذكورين وهم عرب سوريين . وسنرى ان مدونة جوستنن ان هي الا نتف من فتاوي الفقهاء كانت في معظمها لمفتين عرب سوريين .

اثر العرب في المدارس الحقوقية :

المدارس الحقوقية التي كانت معروفة في ذاك

١ - كتاب القواعد للفقيه أولبيان وقد وصل إلينا بصورة مختصرة كما جاء وصفه له على لسان أحد كتّاب القرن الرابع الميلادي ووصل إلينا أيضاً عن طريق مخطوط دوّن في نهاية القرن العاشر الميلادي .

٢ - كتاب النظم للفقيه كايوس السوري وقد وصل إلينا كاملاً مما يعد أصدق وأبرز مصدر علمي عن الحقوق الرومانية وقد عثر عليه باحدى كنائس فيرونا بايطاليا عام ١٨١٦ م . وقد تبين ان الكتاب قد قشط وأزيل عن ورقاته وكتب فوق الاوراق كتاب آخر يتضمن نصوصاً دينية . الا أنه تم اعادة النص الاساسي بعد معالجته بطرق كيميائية خاصة ، الا أن هناك بعض الصفحات الناقصة التي عوضت بما عثر من أوراق بردي بمصر تتضمن الصفحات الناقصة .

ويعتبر هذا الكتاب أقدم كتاب عن الحقوق الرومانية وصل إلينا والتي كسفت بنورها شمس جميع ما تقدمها ولعل ذلك سر فقدان آثار من تخدمه من الفقهاء .

وقد جاء ترتيب هذا الكتاب كما ترتب كتب الفقه والقانون عندنا حالياً فيبدأ بالقواعد المتعلقة بالاشخاص ثم الأشياء فالاموال والدعاوي وقد أخذ عنه جوستنيان الترتيب ومعظم الاحكام في الكتاب الذي صدر عام ٥٢٩ بنفس الاسم ضمن مدونة جوستنيان .

٣ - كتاب الاحكام « سانتانس » للفقيه بول دام يصل بصورته الاصلية بل بصورة مختصرة له عن طريق المجموعة القانونية التي وضعها الملك الاريك الثاني ملك القوط الغربي عام ٥٠٦ م .

العهد هي ست مدارس : روما والقسطنطينية وأثينا والقيصرية وبيروت والاسكندرية . ونرى ان المدارس الثلاث الاخيرات مدارس شرقية علماً بأن أهم هذه المدارس وأكثرها أثراً على الحقوق الرومانية هي مدرسة بيروت وسنتحدث عنها فيها بعد .

المحكم وقرارات القضاء :

ليس من السهل تتبع أثر العرب في هذا المصدر من مصادر الحقوق لتشعب الموضوع وكثرته وضياح الوثائق والمؤيدات التي تظهر هذا الأثر الا أن ما قلناه عن أثر الشرق في العرف والعادة في الحقوق الرومانية ينطبق هنا أيضاً .

وثمة تأثير آخر مهم لا بد من ذكره الا وهو أثر المؤلفات الحقوقية في الحقوق الرومانية ولدينا قائمة بمؤلفات كثيرة لحقوقيين عرب ورومان . الا اننا لا نعرف ولم يصلنا الا مؤلفات محدودة هي بكليتها لفقهاء الدور العلمي المذكورين . وقد ذكر ان غايوس قد ألف كتاب النظم الذي وصلنا كاملاً وان بابنيان ألف : (١٩) مؤلفاً في المناقشات القانونية و (٣٧) مؤلفاً في المسائل القانونية وله كتاب « الاسئلة » وكتاب « الاجوبه » وله أيضاً كتاب « الفتاوي » .

أما أولبيان فاهم كتبه كتابه المشهور « كتاب القواعد » وكتاب « الاستشهادات » . وبولص ألف الكثير من المؤلفات الفقهية وخصوصاً تعليقاته على كتاب بابنيان وله كتاب « التقريرات المأثورة » .

ومودستان له مؤلفات في الحقوق كتبها باللغة اليونانية .

وان أهم الكتب التي وصلتنا هي كما يلي :

المدني والتي أخذ عنها نابليون وبالتالي القوانين المدنية الحالية لكثير من الدول الاجنبية والعربية .
فقد صدرت استنادا لاقوال ٣٨ فقيها وذلك على شكل فقرات (مواد) فكان مجموع فقرات المواد ٩١٢٤ فقرة وقد ذكر فيها أسماء للفقهاء بعدد (٣٦٦٥) مره . فكان حصة فقهاء العصر العلمي الخمسة العرب السوريين على الشكل التالي :

- ١ - غايوس أخذ منه ٥٣٦ فقرة وذكر فيها ٤ مرات .
- ٢ - بابنيان أخذ منه ٥٩٦ فقرة وذكر فيها ١٥٣ مرة .
- ٣ - أولبيان أخذ منه ٢٤٦١ فقرة وذكر فيها ٢٠ مرة .
- ٤ - بولس أخذ منه ٢٠٨٧ فقرة وذكر فيها ٤٥ مرة .
- ٥ - مودستين أخذ منه ٣٤٥ فقرة وذكر فيها ٢ مرة .

المجموع ٦٠٢٥ ٢٢٤ مرة .
من أصل ٩١٢٤ ٣٦٦٥ .

يضاف الى ذلك ما أخذ عن تلاميذ هؤلاء الفقهاء أو عمن اشتهر من مدرسة بيروت العربية .
ويبلغ عدد الفقرات التي أخذت منهم ١٣٢٩ فقرة فيكون المجموع (٧٣٥٤) فقرة .
وأهم الفقهاء المذكورين :

- ١ - سكتيوس بمبونيوس وأخذ منه ٥٥٨ قطعة .
- ٢ - كنتوس سرفيديوس شيفولا وأخذ منه ٣٠٧ قطعة .
- ٣ - كالمسترات وأخذ منه (١٠) قطعة .

٤ - الكتاب السوري الروماني : وهو من أكثر الكتب اثارة للجدل ٠٠٠ كما سنرى وقد صدر هذا الكتاب باللغة اليونانية ثم ترجم في القرن الخامس الميلادي الى السريانية ثم ترجم الى العربية في القرن الثامن الهجري وكان يتضمن بعض القواعد القانونية التي كانت مطبقة في سوريا في العهد الروماني ، اضافة الى القوانين الرومانية .

الاثار العربي والسوري في متن مدونة جوستنيان :
قلنا أن مدونة جوستنيان تشتمل على ثلاث مجموعات الاولى : مجموعة القوانين والداستير الامبراطورية وهي تشبه الجريدة الرسمية عندنا حاليا . والثانية الموسوعة وتشتمل القانون القديم وتتمثل في كتابات الفقهاء وهي التي تسمى القانون المدني . وأخيرا النظم وهو مختصر القانون المدني وهو بالاساس كتاب مدرسي لطلاب الحقوق .

٦ - فالاثار العربي في مجموعة القوانين والداستير بالطبع محدود وقد ذكرنا أن العرب شاركوا في القوانين والداستير الرومانية سوا من ناحية اصدارها بصفتهم قد حكموا روما كأباطرة (أسرة سببتم سيفر) وفيليب العربي « لمدة أكثر من خمسين سنة . أو من ناحية أخرى في مشاركة العرب بالحكم كرؤساء دواوين (وزارات) وكحكام بريطوريين أو كاعضاء في مجالس الاحكام وذكرنا عددا من الدساتير التي تخص العرب .

ب - أما اثر العرب في الموسوعة التي تحتوي على القانون القديم المتمثل في كتابات الفقهاء والتي أصبحت فيما بعد تعرف باسم القانون

ونظراً لوجود تضارب في ضمنها شكلت لجنة برئاسة وزير العدل تريبونيان والاستاذ دورنية استاذ معهد بيروت وثلاثة من المحامين .

ب - في الموسوعة :

وقد جمعت بعد تشكيل لجنة صدرت بدستور في عام ٥٣٠ واللجنة مؤلفة من وزير العدل المذكور وعضوية استاذين من معهد بيروت وهما دورنيه واناتوليوس واستاذين من مدرسة القسطنطينية هما نوفير وكرانيتو واحد عشر محاميا واحد كبار موظفي الدولة الذي كان استاذاً سابقاً لمدرسة بيروت وقد اتمت اللجنة عملها في عام ٥٣٣ وأرجعته الى ٨٣ مؤلفاً فقهيها .

النظم : المختصر للقانون الروماني :

وقد قام بوضعه لجنة ثلاثية مكونة من وزير العدل والاستاذ دورنيه استاذ مدرسة بيروت والاستاذ نيوفيل استاذ القسطنطينية وصدرت في عام ٥٣٣ .

ومن الفقهاء الذين عملوا في هذه اللجان كل من « استيفانوس » و « تليليوس » و « تيودور درمبوليس » و « سيريل » .

وقد لاحظنا الاشتراك الفعلي لاساتذة مدرسة بيروت للحقوق أو طلابها اشتراكاً فعلياً في جمع وتدوين مدونة جوستنيان . وهؤلاء أما ان يكونوا عرباً سوربيين أو زائرين بيروت للدراسة فيها الا أنه لا يعرف بالضبط جنسيتهم .

وختاماً للبحث نوجز نبذة عن حياة فقهاء العصر العلمي ولحمة عن مدرسة بيروت .

فقهاء العصر العلمي العرب :

وقد وصف بلوندو الفقهاء العرب الخمسة شايوس بابنيان وأولبيان وبولس ومودستان

٤ - أريوس ميندر وأخذ منه ٦ قطع .

٥ - اليوس مرسيانوس وأخذ منه ٢٨٢ قطعة .

٦ - كالوديوس تريغونينوس وأخذ منه ٢١ قطعة .

٧ - ليسينوس روفينوس وأخذ منه ١٧ قطعة .

٨ - مبلوس ماسير وأخذ منه ٦٢ قطعة .

٩ - فلور نتينوس وأخذ منه ٤٢ قطعة .

مع ملاحظة ان الأسماء والفقرات مأخوذة من بلوندو « مدونة جوستنيان » ترجمة المرحوم عبد العزيز فهمي « الملاحق » .

ج - النظم أو المختصر وتتألف من أربعة كتب الاول مؤلف من ٢٦ باباً والثاني ٢٥ باباً والثالث ١٧ باباً والرابع ١٨ باباً وكل باب مقسم الى بنود . وقد أخذت عن مؤلفات فقهاء العصر العلمي العربي ، فكانت في معظم نصوصها منقولة عن كتاب النظم لكايوس وقد أخذت نفس خطة الكتابة من حيث التنظيم والتبويب .

ولقد ترجم هذا الكتاب الى العربية عن نص بلوندو من قبل المرحوم عبد العزيز فهمي ونشر عام ١٩٤٦ باسم مدونة جستنيان .

الأثر العربي والشرقي في تجميع المدونة وتسجيلها :

١ - في مجموعة القوانين :

صدر الامر من الامبراطور جوستنيان بتاريخ ٥٢٨/٢/٣ بتشكيل لجنة برئاسة تريبونيان (وزير العدل) وهو خريج معهد بيروت وعضوية نيوفيل استاذ مدرسة القسطنطينية ومن استاذ معهد بيروت ليوليد ستوس ، وقد صدرت في ٤/٧/٥٢٩

فقال : « ان هؤلاء الاربعة وقبلهم قد تركوا آثارا حقوقية تكاد تكون المرجع الوحيد للحقوق الرومانية . وهي التي وصلت الينا تقريبا دون غيرها » ، ويضيف واصفا حالة الفقه القانوني بعد زمانهم :

« فقد أعقبه ظلام حالك حدث فجأة وبدون أية فترة انتقال تتوسط الحالتين . فكان بابنيان وبولس واولبيان ومودستان اذ قضوا جروا معهم الى القبر سر علم الكلام ذلك العلم العجيب الذي يقول عنه الفيلسوف ليبنتز انه تكاد الدقة فيه لا تقل عن دقة المهندسين » .

وبعد انتهاء عصر هؤلاء الفقهاء اضمحل دور الفقه في القانون الروماني فكان الفقيه بعدهم يقتصر بعمله على النقل والتحشية على مؤلفاتهم فقط .

فمن هم هؤلاء الفقهاء ؟

١ - غايوس :

وهو أقدم الفقهاء الخمسة وقد جاء ذكره في دستور فالنتينيان (قانون الاساتيد) الذي أشرنا اليه . وقد لمع نجم غايوس في فترة حكم الامبراطور مارك أوريل (١٦١ - ١٨٠) م . ومعلوماتنا عن حياته قليلة جدا . وقيل ان أصله يعود للشمال السوري ولكن لا يمكن تحديد أصله بشكل دقيق جدا .

وتعرف مؤلفاته بشكل جيد فله مدونته الخاصة التي تسمى (المختصر) وقد كانت رائجة لدى كافة طلاب الحقوق حتى وصلت الى جستنيان فكانت أساسا للجزء المسمى (النظم) وقد أمر جستنيان باعتبار هذا الجزء كتابا رسميا لتعليم الحقوق والفقه للشبان .

وذكرنا كيف وصلنا كتاب غايوس هذا في الكتاب الذي قشط منه تأليف غايوس ودون بدلا عنه أدعية كنسية ولكن أمكن إعادة النص الاصلي بالطرق الكيميائية .

٢ - أميل بابنيان او اميليوس بابنيانس :

ولد أميل بابنيانس في مدينة حمص عام ٤٢٢م وقتل عام ٢١٢ م وقد درس الحقوق في بيروت ثم أصبح استاذا في معهد بيروت للحقوق . ويعتبر بابنيان أشهر الفقهاء في العالم وفي كل العصور . وقد استدعي الى روما عام ١٩٨ م من قريبتيه « جوليادومنه » ، زوجة الامبراطور الحمصية

« سبتيم سيفر » فكان حاكما قضائيا ثم رئيس مجلس الاحكام ورئيسا للديوان (للوزراء) ثم قائدا للحرس الامبراطوري ونائبا للامبراطور اثناء غيابه وكانت له رسالته في الدفاع عن الحق وعن العبيد لانهم أحرار برأيه بالفطرة واشتهر بالدفاع عن النساء لان لهن من الحقوق برأيه ما للرجال .

وقد قتل بابنيان بأمر من الامبراطور كركلا (ابن سبتيم سيفر الذي قتل شقيقه الامبراطور غيتا عام ٢١٢ م) بغأس لان بابنيان رفض كتابة دفاع وتبرير لكركلا تبيح للاخير قتل أخيه دفاعا عن النفس وكان جوابه المشهور الذي سبب قتله « ان ارتكاب جريمة قتل الوالدين ايسر من تبريرها » ويعني تبرير قتل كركلا لأخيه وقال : « ان تبرير قتل النفس ليس اسهل من اقرار القتل » .

وقد وصف كركلا بانه (قاتل أخيه وبابنيان) لشهرة « بابنيان » وعقب مقتل غيتا قام كركلا بقتل كل من له علاقة بأخيه فقتل ما يزيد عن عشرين ألفا من ذكور وأناث وقال المؤرخ جيبون

الينا هذه التقارير . وهو من المؤلفين الخمسة الذين ورد ذكرهم في قانون الاساتيد المذكور .

٤ - نوميوس اوليان :

وهو من ابناء صور في الساحل السوري وكان استاذا في معهد بيروت للحقوق واستدعاه بابنيان ليكون مساعدا له في روما واستلم منصب عضو في مجلس الاحكام ثم رئيسا له وبعد مقتل بابنيان استلم حاكما قضائيا ورئيسا للديوان (رئيس وزارة) وقد جرده الامبراطور السوري «اكابالس» خليفة «كر كلا» من مهامه لكن الامبراطور اسكندر سيفروس أعاده مستشارا .

وقد أدخل اصلاحات كثيرة على القضاء ولكنها أثارت عليه نقمة بعض الجهات وكذلك قام باصلاحات في الجيش مما أثار عليه الجنود فدخلوا القصر الامبراطوري ليلا وقتلوه أمام الامبراطور اسكندر سيفروس ووالدته رغم حماية الامبراطور له .

ويؤخذ عليه اضطهاده للمسيحيين في عهده وأتهم بقتل فلافيانوس وكرستوس رئيس مجلس الاحكام .

وهو أكثر فقيه أخذ منه في كتاب الديجست (المختار أو الموجز) من مدونة جستنيان إذ أخذ منه ٢٤٦١ قطعة وذكر فيها ٢٠ مرة .

وقد كرمه الرومان بان اطلقوا اسمه على بازيليك وقصر عدل روما التي بنيت في عهد تراجان وبناها ابولودر الدمشقي . كذلك كرمه الايطاليون بان وضعوا تمثاله على مدخل قصر العدل الحالي في روما جانب تمثال بابنيان .

في هذا الخصوص «ذرف الاصدقاء والاسرات الدموع خفية على اعدام هؤلاء المواطنين ولكن اعدام بابنيان كان محزنا بوصفه كارثة عامة» .

وقد ألف بابنيان « ١٩ » مؤلفا في المناقشات القانونية و « ٣٧ » مؤلفا في المسائل القانونية . واه كتابان مشهوران جدا هما « الأسئلة » و « الأجوبة » وقد كان كتابه « الأجوبة » مقرا في برامج السنة الثالثة في مدارس الحقوق الرومانية . كذلك له كتاب آخر لا يقل شهرة عن سابقه وهو كتاب « الفتاوى » .

ويقول بلوندو عنه « ان التراث العظيم الذي تركه لم يتركه أي روماني فقيه آخر » . وقد أدخل لا أقل من ٥٩٦ فقرة من كتاباته في موجز جستنيان وذكر فيه ١٥٣ مرة . وقد لقبه الرومان بأمير الفقهاء وأكراما له أقيم تمثال في مدخل قصر العدل الحالي بروما .

٣ - يوليوس بولس :

محام وفقيه عربي سوري من الساحل السوري وكان أستاذا في مدرسة بيروت للحقوق وزميلا وصديقا لبابنيان وقد استدعاه الاخير الى روما في عهد الامبراطور سبتيم سيفر وكان عضوا في مجلس الاحكام (من العدول أي الاعضاء) في عهد رئاسة بابنيان للمجلس وقد استلم عدة مناصب في روما . ووصل الى منصب رئاسة مجلس الاحكام .

ترك كثيرا من المؤلفات وخصوصا تعليقاته وشروحه على مؤلفات بابنيان . وقد رأينا انه صدر دستور بعدم الاعتداد بحواشيه المدونة على كتاب بابنيان ، كذلك ألف كثيرا من كتب التقارير والقواعد باسم « التقارير الماثورة » وقد وصلت

٥ - هيرنيوس مودستينوس : او «مودسان»:

وهو من اصدقاء وطلاب اولبيان ومن مدينة صور على الساحل السوري وقد درس الحقوق في بيروت واصبح استاذاً فيها واستدعاه اولبيان الى روما ليقوم بمساعدته في اعبائه هناك وذلك في عهد الامبراطور اسكندر سيفيروس .

له عدة مؤلفات كتب بعضها في اليونانية وقد ذكر في المدونة مرتين ومن آثاره أخذت ٣٤٥ قطعة .

معهد بيروت للحقوق :

برزت مدرسة بيروت للحقوق كأشهر مدرسة للحقوق الرومانية وأطول المدارس عمراً رغم أنها لم تكن الوحيدة كما رأينا ويبدو أن سبتموس سيفيروس الامبراطور الروماني من أصل سوري (١٩٣ - ٢١١ م) بدليل انهم قد خلّدوا ذكره في بيروت بمعبد انثوي له ووضع داخل المعبد تمثال للامبراطور . وقد شجع المدرسة خلفاء سبتموس السوريين . وكانت اتجاهات المدرسة تصطبغ بالصبغة اليونانية أكثر منها رومانية عكس مدينة بيروت التي كانت رومانية أكثر منها يونانية .

لقد اجتذبت مدرسة بيروت الطلاب سواء العرب أو الاجانب وذلك من مختلف مناطق الامبراطورية . ومن خريجي المدرسة كثير من الابطارة ورؤساء الحرس الامبراطوري والحكام القضائيين ورؤساء الديوان (الوزارة) وكثير من الوزراء والعظام .

وكان لاساتذة المدرسة شهرة فائقة وتأثير وتأثير كبير في مؤلفاتهم على الحقوق الرومانية

كما رأينا وهذا السبب هو الذي جعل من مدرسة بيروت للحقوق اكااديمية جامعية ذات شهرة عالمية . وقد أطلق عليها الامبراطور جستنيان جامع المدونة (الأم المهرضة للحقوق الرومانية) . كانت الدراسة في المدرسة لمدة أربع سنوات زادها الامبراطور جستنيان الى خمس سنوات لدراسة المزيد من الدساتير الرومانية .

وكان طلاب المدرسة معفيين من الخدمة العسكرية على ما يبدو من نص دستور صدر استنادا لطلب فتوى رسمي صادر عن أحد طلبة مدرسة بيروت للحقوق . وكان الجواب ان الطلاب معفون من الخدمة العسكرية أو أي خدمة عامة الزامية قبل تخرجهم أو بلوغهم سن الـ ٢٥ .

ولدينا نصوص كثيرة حول حياة الطلاب في هذه المدرسة . وقد كانت الدروس في النهار ، عدا ساعات الليل المخصصة لدراسة الطلاب وكانت المدرسة تعطل بعد ظهر يوم السبت وطوال يوم الاحد من كل اسبوع .

ويبدو أن الطلاب كانوا يشكلون جمعيات في المدرسة . كما وان هناك الكثير من الحوادث الطريفة التي وقعت في المدرسة والتي ذكرتها النصوص التاريخية وكثيرين من طلاب المدرسة كانت لهم شهرتهم وقد ورد ذكر بعضهم في هذا البحث ، وذلك على مختلف مراحل تاريخ المدرسة . وقد قضى زلزال حدث في ٥٥١/٦/٦ م على المدرسة وهدمها فوق طلابها وأساتذتها كما هدم مدينة بيروت وكانت ضحية الزلزال ثلاثين ألف شخص من سكان بيروت ومنهم عدد كبير من الطلاب الاجانب ابناء الاسر النبيلة .

ومما يذكر عن عظمة تأثير الشرق والعرب على الرومان ان قال جوفيات الروماني في نقد ساخر « ان العاصي - السوري - أخذ يصب في التيبر - الروماني » .

وبالختام فقد لاحظنا تأثير حضارتنا العربية على المصادر التي أخذت منها الحقوق الرومانية وكيف كان لنا دور كبير في تطوير وتوسيع الحقوق الرومانية في مختلف مراحلها ومختلف مصادرها كذلك رأينا مدى إسهامنا في متن الحقوق الرومانية التي وصلتنا وأخيرا رأينا دور العرب والسوريين خاصة في تجميع هذه الحقوق حتى صدرت أخيرا مدونة جستنيان .

والآن . ليس من حقنا ان نقول ان الحقوق الرومانية التي جاءت في مدونة جستنيان هي من تأثيرنا ووضعنا ؟

وبالتالي فان قانوننا السوري أو المصري أو العراقي وكل من أخذ عن القانون الفرنسي انما جاء من صنعنا وما هي الا دورة التشريع قد اعادته اينما ؟

فالقانون المصري الذي هو أساس القوانين العربية انما وضع ربعه من الشريعة الاسلامية الغراء وثلاثة أرباعه من مدونة جستنيان التي كان لنا الأثر الأكبر في صنعها كما رأينا اذ كانت الفقرات التي من وضع عربي أو من وضع طلاب عرب أو طلاب اساتذة عرب قد بلغت ٧٣٥٤ فقرة من أصل ٩١٢٤ .

الا أن تهدم المدرسة لم يوقف نشاط المدرسة فنقلت الدراسة الى مدينة صيدا ريثما يتم بناء الجامعة من جديد ولكن حدثت كارثة قبيل تدشين أبنية الجامعة الجديدة في عام ٥٦٠ م اذ التهمت النيران البناء بأكمله . وبعد هذا لم نعد نسمع أي خبر عن مدرسة أو معهد بيروت للحقوق .

بعد هذا الاستعراض للأثر الشرقي والعربي على الحقوق الرومانية نجد من يثير قضية مخالفة تمامها هي أثر الحقوق الرومانية على الشريعة الاسلامية مدعيا بأن الشريعة الاسلامية قد أخذت عن الحقوق الرومانية .

وقد أشيع هذا الموضوع بحثا اعتبارا من القرن التاسع عشر وبالتحديد بعد اكتشاف الكتاب السوري الروماني عام ١٨٦٢ على يد الاستاذ لاند . وقد ايد أولا المستشرقون نظرية أخذ الشريعة الاسلامية كثيرا من أحكامها عن الحقوق الرومانية ولكن تراجع الكثير من المستشرقين عن هذا الرأي نتيجة تدقيق الابحاث ودراسة نظريات المشرعين العرب والفقهاء وأصحاب الاجتهاد ومفارنتها بالقالون الروماني وكذلك سائر الفقهاء وأصحاب المذاهب الاسلامية بما فيهم الا وزاعي الذي سكن قرب بيروت وكذلك انقضاء اثر مدرسة بيروت لاحقوق قبل ظهور الاسلام .

وبالعكس فقد اتجهت الانظار الى الأثر الشرقي والعربي على الحقوق الرومانية وكان من أهم الباحثين في هذا الموضوع كولينه .



القنقاع بن عمرو

تمهيداً للميداني

الصحابي الجليل ، الحريص على دينه ، الشديد في الدفاع عنه ، المجاهد لاعلاء رأيته .

أخرج ابن حجر المصنوع في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة (ج ٣ ص ٢٣٠) . مايفيد صحبة القنقاع للرسول ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القنقاع ذات يوم : ماذا أعددت للجهاد يا قنقاع ، فاجابه : طاعة الله ورسوله والخيل ، فاستحسن الرسول الكريم هذا الجواب وقال له : تلك الغاية .

على اننا لاننسى بان الغموض قد اكتنف ولادة هذا الفارس ، ونشأته الأولى ، وتضاربت الآراء حول حضوره لوفاة الرسول الكريم ، فقد قيل بان القنقاع شهد وفاة الرسول وانه انطلق ليخبر المهاجرين بأمر تجمع الانصار في سقيفة بني ساعدة لمبايعة زعيمهم سعد ابن عبادة كخليفة للمسلمين .

وقد انتهى هذا الخلاف الذي كاد ان يعصف بأركان الدولة الاسلامية في اولى عهودها ، باختيار أبي بكر الصديق ، خليفة للمسلمين ، بعد أن رضيت له الانصار والمهاجرين .

وكان عهد الخليفة الاول ، العهد الذي برز فيه القنقاع ، وتوضح دوره ، ولفت انظار المؤرخين اليه .

فالول مابدأ دور القنقاع يتوضح في تاريخ حروبنا ومعاركنا ، بدأ حين وجهه الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، الجيوش لمحاربة أولئك

حين تغلب صفحات التاريخ ، نبحث عن أولئك الذين ساهموا بصنع مجدنا وحضارتنا ، وعملوا على نشر تعاليم الدين الحنيف ، بطالنا وجه فارس عربي ، بلامح صارمة ، ونظرات ناقبة ، نقرأ عن شجاعته النادرة ، وبطولته الفائقة ، ونعجب كيف أهمل المؤرخون الحديث عنه حتى بدأت الجيوش الاسلامية الفاتحة تنطلق شرقا وغربا ، لتوقد مصابيح الهداية في تلك الأرجاء ، وتحرر اراضيها مما كانت تعانيه من جهل وضلالة وكفر . .



عندها فقط التفت اليه المؤرخون وبدأوا يولوه اهتمامهم ، ويتحدثون عن شجاعته وبطولته ، ويسردون تفاصيل المعارك التي اشترك بها ، والفتوحات التي ساهم فيها ، فحفظت لنا كتبهم بعضا من تفاصيل حياته ، ولكن ليس بالقدر الذي يرضي فينا حب المعرفة والاستطلاع .

فارسنا هو القنقاع بن عمرو ، من قبيلة تميم ، تلك القبيلة التي قدمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام التاسع للهجرة بعد فتح مكة ، لتعلن اسلامها ، ويقال بان القنقاع كان ضمن وفد قبيلة تميم تلك التي اتت الرسول الكريم ، وبذلك نرى بان القنقاع تربى في الحضرة النبوية الشريفة ، وصاحب الرسول وتعلم من دروسه العظيمة ، وكان



وبعد أن توطدت أركان الدولة الإسلامية بالقضاء على المرتدين ، فكر الخليفة الأول بتوجيه الجيوش لفتح العراق ، وكان أن عقد لسياف الله خالد بن الوليد (رضي الله عنه) - والذي ابلى بلاء حسنا في حروب الردة - لواء فتح العراق .

وكتب له يكلفه بهذه المهمة على أن تكون مدينة الأبله - ثغر الفرس على الخليج - وجهته الأولى ، وحدد مدينة الحيرة هدفا له .

على أن أبا بكر أجاز لمن شاء من جيش خالد بالرجوع الى بلده ، وطلب منه أن لا يصحب معه الى العراق كاره للقتال . وفوجيء خالد حين قرأ رسالة الخليفة على خنذه ، بالكثير منهم يعودون غير راغبين معه لفتح العراق . فكتب الى الخليفة يعلمه بما جرى طالبا منه أن يمدّه بجنود بدل الذين انقضوا عنه .

فأرسل أبو بكر الى خالد بالقمعاق بن عمرو ١٩ وحين سأله أصحابه مستغربين : أتمد رجلا قد أرفض عنه جنوده برجل ا قال أبو بكر : لا يهزم جيش فيه مثل هذا !!! (٢) .

انها شهادة كبيرة من الخليفة ، وثناء عظيم للقمعاق ، وإيجاز بليغ يصف هذا الفارس المقدام .

لقد اشتهر عن أبي بكر ، معرفته بأناساب كل قبيلة ، ومنخر أبطالها ومثالب أفرادها . ولا بد من أنه عرف للقمعاق في حياة الجاهلية شجاعته ، وبطولته ، وكان هو أول من كلفه بمهمة بعد ان شرح الله قلب القمعاق للإسلام ، فكان توجهه لقتال « علقمة بن علاشة » وهاهو يمد خالدا به هذه المرة ، وهو على يقين بأن خالدا سيجد فيه السند والمعونة ، وسيكون الجندي الشجاع في جيشه ، والمجاهد الذي لن يهزم جيش انضم الى صفوفه .

الذين ارتدوا عن دين الاسلام ، وفرطوا بتعاليمه وأركانها ، واتبعوا قادة مشركين ، ادعوا النبوة وجأهروا بها .

لقد حرص أبو بكر على تثبيت أركان الدولة الإسلامية الفتية ، ولم يكن ليتم له ذلك الا بالقضاء على المرتدين والعودة بهم الى دين الاسلام ، لذلك وجه أبو بكر الجيوش لمحاربتهم ، وبعث بالقمعاق على رأس سرية من المسلمين لتأديب « علقمة بن علاشة » الذي خرج في بني كلاب مرتدا .

وكان علقمة قد أسلم ثم ارتد في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم خرج بعد فتح الطائف حتى لحق بالشام فلما توفي النبي ، اقبل علقمة مسرعا حتى عسكر في بني كعب . مقدما رجلا ومؤخرا أخرى ، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة للهجرة النبوية الشريفة .

وعلم بذلك أبو بكر فبعث له بالقمعاق ، وقال له : يا قمعاق ، سر حتى تغير على علقمة بن علاشة ، لملك أن تأخذه لي أو تقتله ، وأعلم ان شفاء الشق الحوص (١) ، فاصنع ما عندك (٢) .

فأغار القمعاق على الماء الذي عليه علقمة ، فاستبى امرأته وبناته ونساءه ، وقدم بهم وبعلقمة أسيرا على الخليفة ، ولكن ولد علقمة وزوجه انكروا أنهم جاروا علقمة في ارتداده ! وكان أن عاد علقمة بعد ذلك عن رده وأسلم فقبل منه الخليفة اسلامه .

كانت مهمة بسيطة تلك التي اضطلع بها القمعاق في حروب الردة ، ولكنها كانت كافية لتدلنا على مبلغ ثقة الخليفة الأول بالقمعاق ، واعتماده عليه ، في تلك الظروف العصيبة التي عانت منها الدولة الإسلامية في اولى عهودها .

للهجوم ، فاندفعوا نحو الفرس بقوة وشجاعة وسرعان ما التحم الجيشان وتكن خالد في هذه المعركة من قتل قائد الفرس « هرمز » . لتنتهي المعركة أخيرا بانتصار المسلمين وهزيمة الفرس ، وبدأ ابن رقتها نجم القمعاق يتأذى في ساء المعارك ، والفتوح الاسلامية . مسجلا أروع المفاخر ، وأكبر الانتصارات .

وبعد هذا الانتصار المظفر ، انطلق خالد بجيش المسلمين نحو مدينة (المذار) ، على نهر دجلة ، ليلتقي بجيش فارس آخر كان ملك الفرس « أردشير » ، قد جهزه ووضع على رأسه القائد « قارن » ، لمساندة جيش هرمز ، إلا أن هزيمة جيش هرمز ، جعلت « قارن » يحط الرحال في المذار ، بانتظار جيش المسلمين .

والتقى الجيشان ، وكان النصر حليف المسلمين ، وقد أشد القمعاق بعد هذا الانتصار ، وكان بين صفوف المجاهدين :

فنحن وطننا بالكواظم (هرمزا)

وبالشي قرني (قارن) بالجوارف⁽¹⁾

وتتابعت انتصارات جيش المسلمين - وبين صفوفه فارسنا القمعاق - في أرض العراق ، وألحق بالفرس الهزيمة في معركة الولجة ، ومعركة أليس وقد انضم للفرس في هذه المعركة عرب النصارى الذين كانوا لا يزالون على ولائهم للفرس - ، ثم انفسوا إلى أبناء جلدتهم من العرب .

وقد استخلف خالد القمعاق على مدينة الحيرة ، وانطلق للقضاء على مقاومة الفرس في بقية أرض العراق .

كانت أولى معارك المسلمين في أرض العراق . معركة « ذات السلاسل » - نسبة للسلاسل التي ربط الفرس جنودهم بها قبل بدء المعركة - . والتي جرت بين المسلمين والفرس في شهر محرم من السنة الثانية عشرة للهجرة .

كان يقود جيش الفرس في هذه المعركة القائد الفارسي « هرمز » ، الذي عرف عنه الخبث والخديعة وكانت منطقة (الكافمية) على الخليج هي ساحة القتال بين الجيشين .

وقد اضمر هرمز لخالد الخديعة ، فوعز لبعض جنده بأن يترصبوا بخالد وما أن يروه مشغولاً بالقتال معه ، حتى يسرعوا فيقتلوه غدرا ، فافت ذلك في عضد جيش المسلمين ويبدد شملهم .

وخرج « هرمز » من بين صفوف الفرس ونادى لخالد ليخرج لمبارزته ، فخرج خالد ، وتقاتلا وهما راجلان ، ثم رميا السيوف وتصارعا ، وحانت الفرصة التي ينتظرها جند هرمز للغدر بخالد . فأسرعوا اليه ليقتلوه ... ولكن صفوف المسلمين انشقت عن فارس مقدام يسرع والسيوف بيده يلحق بخالد ، وقد رأى جند الفرس يخفون للغدر به وهو مشغول عنهم بصراعه مع « هرمز » .

كان هذا الفارس المقدام القمعاق ، الذي لم يجد وقتا لتنبيه أصحابه لغدر الفرس ، فأسرع بنفسه لينقذ خالدا ، ووصل اليه قبل أن يتمكن منه جنود « هرمز » . فأثبت القمعاق وهو لا يزال في أول معاركه ، قوة ملاحظته وسرعة بديته وحسن تقديره ، فكان أن خف لا تقاذقائه والدفاع عنه ورد كيد الفرس . ورأى المسلمون صنيع القمعاق ، فعرفوا بأن الوقت قد حان

والزميل ، وحارب مع خالد حامية الروم على تخوم
الامبراطورية الفارسية . وانتقل بعدها مع جيش خالد
من العراق الى الشام وبناء على أوامر الخليفة الأول
في تلك المسيرة المحفوفة بالمخاطر التي تجشمها خالد
وجنده في سبيل اللحاق باخوانهم في الشام ، الذين
بدأوا بمناوئة قوات الروم .

وكان أن نجح خالد وجيشه بالوصول الى أرض
الشام ، متجنبين الاصطدام بحاميات الروم في طريقهم ،
مختصرين مسافات طويلة .

وبدأ خالد وجيشه - وفيه القعقاع - معاركهم
الأولى في أرض الشام ، بالاغارة على قرية «سوى» ، ثم
مدينة « أرك » وتم لهم الانتصار على الحاميات الفارسية
فيها ، وتمت المصالحة بينه وبين أهل تدمر على دفع
الجزية ، وأغار بعدها على « القريتين » ، الى أن وصل
الى مدينة البصرى ، ليشترك مع جيش « شرحبيل بن
حسنه » ، في فتح هذه المدينة الهامة من مدن الشام .

أما أولى أهم المعارك بين المسلمين والروم في
أرض الشام ، فكانت معركة « أجنادين » ، التي جرت
في شهر جمادى الأول من السنة الثالثة عشرة للهجرة .
وفيها انتصر المسلمون على الروم وشردوا جموعهم ،
وقتلوا قائدهم جيشهم (وردان) ، ومعاونه (القبقلاز) .

وكانت هذه المعركة آخر المعارك التي جرت في
حياة الخليفة الأول أبو بكر الصديق الذي توفي
ودفن بجانب صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وتسلم الخلافة بعده عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ،
بناء على عهد كتبه أبو بكر للمسلمين باستخلاف عمر .

وفي خلافة عمر ، جرت المعركة الكبرى بين
المسلمين ، معركة اليرموك .

وهنا يلعب القعقاع دورا جديدا في تاريخ
الدولة الاسلامية ، فهو أمير على مدينة الحيرة ،
يحكمها ويدير شؤونها طبقا للشروط التي استسلم
عليها أهلها للمسلمين .

ولو لم يكن للقعقاع الامكانيات والصفات التي
تؤهله لحكم هذه المدينة الكبيرة من مدن العراق ،
فما كان خالد ليستخلفه عليها ، وقد أثبتت الحوادث
التي جرت فيما بعد صواب رأي خالد في استخلافه
للقعقاع على الحيرة .

على أن كتب التاريخ أغفلت هذه المرة أيضا
الحديث عن القعقاع في خلال وجوده في الحيرة ، ولعل
قصر الفترة التي بقي فيها هناك والتحاقه بجيش خالد
في فتوحاته المتتابعة بعد ذلك ما يبرر هذا الإغفال .

ووصلت للقعقاع وهو في الحيرة أنباء تجمع
الفرس من جديد في الحصيد والخنافس ، فكلف
« أعبد بن مذكي » ، و « عروة بن الجعد » ، بأن
ينطلقا مع جندهما ليرصدا تحركات الفرس في هاتين
المنطقتين ويقيما على تماس مباشر معهم وقال لهما :
ان رأيتما مقدما فأقدما (٥) .

وكلف خالد القعقاع بعد ذلك بمحاربة الفرس في
الحصيد ، وقد ارتجز القعقاع بعد انتصاره على الفرس
في هذه الموقعة :

ألا أبلغا أسماء أن خليلها
قضى وطرا من روزمهر الأعاجم
غداه صحبنا ، في حصيد جموعهم
بهندية تغري فراخ الجماجم (٦)

واشترك القعقاع بعد ذلك مع جيش المسلمين في
قتال الفرس وحامياتهم ، في المصيخ ، والثنى

أرض الشام ، فكانت معركة فعل ، التي انتهت
بانتصار المسلمين وهزيمة الروم .

على أن أكبر المعارك التي اشترك فيها القمعاق بن
عمرو ، كانت معركة القادسية .

كتب عمر الخطاب ، الخليفة الثاني للمسلمين ، الى
قائد جنده في الشام أبي عبيدة بن الجراح ، يأمره أن
يعيد جيش العراق الذي قدّم به خالد بن الوليد
بناء على أوامر الخليفة الأول في أولى معارك المسلمين
على أرض الشام ، أن يعيده الى العراق لينضم الى
جيش المسلمين الذي يستعد لملاقاة الفرس في القادسية .
وامتثل أبو عبيدة لأوامر الخليفة وجهز الجيش وأمره
بالعودة الى أرض العراق .

وكان تعداد الجيش العائد ستة آلاف مجاهد ،
وضع أبو عبيدة على رأس هذا الجيش « هاشم بن عتبة
ابن أبي وقاص » ، وعلى مقدمته « القمعاق بن عمرو ،
وعلى مجنبيه « قيس بن هبيرة بن يغوث المرادي » ،
« والزهري بن عمرو المعجلي »^(١) .

ولم يتمكن القمعاق من الاشتراك في معركة
القادسية في أولى أيامها ، بل وصل الى أرض المعركة
في ثاني يوم - يوم أغواث - .

فما أن أشرقت الشمس ونشرت أشعتها على أرض
المعركة في ثاني أيامها حتى استعد الجيشان - جيش
المسلمين وجيش الفرس - للقتال من جديد .

فالיום الأول انتهى وكلا الجيشين لا يزالان في
مواقعهما الاولى ، وقد تركز هجوم الفرس يومها على
جناح المسلمين الأيسر الذي تركزت فيه قبيلة (بجيلة) ،
وكان يقود هجوم الفرس قائد جناح مينة جيشهم
« هرمزان » وجنده ، يسانده « جالنوس » وجنده ،

واشترك القمعاق مع جيش المسلمين في هذه
المعركة ، وكان هو وعكرمة بن أبي جهل في مجنبي
قلب جيش المسلمين ، وأوعز اليهما خالد - قائد جيش
المسلمين - ببدء القتال بعد أن مضت خمسة أيام على
بدء المعركة والمناوشات والمبارزات مستمرة بين المسلمين
والفرس ، فأنشب القمعاق القتال وهو يرتجز :

ياليتني ألقاك في الطراد
قبل اعتزام الجحفل الوارد
وأنت في حليتك الوارد^(٢)

وكان النصر حليف المسلمين في هذه المعركة
الحاسمة ، فقد فر قائد جيش الروم (باهان) . وقتل
معظم قادتهم ، وسقط الكثير من جندهم في وادي
الرقاد ، وقتل أكثرهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار .
وساهم القمعاق بعد هذه المعركة ، في فتح مدينة
دمشق ، وقد تسور مع خالد وعدي بن حاتم الباب
الشرقي لسور مدينة دمشق ، وقضوا على حراس هذا
الباب ، ليفتحوه لجند المسلمين الذين كانوا قد
رابضوا أمامه .

وأشد القمعاق بعد فتح مدينة دمشق :
أقمنا على داري سليمان أشهرا
بخالد وماقد حموا بالصوامر

فضنضنها بها الباب العراقي عنوة
فدان لنا مستسلما كل قائم

أقول وقد دارت رحانا بدارهم
أقيموا لهم جز الذرى بالفلاصم

فلما زدنا في دمشق نحورهم
وتدمر عضوا منها بالأباهم^(٣)

أما آخر المعارك التي اشترك فيها القمعاق في

وقد أفرغ - في ذلك اليوم - منظر الفيلة التي استخدمها الفرس في هذه المعركة ، خيل المسلمين ، فكافت نفر من أرض المعركة ، ولا يملك الفارس المسلم عانها ، إلا أن «عاصم بن عمرو» (شقيق القعقاع) ، استطاع مع زملائه قطع الأربطة التي شد بها الفرس الصناديق المحتشدة برماثهم على ظهر الفيلة .

ووصلت بقية جند مقدمة جيش العراق الى أرض المعركة ، فازداد استبشار المسلمين ، وقويت عزيمتهم ، ووقف القعقاع يقول لهم : يامعشر المسلمين ، باثروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناس بها ، وابتكر القعقاع في هذا اليوم حيلة ذكية ، فقد عمد الى بعض إبل جيش المسلمين فالبسها وجللها بأقمشة مبرقة وجعل عليها بعض الفرسان ودفع بها الى أرض المعركة ، فكانت بتحركها تثير الفزع في قلوب الفرس ، وتجفل خيولهم ، وأصاب الفرس بذلك ما أصاب المسلمون في أول أيام المعركة .

ولما رأت بقية القبائل أثر حيلة القعقاع ، حذت حدوه فألبست بعض إبلها وجللتها بأقمشة مبرقة مما جعل خيل الفرس نفر من أرض المعركة ، مشيرة البلبلة والفزع بين الصفوف .

لقد حمل القعقاع في هذا اليوم من أيام المعركة ثلاثين حيلة ، كلما لحق به عشرة من أصحابه ، يحمل حملة جديدة وهو يرتجز :

أزعجهم عمدا بها ازعاجا
أطمعن طعنا صائبا ثجاجا

أرجوبه من جنة أفواجا

وفي كل حملة حملها القعقاع كان يقتل فارسا من فرسان الفرس وكان آخر من قتلهم : بزرجمهر الهمداني ، وأنشد القعقاع في ذلك :

حبوته جياشة بالنفس

هدارة مثل شعاع الشمس

وكان تعداد جند المقدمة ألف مقاتل ، قسمهم القعقاع الى عشرات ، وأمرهم أن ينطلقوا بهذا الشكل كلما بلغ عشرة منهم مدى البصر لحق بهم عشرة أخرى وهكذا ...

وصلت أولى طلائع جيش العراق والمائد من أرض الشام مع اشراقه شمس ثاني أيام المعركة ، وكان على رأس جند الطلائع القعقاع بن عمرو .

كان تعداد جند المقدمة ألف مقاتل ، قسمهم القعقاع الى عشرات ، وأمرهم أن ينطلقوا بهذا الشكل كلما بلغ عشرة منهم مدى البصر لحق بهم عشرة أخرى وهكذا ...

وكان القعقاع على رأس أول عشرة ، وما أن وصل الى أرض المعركة حتى استبشر جند المسلمين وتشجعوا ، ووقف هو فيهم ييشرهم بيزيد من المدد ويقوي من عزيمتهم ويقول لهم : يا أيها الناس ، إلي قد جئتكم في قوم ، والله أن لو كانوا بمكانكم ، ثم أحسبكم حسدوكم حظوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع .

وسرعان ما بدأ بعدها القتال ، وخرج القعقاع من بين الصفوف ونادى : من يبارز ؟ فخرج اليه ذو الحاجب ، فقال له القعقاع : من أنت ؟ فأجابه : أنا بهمن جاذوية ، فصرخ القعقاع : يالثرأت أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر ، واندفع نحو بهمن ، واشتبك معه ، وسرعان ما قتله ، ووقف لينادي من جديد : من يبارز ؟ فخرج له هذه المرة اثنان من فرسان الفرس : البيروزان والبندوان ، فأنضم الى القعقاع « الحارث ابن ظبيان » ، ليكنفه أحد الفارسين .

في يوم أغواث غليل الفرس
أنخس بالقوم أشد النخس
حتى تفيض معشري ونصي (١٠)

واستمر القتال في هذا اليوم من أيام المعركة .
حتى بعد غروب الشمس ، وكان سعد بن أبي وقاص
- قائد جيش المسلمين في القادسية - يستدل على
سير المعركة من أصوات المسلمين التي تملو مكبرة
ويصله صداها في ظلمة الليل .

وفي ثالث أيام المعركة - يوم عباس - عمد القعقاع
الى حيلة جديدة يشد بها أزر المسلمين ، ويقوي من
معنوياتهم ، ويجدد نشاطهم . فقد أوعز القعقاع لجنده
الذين قدموا معه من الشام ، لينطلقوا الى المكان
الذي أتوا منه في ثاني أيام المعركة وأمرهم أن يقضوا
ليلتهم هناك وما أن يطلع الصبح حتى يعودوا الى
أرض المعركة ، وكأنهم مدد جديد وصل من أرض
الشام ، ليسانع جند المسلمين في القادسية ...

وقال القعقاع لأصحابه : اذا طلعت الشمس ،
فأقبلوا مائه مائه ، كلما توارى عنكم مائه ، فليتبمها
مائه ، فان جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء
وجد (١١) .

وانطلق جند القعقاع تنفيذ الأوامر الى ذلك المكان
وما أن اشرقت الشمس على أرض المعركة ، حتى
لاح في الأفق فرسان المسلمين يتجهون الى أرض
المعركة ، وكانوا جند القعقاع ، فكبر المسلمون في
القادسية ، وقد حسبوا بأن بقية جيش هاشم القادم
من أرض الشام قد وصل .

وأمر عاصم بن عمرو (شقيق القعقاع) ، جنده

بمثل ما أمر القعقاع جنده ، فكان جند عاصم يفدون
الى أرض المعركة ، فيبعث مرآهم في قلوب المسلمين
القوة ، ويشد من عزيمتهم .

وما أن عاد جند القعقاع الى أرض المعركة ، حتى
وصل جيش هاشم من أرض الشام ، وعلم هاشم بما
فعله القعقاع فعمد هو أيضا الى تقسيم جنده الى
جماعات كل جماعة تضم سبعين رجلا ، وأمرهم أن
ينطلقوا الى أرض المعركة ، وما أن رأهم جند
المسلمين في القادسية ، حتى ازدادوا استبشارا وفرحا ،
وبدأوا يعدون العدة لملاقاة الفرس .

وقد قدر الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك ،
بأن صنعة القعقاع في اليومين الثاني والثالث من أيام
المعركة ، قد أسهمت في ترجيح كفة المسلمين ، وساعدتهم
على انتصارهم .

دفع الفرس بأفيالهم من جديد الى أرض المعركة
في هذا اليوم ، بعد أن صنعوا أربطة جديدة ، وربطوا
الصناديق عليها ، وملأوها بالجنود ، وأحاطوها بالفرسان
منعا لتكرار ما حدث في أول أيام المعركة . وبعث سعد
الى بعض اسرى الفرس ، الذين أسلموا وانضموا الى
جيش المسلمين ، يسألهم عن مقتل الفيلة ، وقال لهم :
هل لها مقاتل ، فقالوا له : نعم ، المشافر والعيون لا ينتفع
بعدها .

فأرسل سعد الى القعقاع وشقيقه عاصم وقال
لهما : اكفياني الابيض . يعني أن يقتلا له الفيل الابيض ،
لان معظم الفيلة تألف هذا الفيل وتسير بازائه دائما .

كما أرسل سعد الى « حمال بن مالك » و « الربيل
ابن عمرو » ، وقال لهما : اكفياني الفيل الأجرى .

فان كنت قاتلت العدو فقلت
فاني لألقي في الحروب الدواهي
فيولا أراها كاليوت مغيرة
أسل أعيانا لها ومآقيا (١٢)

واستمر القتال يومها الى بعد غروب الشمس ،
وطوال الليل ، وبات سعد قلقا ، يرهف السمع لصوت
يصله ، ليطمئنه على سير المعركة ، وكان أن وصله
صوت القمع أخيراً في النصف الثاني من الليل
وهو يشد :

نحن قتلنا معشرا وزائدا
أربعة وخسة وواحد
نحسب فوق اللبد الاسودا
حتى اذا ماتوا دعوت جاهد
الله ربي ، واحترزت عامدا (١٣)

وفي آخر أيام المعركة - يوم القادسية - خاطب
القمع اصحابه وقد قدر بأن الساعات الحاسمة في
المعركة قد أزفت ، فقال لهم يشد من أزرهم ويبعث
فيهم الهمة والنشاط :

إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فأصبروا
ساعة ، واحملوا ، فان النصر مع الصبر (١٤) .

وعزم القمع على الوصول الى رستم في معسكره ،
فجمع اليه بعض فرسانه ، وشنوا هجوما قويا باتجاه
معسكر رستم ، - قائد جيش الفرس - والسري
الذي يجلس عليه ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع
القمع وفرسانه شق طريقهم من بين صفوف الفرس ،
واقتربوا من معسكر « رستم » . ورأت بقية القبائل
ما فعله القمع وفرسانه ، فتنادوا فيما بينهم ، وحملوا
دفعة واحدة على الفرس . وما أن توسطت الشمس

وبدأت المعركة ، وانطلق القمع وشقيقه عاصم
نحو الفيل الأبيض ، وعزما على النيل من عينيه في
البده ، فأختارا رمحين لينين ، وانطلقا نحوه ، يحوط
بهما أصحابهما ، ليكفوها فرسان الفرس الذين
يدافعون عن الفيل .

وسنحت الفرصة للقمع وشقيقه عاصم ، والفيل
الأبيض متشاغل بالفرسان الذين يقتلون من حوله ،
فوضعا رمحيهما في وقت واحد في عيني الفيل ، فهاج
الفيل واتفض ، ورمى سائيه من على ظهره ، وأسرع
القمع بعدها ليلت سيفه ليقطع خرطوم الفيل ،
فوقع الفيل على جنبه وسقط الجنود الذين كانوا في
الصندوق من على ظهره ، فهجم عليهم أصحاب القمع
وقتلوه .

وكان أن ادنى كل من « الريسل بن عمرو » ،
و « جمال بن مالك » ، مهتهما ، ففقا عين الفيل
الأجرب ، وقطعا خرطومه ففر الفيل من أرض المعركة ،
وكان في أثناء فراره يصيب جند الفرس ويدوسهم
ويبعث الذعر في قوسهم ، أما الفيل الأبيض فقد بقي
مطروحا على أرض المعركة ، يناله المسلمون بسيوفهم
ورماحهم ، وهو عاجز عن الحركة لا يصر ما حوله ولا
يستطيع أن يدفع عنه أحدا .

وما أن بدأت الشمس تغرب ، حتى كانت أرض
المعركة خالية من فيلة الفرس ، وأندد القمع في
ذلك اليوم :

خصص قومي مضرحي بن يعمر
فله قومي حين هزموا المواليا
وما خام عنها يوم سارت جموعنا
لأهل قديس ينعون المواليا (١٥)

الأكاسرة في المدائن والذي كان يدعى الأبيض ، فنادى
ضرار بن الخطاب وقد رأى ذلك القصر على الضفة
الشرقية لنهر دجلة : الله أكبر ! أبيض كسرى ، هذا
ما وعد الله ورسوله (١٧) .

عبر المسلمون نهر دجلة الى الضفة الشرقية ، نحو
المدائن ، وفي أثناء هذا العبور سقط أحد فرسان
المسلمين ويدعى « غرقدة » من على ظهر فرس له شقراء
فراه القمعاق ، الذي عبر مع جند المسلمين النهر
باتجاه المدائن ، والذي يبدو أنه كان قريبا منه ، فهب
لنجدة بكل المروءة والشهامة والنجدة التي عرفت عنه ،
وأخذ بيده وسحبه حتى نجح كلاهما في عبور النهر ،
فقال الباري أحد فرسان المسلمين ، وقد رأى نجدة
القمعاق لأحد زملائه : أعجز الأخوات أن يلدن مثلك
يا قمعاق (١٨) .

ونجح المسلمون في عبور النهر ، واصطدموا بالفرس
الذين تجمعوا في الضفة الشرقية لوقف تقدم المسلمين ،
واستطاع المسلمون التغلغل على حامية الفرس ليتابعوا
طريقهم نحو قصر كسرى ، ليدخلوه بعدها وقد
استجابت الحامية المدافعة عنه لدفع الجزية .

وقد شارك القمعاق بعد فتح (المدائن) بمعركة
جلولاء ، حيث حفر الفرس حول هذه البلدة خندقا
وتحصنوا خلفه لينعوا المسلمين من الوصول اليهم ،
وسوروا الخندق بالاخشاب مدية الرؤوس وجعلوا
لهم منفذا عبر الخندق لئلا يحصروا أنفسهم خلف
سور الخندق .

وكانت تخرج من خلف الخندق كتيبة للفرس لقتال
المسلمين ، وتدخل لتخرج واحدة غيرها لمتابعة القتال ،
فهاهنا ذلك المسلمون ، ولمح القمعاق على وجوه أصحابه
الضيقة والانعاج فقال لهم : أهالتكم هذه ؟ فردوا

كبد السماء حتى تراجع جناح الفرس الأيمن الذي
يقوده القائد « هرمزان » ، تحت ضغط هجوم جند
المسلمين واندفاعهم ، كما تراجع جناح الفرس الأيسر
الذي يقوده القائد « البيرزان » والقمعاق وفرسان
المسلمين يزددون اقترابا من معسكر رستم القائم في
قلب الجيش الفارسي .

وانتهت المعركة أخيرا بمقتل قائد الفرس « رستم » ،
وهزيمة جنده ومقتل الكثيرين منهم .

وكانت هناك مهمة أخرى تنتظر القمعاق بعد
انتهاء المعركة وانتصار المسلمين ، فقد أوكل سعد الى
القمعاق مهمة مطاردة فلول جيش الفرس المهزوم ، وقد
صحب القمعاق شقيقه عاصم في هذه المهمة . وهكذا
ساهم القمعاق بالنصيب الأكبر في تلك المعركة ، ونجح
فيما ابتكره من حيل في شد عزيمة المسلمين وتشجيعهم ،
ودب الذعر والخوف في قلوب جند الفرس ، كما قضى
مع شقيقه عاصم على أكبر فيلة الفرس ، وأظفها
(الفيل الأبيض) ، وفي ذلك ما يمكن المسلمين من الثبات
في أرض المعركة والقضاء على مشاة الفرس .

حقا ، كانت معركة القادسية ذروة أمجاد القمعاق
ومفاخره وبطولته .

وشارك القمعاق بعد هذه المعركة بحصار مدينة
(بهر سير) (١٩) ، الذي انتهى بفرار الفرس منها عبر
نهر دجلة ، الى الضفة الشرقية الى (المدائن) ، ليدخلها
المسلمون ويجدوها خالية من أهلها حتى السفن التي
كانت تستخدم لعبور نهر دجلة ، استخدمها الفرس
كلها وعبروا عليها ، ولم يبقوا في (بهر سير) أي منها .
لقد أشرف المسلمون من هذه المدينة على نهر دجلة
وعلى المدائن القائمة في الضفة الشرقية فلاح لهم قصر

ويوم جلولاى الواقعة افنت
بنو فارس ، لما حوتها الكتاب (٢٠)

وكانت آخر المعارك التي اشترك بها القمعاق في
حياة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، معركة
نهاوند . ففي محاولة أخيرة لوقف زحف المسلمين في
أرض فارس ، جمع الملك الفارسي (يزديجرد) ، جيشا
فارسيا في نهاوند ، بلغ تعداده مائة وخمسين ألف
فارسي ووضع على رأسه القائد (الفيزان) وكان
خليفة المسلمين عمر ، قد عزم على قيادة جيش المسلمين
بنفسه لمحاربة الفرس في نهاوند ، إلا أن الصحابة
الكرام أقنعوه بأن يولي أحد غيره قيادة هذا الجيش ،
وان في بقاءه في المدينة منفعة أكبر للجيش المحارب
ولجموع المسلمين ، واستقر رأي الخليفة أخيرا على
تولي « النعمان بن مقرن المزني » ، قيادة الجيش .

والتقى الجيشان في نهاوند ، كان على مقدمة جيش
المسلمين ، « نعيم بن مقرن » ، وعلى جناحيه « حذيفة
ابن اليمان ، وسويد بن مقرن » ، وعلى المجردة (الخيل)
القمعاق بن عمرو ، وعلى الساقة (المؤخرة) مجاشع (٢١)
واشتبك المسلمون مع الفرس ، واستمر القتال
طوال اليومين الاولين لبدئه ، وكلا الجيشين على
موقفهما ، وفي مواقهما الاولى ، إلا انه في اليوم
الثالث ، ونتيجة لضغط المسلمين تراجع الفرس ليحتصوا
بالخنادق التي حفروها حول مدينة نهاوند ، ويختبئوا
خلفها .

وتشاور النعمان مع أصحابه حول التمكن من
الفرس بعد أن احتصوا بالخنادق ، فأشار عليه أحد
أصحابه بأن يكلف ثلة من فرسان المسلمين بمناجزة
الفرس ومناوشتهم ، ليخرجوهم من خلف خنادقهم ،
ومن ثم يتراجع أولئك الفرسان من أمامهم ، فيظن

عليه : نعم ، نحن مثكلون وهم مريحون ، والكال
يخاف المجز إلا أن يعقب ، فقال لهم القمعاق بانا فيهم
الشجاعة والهمة : إنا حاملون عليهم ومجاهدوهم وغير
كافرين ولا مقلعين حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فاحملوا
عليهم حملة رجل واحد حتى تغالطوهم ، ولا يكذب
أحد منكم (١٩) .

ونجح القمعاق في أن يجد له منفذا نحو الطريق
الذي أقامه الفرس على الخندق ، وطلب من أحد
أصحابه أن ينادي : يا معشر المسلمين ، هذا أميركم قد
دخل خندق القوم وأخذ به فاقبلوا اليه ولا ينعنكم
من بينكم وبينه من دخوله .

وشد ذلك النداء من عزم المسلمين وهم يحسبون
أن أميرهم « هاشم بن عتبة » قد نجح في اجتياز الخندق
— وكان الذي نجح في ذلك فعلا هو القمعاق وليس
هاشم — وعليهم أن يهبوا لنجدته ومساندته ، وأفلح
القمعاق في بث النشاط والهمة في جند المسلمين بنداؤه
ذاك ، وهو يعرف بأن جند هاشم لن يتركوه وقد عرفوا
بأنه قد اجتاز الخندق ولا بد أنهم سيسرعون لنجدته
ومعوته ، وكان ذلك فعلا ، تحمل المسلمون حملاتهم
الآخيرة على جند الفرس الذين بدأوا يتراجعون من
شدة ضغط المسلمين عليهم ، ووصلوا أخيرا ليجدوا
القمعاق وأصحابه قد نجحوا في السيطرة على الطريق
الذي أعده الفرس لاجتياز الخندق ، فتعاونوا سوياً
ودفعوا الفرس للمزيد من التراجع . وانتهت المعركة
باتصار المسلمين وتفرق شمل الفرس .

وأشد القمعاق بعد انتصار المسلمين على الفرس
في جلولاى :

ونحن قتلنا في جلولاى اثابرا

ومهران اذ عزت عليه المذاهب

الفرس بأن المسلمين قد نكسوا على أعقابهم ، وانهزم
لاذوا بالفرار ، فيأحق بهم الفرس ، ليفاجؤوا بمد ذلك
بالمسلمين وقد استعدوا لهم وخرجوا لقتالهم بالقرب
من معسكرهم .

وأعجب النعمان برأى صاحبه ووافق عليه ، وكان
أن وقع اختياره على فارسنا القعقاع ، لقيادة فرسان
المسلمين الذين سيكلفوا بمناجزة الفرس ومناوشتهم .
وانطلق القعقاع مع ثلة من فرسان المسلمين لتنفيذ
المهمة ، وبقي لفترة من الوقت يقا تل الفرس الذين
خرجوا له من خلف خنادقهم ، تراجع بعدها مع فرسانه
من امامهم ، وظل على تراجعه ، فحسب الفرس أن
الفرصة واتتهم ، فلحقوا بالقعقاع وأصحابه الفرسان ،
بعد أن غادروا امكانهم خلف الخنادق ، فلما منهم أنهم
تمكنوا من جند المسلمين وسرعان ما سيلحقوا بهم
الهزيمة ... وكان ان عاد القعقاع واصحابه الفرسان
الى معسكر المسلمين الذين كانوا قد استعدوا للقتال
وتجهزوا له ، وأمر النعمان جند المسلمين ألا يفادروا
مواقعهم وألا يقاتلوا حتى يأمرهم بذلك فامتلأوا
لأوامره واستتروا عن أعين الفرس . وكبر بعدها النعمان
لجند المسلمين ، مؤذنا ببدء القتال ، فاشتبك الجيشان ،
وكان القتال شديدا والمركة حامية الوطيس ، والنعمان
يحمل راية جيش المسلمين يدافع عنها لتبقى مرفوعة
خفاقة ، وغابت الشمس عن أرض المركة ، وبدأ الليل
ينشر رداءه على صفحة السماء ، وكثر عدد القتلى من
الفرس ، وملأت جثثهم ودماهم أرض المركة ، حتى
باتت الأرض لزجة ، ينزلق عليها الجند والخيول من كثرة
ما عليها من دماء ، وكان أن انزل فرس النعمان في أرض
المركة يومها ، وتسبب ذلك في مقتله ، وتناول راية
جيش المسلمين من النعمان قبل أن تقع ، « نعيم بن

مقرن » ، وأخرج النعمان بعيدا عن أرض المركة ،
وغطي بشوبه ، وكتم مقتله عن جند المسلمين لئلا يؤثر
ذلك على معنوياتهم .

وظل القتال محتدما بين المسلمين والفرس حتى
أظلمت السماء ، تمكن عندها المسلمون من اختراق
صفوف الفرس وتشتيت جموعهم ، فدب الذعر في
نفوسهم ، وعمدوا الى الفرار من أرض المركة ، فلحق
بهم المسلمون وتمكنوا من قتل الكثيرين منهم قبل أن
يلوذ البقية بالفرار .

وكان ممن نجا وفر من أرض المركة « الفيرزان »
قائد جيش الفرس الذي انطلق نحو (همدان) ، فلحق
به « نعيم بن مقرن » وسبقه في ذلك القعقاع ، على أن
« الفيرزان » ترك فرسه ، وصعد الجبل القريب من
أرض المركة ، فترك القعقاع فرسه أيضا ، ليلحق به ،
وتمكن منه وقتله (٣٣) .

أما في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ،
كان القعقاع مقيما في الكوفة ، ومن هذه المدينة انطلقت
أول بوادر الفتنة والثورة على الخليفة ، وعامله « سعيد
ابن العاص » .

وقد استغل أولئك الذين أرادوا عزل سعيد لسياسته
المنحرفة في الكوفة ، فرصة غيابه عن الكوفة ، فثاروا
مطالبين بعزله وخلع الخليفة عثمان ، فخرج « يزيد بن
قيس » ثائرا ودخل مسجد المدينة ، وجلس فيه واجتمع
اليه أولئك الذين يتبعونه ، فما كان من القعقاع الذي
كان حاضرا يومها إلا أن قام وانقض على يزيد ، وأخذه
منكرا عليه ما يطالب به من خلع الخليفة ، وعزل سعيد ،
فقال له يزيد : إنما نستعفي من سعيد . فرد عليه
القعقاع بكل حزم وشدة : هذا مالا يعرض لكم فيه ،
لا تجلس لهذا ولا يجتمعن إليك ، واطلب حاجتك ،
فلعمري لتعطينها (٣٣) .

خرج القعقاع للانضمام الى جيش علي . بعد أن تحدث لأصحابه في مسجد الكوفة حين قدم عليها الحسن ابن علي ، ليطلب مناصرة أهل الكوفة لأبيه ، قال القعقاع يومها : إني لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا ، ولأقولن لكم قولاً هو الحق ، أما ما قال الأمير - يقصد الحسن بن علي - فهو الأمر لو أن اليه سيلاً ، وأما ما قال زيد - زيد بن صوحان ، الذي قدم من البصرة ، رسولاً للسيدة عائشة والزيير وطلحة الى أهل الكوفة ، ينصحكم بعدم الانضمام الى علي ، فزيد في الأمر فلا تستصحوه فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها وجرى اليها ، والقول الذي هو القول أن لابد من إمارة تنظم الناس وتزع الظالم وتمز المظلوم ، وهذا علي يلي بما ولى ، وقد أنصف في الدعاء وإنما يدعو الى الإصلاح ، فاتفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى وسمع (٢٥) .

وكان القعقاع رسول علي الى السيدة عائشة والزيير وطلحة الذين خرجوا مطالبين بالثار لمقتل عثمان واختيار خليفة للمسلمين .

فقد أرسل علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) القعقاع رسولاً الى البصرة لمقابلة السيدة عائشة والزيير وطلحة وقال له : اتق هذين الرجلين يابسن الحنظلية ، فادعهما الى الألفة والجماعة ، وعظم هليهما الفرقة ، وسأله : كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه رصاة مني ؟ فرد عليه القعقاع : نلقاهم بالذي أمرت به ، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي اجتهدنا الرأي وكلناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي . فأنشئ عليه علي قائلاً : أنت لها .

وخرج القعقاع حتى قدم البصرة ، وبدأ بالسيدة عائشة ، فاستئذن ثم دخل عليها وقال لها : أي أمه ،

فالقعقاع لم يرد أن يستغل أولئك الثائرين فرصة غياب سعيد عن الكوفة ، ليعلموا ثورتهم ، ويبشوا الفرقة والفتنة بين أهل الكوفة ، سعيد عامل الخليفة عثمان ، وطالما أبقاه عثمان فلا يحق لأحد أن يمزله إلا بأمر الخليفة ، وعرض القعقاع على يزيد أن ينتظر عودة سعيد ، ولا بد من أن سعيد سيقضي له حاجته إن كان له حاجة ، أما الثورة والفتنة فهذا ما لا يرضاه القعقاع ولا يقبل به .

وفي رواية أخرى للطبري : أن يزيد وقد اجتمع إليه أصحابه قال للقعقاع : ما سبيلك عليّ وعلى هؤلاء ! فوالله ! إني لسامع مطيع ، وإني للآزم لجماعتي إلا أني استعفي ومن ترى من إمارة سعيد ، فرد عليه القعقاع منكراً ما يطالب به ومستغربه في الوقت نفسه : استعفى الخاصة من أمر رضىته العامة ؟ فقال يزيد : فذلك الى أمير المؤمنين (٢٦) أي أن أمير المؤمنين هو الحكم في هذا الموضوع فإن قبل بعزل سعيد فهو الذي نسعى اليه .

وكان أن استجاب الخليفة لمطالب أهل الكوفة ، وعزل عامله سعيد ، واستبدله بأبي موسى الأشعري . ولما استمرت الفتنة من جديد ، واتجه الثوار من أهل بعض الأمصار الى المدينة لينظروا عثمان في سياسته مره ، وليضربوا الحصار حول منزله في المره الثانية ، كتب عثمان الى أهل الأمصار ليهبوا لنجدته وكان أن خرج القعقاع من الكوفة لنجدة الخليفة مع من خرج منها ومن بقية الأمصار .

على أن القعقاع تأخر بالوصول الى المدينة ، وكان أن قتل عثمان . وأريق دمه الطاهر على صفحات القرآن الذي فتحه بين يديه يقرأ فيه . وفي خلافة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)

ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ،
اصلاح بين الناس ، قال القمعاق : فابعني الى طليحة
والزبير حتى تسمي كلامي وكلامها ، فبعثت إليهما
فجاءا ، فقال لهما القمعاق : إني سألت أم المؤمنين : ما
أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت اصلاح بين
الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالوا :
متابعان ، قال القمعاق : فأخبراني ما وجه هذا
الاصلاح ؟ فوالله لئن عرفنا لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا
نصلح ، قالوا : قتلة عثمان رضي الله عنه فإن هذا إن
ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن .
فرد عليهما القمعاق : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل
البصرة ، وأتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم
اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة
آلاف ، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم
ذلك الذي أفلت - يعني حرقوص بن زهير - فمنعه
سنة آلاف وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين
لما تقولون ، وإن قاتلتوهم والذين اعتزلوكم فأدبلوا
عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما
أراكم تكرهون ، وأتم أحييتهم مضرورية من هذه
البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء .
كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذب
الكبير . فقالت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال
القمعاق : أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن
اختلجوا ، فإن أتم بايعتمونا فعلامة خير وتبشير رحمة
ودرك بئار هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ،
وإن أتم أبيتتم إلا المكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت
علامة شر ، وذهاب هذا الثار ، وبعثة الله في هذه الأمة
زهراها ، فأثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح ،
وايم الله اني لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني لخائف
إلا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة

التي قل متاعها ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي
حدث أمر ليس يقدر ، وليس كالأمور ، ولا تقبل
الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل . فوافقوه
الرأي وقالوا : نعم ، إذا قد أحسنت وأحببت المقالة ،
فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا
الأمر . فرجع القمعاق إلى علي وأخبره ما كان بينه وبين
السيدة عائشة والزبير وطلحة . (٣٦)

ولكن المفاوضات لم تشر ولم تصل بالفريقين الى
النتيجة المرجوة ، فكان أن اقتتلا ، في موقعة اطلق
عليها اسم موقعة الجمل ، نسبة الى الجمل الذي كانت
تركبه السيدة عائشة ، وقد قاتل أصحابها من حوله
بشدة واستبسال ، ولكن المعركة انتهت بمقتل الزبير
وطليحة ، وبهزيمة أصحاب السيدة عائشة .

أما آخر ذكر للقمعاق ورد في كتب المؤرخين ،
فكان ما أورده بخصوص ما قاله القمعاق عن معركة
صفين وقد اشترك مع علي ضد معاوية وأصحابه ، وقد
قال : ما رأيت شيئاً أشبه بشيء من قتال القلب يوم
الجمل بقتال صفين ، لقد رأيتنا ندافعهم بأستننا
وتتكى على أزجتنا ، وهم مثل ذلك حتى لو أن
الرجال مشيت عليها لأستقلت بهم . (٣٧)

تلك هي حياة القمعاق بن عمرو ، فارس بني تميم ،
تلك حياته بكل شجاعة صاحبها وبطولته وعظمته . . .

لقد سطر القمعاق انصع الصفحات ، وخلف أطيب
الذكر ، وترك أفضل الأمر ، فهو من أولئك الفرسان
الذين سيقون مفخرة عظيمة لنا ، لأمة العرب
والاسلام ، التي ما بخلت على الدنيا بانجاب خير
الرسل ، وأعظم الأبطال ، وأشهر القواد .

كان القمعاق من صحابة رسول الله صلى الله عليه

وحسن بلائهم ، وعظمة تضحياتهم ، إلا وصورها وتحدث عنها ، كأن انتصار المسلمين لا يكتفى إلا برسم هذه الصورة ، وجهادهم لا يوفى حقه إلا بالإشادة بما فعلوه في ساحات القتال .

وعلى الرغم من كثرة ما أنشده القمعاق من أشعار . إلا أننا لم نشر له على قصائد متكاملة ، وكل ما ذكره المؤرخون ، أبيات شعرية ، ارتجزها في الماركة وعند انتصار المسلمين على أعدائهم .

وقد اقتصر شعر القمعاق على غرض واحد ، غرض تصوير الماركة والإشادة بشجاعة المجاهدين وبطولاتهم . ورثاء من استشهد منهم ، حتى لنستطيع أن نطلق على شعره شعر الفتوح بالدرجة الأولى .

فنحن لا نشر للقمعاق على شعر الحنين مثلاً ، وقد عزاه بعضهم لوجود جموع كبيرة من أبناء عمومته معه في حرب العراق . ووجود زوجته معه كذلك .

كما لا نشر على شعر يتحدث عن حياته الخاصة ، أو عواطفه الشخصية ، ولعل حياة الجهاد التي أرادها القمعاق لنفسه لم تترك له المجال ليلتفت الى حياته الخاصة وعواطفه الشخصية . . .

كان شعر القمعاق ، واضحاً ، بسيطاً صادقاً لا غموض فيه ولا تعقيد ، ينساب بكل هدوء وجزالة ، يؤثر في النفوس ولا يتكلفها أي جهد أو عناء .

وهذه بعض من أشعار القمعاق نسوقها لتكون الصورة متكاملة عن هذا الفارس الشاعر .

فبعد انتصار المسلمين المظفر على جيش الروم في معركة اليرموك ، يقف يشهد مفاخراً بانتصار جيش المسلمين مذكراً بانتصارات هذا الجيش في أرض

وسلم ، ومن أولئك الذين اعتد عليهم الخلفاء الراشدون فكانوا من قوادهم ورسلمهم ، وجنودهم الأوفياء .

وقد اكتنف الغموض تاريخ ولادة القمعاق ونشأته الأولى وكذلك اكتنف نهاية حياته ، وتاريخ وفاته !!!

فمعركة صفين هي آخر الماركة التي اشترك فيها القمعاق وكان مع جند علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) واتقل بعد انتهاء هذه المعركة الى (الكوفة) ، ليقيم فيها معتزلاً الأحداث ، ويتضي آخر أيامه وفي خاطره ذكرى الماركة والفتوحات والامجاد التي سطرها بأحرف مضيئة من شجاعة وبطولة ونبل .

توفي القمعاق في السنة الأربعين للهجرة النبوية الشريفة أي هذه السنة وصل القمعاق الى نهاية المشوار ، وانتقلت روحه الى جوار ربها . إذناً باتهاء حياة صاحبها .

على أننا وقبل أن نختم هذه المقالة . لابد أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصية القمعاق ، نتحدث عن القمعاق الشاعر .

لم نشر للقمعاق على أشعار قبل إسلامه ، وكل ما نسب اليه من شعر كان بعد إسلامه ، وفي معرض الحديث عن معارك المسلمين ، وانتصاراتهم وفتوحاتهم .

لقد كان شعر القمعاق مرآة صادقة عكست كل مظاهر البطولة والشجاعة التي ابداهها وقومه في الماركة ، وسجلاً دقيقاً لتفاصيل الأحداث وتتابع الانتصارات التي اشترك فيها مع جيش المسلمين في العراق والشام .

لم يترك القمعاق مناسبة لتصوير حبها والمسلمين ،

العراق . متحدثاً عن تتابع الفتوحات وسقوط معاقل الروم ومدنهم أمام زحف جيوش المسلمين ، رأساً سورة بطولية لهذا الجيش الذي تابعت انتصاراته . وكيف انتهى الحال بجند الروم . وقد لحقت بهم الهزيمة ، وسقطوا في وادي الرقاد (الواقعة) ، ليبقى ذكر هذه الملحة التاريخية مسطراً أبدياً الدهر ، فيقول :

ألم ترنا على اليرموك فنا
كما فنا بأيام العراق

فتحنا قبلها بصرى وكانت
محرمة الجناح لدى العناق^(٢٨)

وعذراء المدائن قد فتحنا
ومرج الصفرين على العناق^(٢٩)

قتلنا من أقام لنا وفنا
نهابهم بأسياق رفاق^(٣٠)

قتلنا الروم حتى ما تساوى
على اليرموك ثروق الوراق

فضضنا جمعهم لما استمالوا
على الواقعة البتر الرقاق

غداة تها فتوافيها نصاردا
فصاروا إلى أرميضل بالذواق

وكانت موضوعات الفخر هي أكثر ما أنشد فيها القمعاق الشعر ، كيف لا ، والنصر كان حليفه في كل المعارك التي اشترك بها . واعظم الفتوحات الإسلامية وابعدها أثراً قد أسهم فيها ، فحق له بعد ذلك أن يفخر ببطولته وشجاعته ، وبصنيع قومه .

فبعد انتصار المسلمين في معركة فحل ، ينشد

القمعاق مفاخراً بقومه ، بأجداده ، وآبائه الشجعان ، وكيف أنه سار على خطاهم في طريق المجد والبطولة والشجاعة ، وكيف أن قبيلته تنطلق خلف قائدها في زحف جرار لا آخر له ...

وفي فحل كانت مأساة الروم ، فقد هزموا شر هزيمة ، وتشتت جموعهم في مياه المستنقعات . والمسلمون ينالون منهم بالسيوف والرماح ، وأنشد يقول :

كم من أب ورثت فعالة

جهم المكارم بحره تيار

ورث المكارم عن أبيه وجده

فبنى بناءهم له استبصار

فبنيت مجدهم وما هدمته

وبنى بعدي أن بقوا عمار

ما زال منا في الحروب مروس

ملك يغير وخلفه جرار

بطل اللقاء اذا الثغور توكلت

عند الثغور مجرب مظفار

وغداة فحل قد راوني معلما

والخيل تنحط والبلا أطوار^(٣٣)

يفدي بلائي عندها متكلف

سلس الميأس عوده خوار

سلس الميأس ما تسامى ما قطا

عند الرهان معير عيار^(٣٤)

ما زالت الخيل العراب تدوسهم

في حوم فحل والهبا موار^(٣٥)

ابن عبد الله الليثي ، وعتبة بن فرقد السلمي ، وسالك
ابن خرشة الانصاري . لخطبة أروى ابنة عامر الهلالية .
فسألت أروى شقيقتها زوجة القمعاق أن تستشير لها
زوجها وقالت لها : استشري زوجك أيهم يراه لنا ،
وحين استشارت زوجها قال لها : سأضعهم في الشعر
فاظري لأختك وأنشد يقول :

إن كنت حاولت الدارهم فانكحي

سماكا أخا الأنصار أو ابن فرقد

وإن كنت حاولت الطعان فيمي

بكيرا إذا ما الخيل جالت عن الردي

وكلهم في ذروة المجد نازل

فشانكم إن البيان عن الغد

الهوامش والمصادر :

(١) الحوص : الخبيلة .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٢٦٢)
الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٣٤٧) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٣٦٥) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٥) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٣٧٩) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٦) معجم البلدان : لياقوت الحموي ج ٢ ص (٢٦٧) .
الناشر دار صادر بيروت .

(٧) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٣٩٨) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٨) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلد الاول
ص (٥١٨) . الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

حتى رمين سرانهم عن أسرهم
في روعة ما بعدها استمرار

يوم الرداغ بعيد فعل ساعة

وخز الرماح عليهم مدرار

ولقد برأنا في الرداغ جموعهم

طرا ونحوي تشخص الابصار

وفي الرثاء ، نجد القمعاق يهتز لمقتل أحد أصحابه
في معركة القادسية . والمسلمون لا يفعلون شيئا سوى
انتظار تكبيرة سعد ايذاناً ببدء القتال ، فيثور ويفضب
ويحمل على الفرس ، عله يشفي غليله ويثار لصاحبه ،
ليرثيه بعد انتهاء المعركة وهو ينشد :

سقى الله يا خوصاء قبر ابن يعمر

إذا ارتحل السفار لم يترحل

سقى الله أرضاً حلها قبر خالد

ذهاب غواد مدجنات تجلجل

فأقسمت لا ينفك سيني يحسم

فان زحل الأقوام لم أنزحل

وفي الوصف ، نلمس مهارة القمعاق في رسم الصورة
الواضحة البليغة المبررة ، فنقرأ شعره ويخيل لنا بأن
ما يصفه مائل أماناً يكاد أن ينطق ...

ومن أطرف ما قاله في الوصف ، وصفه لثلاثة من
فرسان المسلمين تقدموا لخطبة شقيقة زوجها ، فبعد
انتهاء معركة القادسية تقدم أولئك الفرسان وهم : بكير

- (٩) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٥٤٣) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (١٠) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٥٤٧) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (١١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٥٥١) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (١٢) خام : نكص وجبن . قديس : اسم حصن في القادسية ، كان سعد يشرف منه على أرض المعركة . حيث لم يشترك سعد في المعركة . راجع كتاب القمعاق بن عمرو ، لكاتب المقالة .
- (١٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٥٥٧) .
- (١٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص (٥٦٢) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (١٥) القادسية : احمد عادل كمال . ص (١٧٦) .
الناشر دار النفائس - بيروت .
- (١٦) بهر سير : من نواحي سواد بغداد قرب المدائن .
- (١٧) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (٨) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (١٨) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (١٢) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (١٩) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (٢٧) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (٢٠) معجم البلدان . لياقوت الحموي ج ٢ ص (١٥٦) .
الناشر دار صادر بيروت .
- (٢١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (١٢٨) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (٢٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (١٣٣) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (٢٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (٣٣١) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (٢٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (٣٤٦) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (٢٥) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (٤٨٤) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (٢٦) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (٤٨٩) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (٢٧) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (٥٣٢) .
الناشر دار المعارف بمصر .
- (٢٨) ويقال لدى العناق . والعناق النجم الاوسط من بنات نعش الكبرى وهي توصف بالبرد والخفاء . يقصد انها في امتناعها وبمدها على الغزاة كانها عند العناق .
- (٢٩) يقصد بالعناق : عناق الخيل
- (٣٠) رفاق : الرقيقة . والمقصود انها سيوف رقيقة فاطمة الحد .
- (٣١) البتر : المقصود بها السيوف .
- (٣٢) اللواق : الابتلاء والتجربة .
- (٣٣) معلما : ذو علامة . ننحط ننحط نحيطا : زمز .
وننحط صوت الخيل من الثقل والاهياء
- (٣٤) الماقت : المضيق في الحرب .
- (٣٥) الهبا : الغبار . او ما يشبه الدخان .



المظاهر الاجتماعية قاموس الصناعات الشامية

ظافر القاسمي

الجامعة اللبنانية



ليست هذه الدراسة استقصائية لمظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام ، في فترة معينة فذلك ما تقتضي له غير ظروف هذا البحث والزماته والحاحه، وانما هي دراسة ماورد في كتاب بعينه ، هو كتاب : قاموس الصناعة الشامية ، الذي يقع في جزئين ، الف الجزء الاول منه محمد سعيد القاسمي المولود (١٢٥٩ - ١٨٤٣) والمتوفى (٢٣ شوال ١٣١٧ - ٢٢ شباط ١٩٠٠) ، والف الجزء الثاني منه محمد جمال الدين القاسمي المولود (٨ جمادى الاولى ١٢٨٣ - ١٧ ايلول ١٨٦٦) بمدينة دمشق ، والمتوفى (٢٣ جمادى الاولى ١٣٣٢ - ١٨ نيسان ١٩١٤) بالاشتراك مع خليل العظم المولود (١٢٨٦ - ١٨٧٠) والمتوفى أواخر عام ١٩٢٦ .

طبع هذا الكتاب في دمشق عام ١٩٦٠، بعناية المعهد التطبيقي للدراسات العليا .

وهو كما ترى معجم لصناعات دمشق ، وليس كتابا في التاريخ، ولا في التاريخ الاجتماعي،

ولكن الصناعة ، اينما كانت ، وحيثما قامت ، مظهر كبير من مظاهر الحياة الاجتماعية . ولهذا راينا في ثنايا هذا القاموس فوائد كبيرة تتعلق بالمجتمع الشامي ، فحاولنا احصاءها، وجمعناها، ورتبناها ، وصنفناها ، وانا لندرج ان نكون قد بلغنا من ذلك بعض الخدمة لهذه المدينة العظيمة التي تشرفنا بالولادة على أرضها وبالانتماء اليها .

أضف الى ذلك ان هذا المعجم قد تضمن وصفا لاربعمائة وسبع وثلاثين صناعة . وقد أجريت احصاء تقريبا ، فوجدت ان كثيرا من هذه الصناعات قد زال ، لما أصاب البلاد من تطور غير معالجها ، وقضى بان يستبدل ببعض الصناعات صناعات جديدة ، أو ان تموت الى الابد . وهذا تخليد لما كانت عليه الحال قبل وقوع التطور الجارف ، فضلا عن انه يفسر كثيرا مما يغمض علينا من تسميات ما زالت قائمة حتى اليوم . مثال ذلك انه توجد في دمشق اسرة كريمة هي آل المحاييري ، فما هذه النسبة ؟ انها نسبة الى المحارة ، التي كان يمتطيها الحاج ، وتوضع على



ان لا يكون أول داخل الى السوق ولا آخر خارج منه .

وفي فصل آخر سماه « في الاشارة الى اموات الصناعات » صنفها فقال :

- الضروري : كالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة .

- وأما الشريفة بالموضوع : فكال توليد والكتابة والوراقة والغناء والطب . وما سوى ذلك فتابعة وممتهنة في الغالب .

والذي يسترعي الانتباه هو ان يعتمد المؤلف الى اعتبار صناعة « الغناء » شريفة بالموضوع ، كالطب والكتابة ، ولا سيما في ذلك العصر الذي كان الناس ينظرون فيه الى الغناء نظرة ازدراء ، ولا يرتضون ذلك لاولادهم . ولكن اذا عرفت ان المؤلف كان موسيقيا وكان جميل الصوت ، وكان شاعرا ، أي انه كان فنانا عرفت لماذا اعتبر الغناء من الصناعات الشريفة بالموضوع ، مع انه لم يغن في حفل عام قط ، ولا في حفل خاص ، ولم يعرف انه كان جميل الصوت الا خاصة الخاصة من الاصدقاء .

٢ - ما جاء في القاموس

٦ - الصناعات الخاصة بالنساء

في كل مجتمع صناعات خاصة بالرجال ، وأخرى بالنساء ، وثالثة مشتركة بينهما . وقد احصيت الصناعات التي لاتتعاطاها الا النساء فكانت :

١ - اسطه (٢) : وهي امرأة تغسل رأس النساء بالحمام .

الابل ، ويصنعها المحاييري ، وامثال ذلك كثير .

لا جناح علينا اذا نحن جهلنا التاريخ الدقيق الذي وضع فيه الكتاب ، لان التاريخ الاجتماعي ، لا يحدد بالايام والاشهر والسنين ، وانما يشمل فترات وحقبا ممتدة . ومهما يكن من أمر فان مؤلف الجزء الاول قد أشار في بعض المواضع من كتابه الى انه كتبها عام (١٣٠٩) (١) ، فالوصف الوارد في الكتاب اذن لا يعدو أواخر القرن التاسع عشر المنصرم ، لان مؤلفه توفي عام ١٩٠٠ م .

أما الجزء الثاني فقد ألف بعد وفاة مؤلف الجزء الاول ، قام بذلك ولده جمال الدين وصهره خليل العظم . وقد توسعنا في هذا الموضوع في مقدمتي الجزئين المطبوعين فارجع اليهما . ان الدراسة التحليلية لهذا الكتاب يمكن ان تؤدي بنا الى بعض حقائق ووقائع التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام . ولنضرب أمثلة على ذلك :

١ - ما جاء في المقدمات

عقد المؤلف فصلا سماه : « في ذكر بعض آداب الكسب والمعاملة » مبنية كلها على أحكام الشريعة الاسلامية ولبعضها صلة وثقى بالتاريخ الاجتماعي . فهو يحدد أولا الذين لا يجوز التعامل معهم ، وهم : الصبي ، والمجنون ، والعبد ، والاعمى . وثانيا : ان يتحرى عند العقد الايجاب والقبول . وثالثا - ان يمتنع عن الاحتكار . ورابعا - ان ينصح في المعاملة . وخامسا - ان يمتنع عن الغبن الفاحش . وسادسا - الورع . وسابعها - ذكر الله تعالى في السوق . وثامنها -

٢ - بلانة (٢) : من تخرج الاوساخ من ابدانهم ، بنحو كيس وصابون . وغالب فقراء النساء يغسلن بعضهن .

٣ - داية (٣) : هذه اللفظة ، في اصطلاح اهل الشام ، اسم لامرأة عندها معرفة ومهارة في صنعة التوليد ، وتسمى في اللغة « القابلة » . وهذه الصنعة مختصة بالنساء في غالب الامر .

وبعد ان يصف الطلق ، ويتحدث عن اشتداده بعلامات تعرفها الداية يقول :

« تضعها الداية على الكرسي المخصوص ، وتجلس أمامها ، وتدعو لها كثيرا بالخلاص وخلقة الناس ، وتقول لها الداية : يا بنتي عيني ولدك ، واحذري على كبدك .. ثم ان أتت بذكر ، أي صبي ، قامت الافراح على ساق ، وظهرت انوارها الليلي الملاح بالاشراق ، وذهب البشير لأخذ البشارة ، وأسمنت الزغاريت أهل الحارة .. وان أتت بانثى ذات الصدر والستر ، استوجبت الهجر بلا أجر ، واستولى عليها الكرب في كل ليلة الى طلوع الفجر ، ولا يزالون في العناء والحصر : أكثر من مدة شهر .. »

وبعد ان يوضح المؤلف ما تفعله الداية مع النفساء والمولود ، من مبادرات واحتياطات يقول : « وهذه كلها ادواء نجد الدايات أبصر بدوائها . وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من ادواء في بدنه الى حين الفصال ، أي الفطام ، نجدهم أبصر بها من الطبيب البارع .. »

ويحضي المؤلف بعد ذلك ليتحدث عن اكرام الضيوف المهنتين فيقول :

« ثم يصنعون وليمة يوم الاسبوع ، ويدعون الامل والاحباب ، ويجعلون بها حلواء ، وتسمى « كراوية » في مصطلح أهل الشام ... وهذه الكراوية من لوازم اسبوع المولود غالبا ، فمن لم تصنع له ، لا يعتنى به غالبا ، وينسب الى الشح ... وغالب الفقراء مع فقرهم يصنعونها يوم الاسبوع ... »

ويوضح المؤلف عن واجبات الداية ، وواجبات أهل المولود نحوها حين ختامه ، وحين ختمه للقرآن الكريم ، وحتى زواجه ...

٤ - رسام (٤) ، اسم لمن يرسم القماش المنسوج رقيقا كان أو غير رقيق ، أي يطبعه الطابع ، أي بقالب من خشب محفور بنقش مختلف الاشكال ، على حسب رغبة طالب الرسم ... ويشغل على الرسم بالحرير الملون ، وهو المسمى بـ « التطريز » ، أو القصب المسمى بـ « الصرما » ، أو بالصوف الملون ويسمى « كناويشا » ... وغالب هذه الاشغال الآن هي من حرف النساء المفرجات من المدارس الرسمية ... واطن ان هذه الصناعة قد انقرضت في زماننا .

٥ - غسالة : هذه الحرف مختصة بالنساء الفقيرات : تدعى لبيوت الاغنياء لاجل غسل وتنظيف الثياب ، فيأتين ويفسلن ما يكون لازما غسله ، ثم يعطين اجرة على نسبة المغسول . كذلك اظن ان هذه الصناعة قد انقرضت .

٦ - لطامة (٦) : هي من حرفة النساء المهنتات . وفي الزمن السابق كانت رائجة جدا .



وأما الآن فقد أصبحت كاسدة ، قليل محترفاتها ، لانصباغ الزمن بغير الصبغة الماضية ، تمدنا ، وعادة وتقليدا ، ومع ذلك ، فلا يزال طوائف منهم يدببن للندب فيندبن ، وذلك عندما يموت أحد الاغنياء فيأتي أهله باللطامات ، وهن مؤلفات من أربع الى عشر نساء ، يلبسن الثياب السود ، ويسفنن وجوههن وأيديهن بمسحوق الفحم ، ويحللن شعورهن على أكتافهن ، ويدرن بأطراف الدار ، وهن كالرئيس ، وأهل البيت حولهن كالتلاميذ فيأخذن بالولاول والصراخ والبكاء والنحيب والندب ، ويعددن صفات الميت ومحاسنه ، وما كان عليه في حال حياته من بره وكرامه وعظائه ، واحسانه للفقراء والايام ، ويساعدهن على ذلك أهل البيت ، الى أن يخرج بالميت من الدار ، وهذا مما نهي عنه في الشرع أشد النهي ، وأوعد فاعلات ذلك بالوعيد الشديد . وقدما ان في هذا الزمن قل هذا العمل جدا ، واصبح نادرا وقوعه الا من ارادل الناس .

كان هذا عام ١٣٢٥ هـ أما اليوم فقد بطل بالكلية .

٧ - ماشطة (٧) : هي الداية ، يطلق عليها هذا اللقب في وقت خاص هو ليلة زفاف الزوجة الى بعلمها ، فان للداية ليلتئذ مركزا مهما ، وعملا وخدمة خاصين بها ، متوارثا من الزمن السابق . وذلك ان كل بنت تزوجت ، تأتي ليلة الزفاف دايتها معها ، لا تفارقها أبدا ، وهي التي تمشطها ، أي : تسرح شعرها ، وبذلك سميت « ماشطة » ، وتلبسها ثيابها ، وتزينها باصناف الحل والحلي والشكول . وما كان في تلك الايام

يقوم بهذا الامر الا الماشطة ، وسببه عدم تنبه النساء لدقة التزين بانفسهن وتغفلن أما في زمننا هذا فقد أصبح المتكفل بتزيين المرأة أهلها واقاربها ، وذلك لعموم التمدن ، واضمحلال التغفل . بل ربما تعد الآن الماشطة عندهن مغفلة ، اذ ترى تلك المسكينة منهن مالا تعهده في غابر الازمنة الا الحضور يوم العرس فقط ، لاجل ان تستأنس بها العروس ، اذ بعد ان ترف الى زوجها ، وينصرف اهله عنه ، تكون على باب المحل ، منتظرة لندائها ، لغرض لهما ، من شرب ، أو احضار أمه أو أخته أو عمته ، أو الذهاب بالعروس الى قضاء حاجة ، أو فرش الفراش ، وامثال ذلك . ولا تزال على باب العروسين الى الصباح ، ويكرمها الزوج بمجمع أنواع الحلوى ، مع شمعة عسلية ، ويضيف الى ذلك دراهم ، على قدر ثروة أصحاب العرس .

ثم عقب المؤلف على ذلك بتنبيه ، أشار فيه الى بعض العادات القبيحة وبعض الافعال السيئة التي كانت تقوم بها الماشطة ، منها معونة الزوج على غشيان أهله ، وكل ما يتعلق بامور تلك الليلة ، ولا سيما المنديل الملوث بالدم وغير ذلك من القبائح ، التي تخالف الشرع والعقل ، ونهى عنها نهيا شديدا ، ونقل عن كتاب « كنوز الصحة » فصلا كاملا يتعلق بهذا الموضوع ، فيه ايضاح كامل للعادات القبيحة ، وزجر عنها ، ونهي عن ارتكابها .

٨ - محمرة (٨) : هذه الحرفة من حرف الفلاحة ، وتختص بالنساء ، وليست بحرفة دائمة ، بل مؤقتة ، في أيام معلومة ، فان العادة



الى زوجها لابد ان تنقش يديها ورجليها ،
ويشارك معها من يرغب من أهلها وذويها ،
فيؤتى بالنقاشة قبل يوم الزفاف فتباشر أولا
بتنقيش العروس وبعدها من يرغب من أهلها ،
وكذلك زمن الاعياد يوجد من النساء والصفار من
ينقشون ايديهم ، وكذلك حين ختان الاولاد أيضا .
ب - الصناعات الخاصة :

أورد أصحاب القاموس ، ذكر بعض
الصناعات ، وأشاروا الى أنها - على الاغلب -
من بعض فئات المجتمع العربي في الشام . وقد
عللوا لهذا الاختصاص حيناً ، وأهملوا التعليل
حيناً آخر ، من ذلك .

١ - ترجمان (١١) : اسم لمن يترجم اللغة
العربية الى التركية مثلاً ، أو الى الفرنجية ، وهي
حرفة رائجة عندنا ، لا سيما من يترجم العربية
بالفرنجية . والمستعدون لهذه الحرفة فئة
عندنا في الشام . وذلك لكونهم اتقنوا تعلم
الالسن ، الكارومي ، والطياني ، والافرنسي ،
والانكليزي ، وغير ذلك .

وقد جاء المؤلفون على اصطلاح لا يعرف
الشام وهو « أبو خديجة » وذلك بصدد العمولة
التي يتقاضاها الترجمان حين شراء السياح بعض
الحاجات من الاسواق ، فقالوا : « ومثله السمسار
ويسمى باصطلاح الباعة : أبو خديجة » . ومن
المؤكد ان هذا الاصطلاح ليس مرادفاً للسمسار ،
وانما هو العمولة التي يتقاضاها السمسار أو
الترجمان ، وما زال الاصطلاح شائعاً على الالسن
حتى اليوم .

٢ - حلاق (١٢) الحلاق حرفة كانت مشتركة

بدمشق ، في العاشر من شهر آذار ، يباشر أصحاب
الكروم في قرى دمشق بتحمير غصون الكروم .
والسبب في ذلك : انه يخرج في ذلك الوقت دود
صغير من أصل العرائش ، حيث تكون طلعت عين
الكروم ، فتدخل تلك الدودة في محل عين الحمل
فتأكله ، ويبقى الورق فقط ، فيأتي أصحاب
الكروم بالحرر .

ثم يوضح المؤلف طريقة المكافحة .

٩ - معشبة : هذه الحرفة من حرف الفلاحة ،
تختص بالنساء ، وليس بدائمة ، بل مؤقتة في
زمن الربيع ، عند خروج المزروعات ، يخرج معها
أنواع من العشب ، فيأتي أصحاب المزروعات
بالمعشبات ، ويأخذون بتعشيب تلك المزروعات .

١٠ - مقبعة : هو اسم لامرأة تطبب رؤوس
القراع الذين يتقرح جلد رؤوسهم من الدمامل .
والغالب يكونون من الاولاد الصغار . . . وهي
معالجة صعبة ، مؤلمة جداً ، يكاد الجمد يتقطر
للاقرع من كثرة عويله ونحيبه حينما يعالج بها .

١١ - ممسدة (٩) : هذه الحرفة في الغالب ،
يتقنها القوابل . وأمر التمسيد مصطلح عليه
بدمشق ، حيث يحصل مع الاطفال سوء هضم ،
وقيء زائد ، مع عدم رغبة الطفل بتناول الثدي ،
فيستحضرون له الداية ، ويحضرون لها قليلاً من
الزيت الطيب ، فيأخذ قليلاً من ذلك الزيت ،
فتعطي به معدة الطفل . . . والبعض من النساء
بدمشق قد اتخذن هذه الحرفة لهن مهنة ومعاشاً .
١٢ - نقاشة (١٠) هذه الحرفة من حرف
النساء . وهي التي تنقش أيدي وأرجل النساء .
وذلك ان من العوائد بدمشق ان كل عروس زفت



الذين كانت ومازالت محلاتهم في الدرويشية ، ولا سيما في الطابق الارضي من جامع السباهية فهم من غالبية الفئات .

٦ - صوفاناتي (١٦) : بائع الصوفان .
والصوفان مشهور يأتي به التجار من البلاد الاجنبية ، فالبعض من الاولاد
يحملون صندوقا من خشب . . يملؤونه من ذلك الصوفان ، وينادون عليه في الاسواق . . والغالب من الفلاحين يشترون من الصوفان ، ويرغبونه اكثر من الكبريت ، وذلك أولا لرخصه ، وثانيا لعدم انطفائه في البرية خصوصا اذا كان موجودا هواء .

٧ - عواد (١٧) : هو من يضرب على العود بأصوله المعروفة مع اتقان الانغام . . والمحترفون بها الآن كثيرون : من كافة الفئات العربية يدعوه من كان عنده وليمة للقيام بما يطرب المدعوين .

ثم تطرق المؤلفون الى دور العود في المجتمع فقالوا : « والآن كثير من الأكابر والمتوسطين تعلموا الضرب على العود وأصبحوا يضربون عليه في بيوتهم . . » .

٨ - قنواتي (١٨) - شاوي (١٩) : هو المحافظ على طوابع الماء ، وسير الدمه ، ويعرف في دمشق الشام بـ « الشاوي » . يفتش على الطوابع التي تحت نظره ومراقبته ، ويتعدها . . وهي حرفة مهمة ، لا يتعاطاها الا البعض ، ولهم بها مهارة تامة . .

٩ - قهوجي (٢٠) : . . . والبعض ممن يتعاطى

بين مختلف فئات المجتمع في الشام ولكن المؤلف خص البعض بقوله : « وغالبهم من اهل الكتاب ، وهم الذين ترققوا وأبدعوا في هذه الصنعة ، وتبعهم غيرهم في التحسين » .

٣ - بويه جي (١٢) : « وغالب أصحاب هذه الحرفة من الفقراء الشباب ، يدورون في الاسواق ، ومجتمعات الناس ، حاملين صندوقا من خشب ، ضمنه أنواع الفرشايات والبوية المتنوعة الالوان كاسود وأصفر وأبيض ، وأنواع الزيوت ، كزيت السمك ، اللوز ، ويمسحون النعال لمن أراد فيعطيهم كل على قدره . . » .

٤ - خرقى (١٤) : هو من يحترف بلقط الخرق من المزابل ، وأفنية البيوت ، والحارات ، فياخذها ، ويفسها وبعد ذلك يفرقها ، فما صلح لان يخاط بعضه ببعض فانه يخاط ويعمل أكياسا وتباغ للطارين . . وما لم يصلح للخياطة يباع للصرماياتيه فيجعلونه حشو للصرامي .

والمتمتهن نفسه بهذه الحرفة القذرة يدورون في الازقة والحارات في الصباح . . » .

٥ - سمكري (١٥) : هذه الصنعة في صنف التلك وقزازير الغار ، وهي تنطوي على عمل أشياء متعددة ضرورية : من عمل كيلات ، وأباريق ، وممالح ، وفوانيس ، ودولات قهوة . . وسماورات الى الشامي ، علب . . وما أشبه ذلك . . واذا هي ليست بشريفة كما وضعها المؤلف في عصره .

قلت : كان هذا أيام المؤلفين ، أما الذي ادركته في دمشق ، فان أصحاب هذه الصنعة



- وفي مادة خباز (١٢١/١) أشار المؤلفون الى « من يخبز سوقيا ، ومن يخبز بيتيا » ، ولم يعد في المدن الكبرى خبز بيتي الا نادرا جدا .

- وفي مادة خزان (١٢٤/١) إشارة الى من يدخر الاقواب من الحبوب كالقمح وغيره وقد زالت هذه الصناعة بحصر ذلك في الدولة .

- رشاش (١٥٦/١) هو من يرش الماء في الاسواق التي أرضها من التراب ، لئلا يصعد الغبار الخارج من الأرض . وله على كل دكان شيء معلوم يجمعه في كل شهر .

قلت : زالت هذه الصناعة منذ زمان بعيد ، وقد ادركتها في طفولتي .

- سائق (١٧٥/١) اسم لمن يؤجر نفسه لاحد الطحانة بشيء معلوم كل يوم .

ووظيفته : نقل الطحنة والطحين على الحمير الى الطاحون .

قلت زالت لاسباب شتى ، أهمها حصر مادة الطحين بالدولة .

- ساعي (١٧٦/١) اسم يطلق على من يرسل بكتاب أو غيره من بلد الى بلد .

قلت : زالت منذ زمان بعيد .

- سقاء (١٨٥/١) : اسم لمن يتعاطى نقل الماء أيام الانقطاع عن الدور ، فيأتي الناس بما يحتاجونه من الماء في كل يوم . وفي سنة ١٣٢٧هـ - ١٩٠٧ أصبحت هذه الحرفة بحكم المظلة ، وذلك بالنظر لجلب ماء عين الفيحة الشهير بطيبته وخفته الى دمشق .

المسكرات - والعياذ بالله تعالى - يذهب لجهة الباب الشرقي من مدينة دمشق ، حيث يوجد هناك قهاوي متعددة تعرف بالجنانين ، في باب توما ، وقاصدوها يتعاطون القهوة مع الأراكيل والمسكرات .

١٠ - مرابي (٢١) : هو من يقرض الناس بالزائد ، وكانت هذه الحرفة بدمشق قلا ، قليل محترفوها الموسويون وغيرهم . والآن مما عمت بها البلوى - نسال الله السلامة - فقد أصبح كثير من الناس ، على اختلاف مللهم ، يحترفون بهذه الحرفة الخبيثة .

١١ - نحات (٢٢) : هو من ينحت أنواع الاهجار ، حسب المرغوب وأصحاب هذه الصناعة بدمشق من المشهورين .

ج - صناعات زالت

بعض الصناعات زال أو كاد أيام المؤلفين ، وبعضها زال في أيامنا هذه أو قبلها بقليل . وسنرى ما جاء في القاموس في الاسطر التالية :

- حجام (٩٢/١) : والحجامة باخراج الدم ، الآن قد ندرت جدا ، الا لضرورة شديدة لمنع الاطباء الناس في هذا الزمن عن اخراج الدم .

- حمّار (١٠٦/١) وهذه الحرفة كانت قبل ظهور العربات كثيرة ورائجة جدا . فلما ظهرت العربات استغنى غالب الناس عن ركوب الحمير ، وصاروا يستأجرون العربات .

قلت : واليوم لم يبق حمار ، ولم يبق عربات بعد ان منعت منذ أكثر من ثلاثين سنة ، واستعاض الناس عنها بالسيارات .



وما جاورها ٠٠٠ و « ابو ناعسة » - وهو أحد النور - يلقي لهم أصناف السخريات المضحكة والالاعيب ، وأيضا في أيام الاعياد ، وأيام جمع ثمر الزيتون والزبيب ، وقيام الاعمال من البيادر ، يدورون يطبلون ويغنون ، فيعطيهام أصحاب الرزق ، كل على قدره ٠٠٠

زالت من المدن ، وبقي لها بعض الآثار في القرى .

- طرابيشي (٢٩٢/٢) : بائع الطرابيش ، والقائم بكيها .

لم يبق منها الا القليل .

- طنبرجي (٢٩٤/٢) : هوسائق الطنبر .

وقد زالت بسبب المركبات الآلية الحديثة .

- طيان (٢٩٦/٢) : في هذه المادة أشار

المؤلفون الى « الزريقة » و « العدسة » .

وقد قضى عليها الاسمنت .

- عربجي (٣٠٥/٢) الفيت العربيات منذ

اكثر من ثلاثين سنة في دمشق ، ولم يبق لها اثر .

وكان من المستحسن أن يبقى فيها على عدد

محدود ، كما هي الحال في العواصم الكبرى ،

كباريس وروما ولندن .

- عشار (٣١٠/٢) : هو من يشتري اعشار

القرى من الحكومة (ملتزم) .

وقد زالت بعد تنظيم دوائر الجباية في وزارة

المالية .

- عكام (٣١٨/٢) : هو رجل من أهل الجلد

والقوة على المشي في القفار والاعوار ، يستخدم

باجرة معلومة عند المقوم في سفر الحاج ، يسلمه

قلت : المراد بجلب ماء الفيحة هو السبلان العامة التي وجدت في الشوارع ، لا مده الى البيوت فذلك كان عام ١٩٣٢ ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان السبلان التي اقيمت في الشوارع ، أي المناهل العامة ، لم تكن تكفي في حي المهاجرين ، ولذلك بقيت فيه حرفة السقاء الى عام ١٩٣٢ ، كذلك في أيام انقطاع الماء عن البيوت بسبب تعزير الانهر وكريها ، لم تكن السبلان تكفي لذلك كان السقاؤون موجودين ، وقد أدركت ذلك بنفسي في جميع أحياء دمشق .

- شمال (٢٥٦/٢) : يستخدم في الجوامع ،

واكثرهم يستخدم في البلدية ٠٠٠ يسلم اليه كمية

وافرة من القناديل ، فعند الصباح يتفقدونها بما

يلزمها من : غسل ، ومسح ، وتزييت ، وقص

فتائلها ، وعند الغروب يباشر في تنويرها ، وغب

صلاة العشاء في الجوامع ، وطلوع الفجر في البلدة

يطفئها ٠٠٠

قلت : قضى عليها تمديد الكهرباء .

- شبال (٢٦٣/٢) : هذه الحرفة تطلق على

من كان عنده بعض من الجمال ، يحمل عليها من

أراد الحج في موسمه ٠٠٠

قضت عليها السيارة والطيارة .

- الصوجي (٢٧٣/٢) : بائع الماء ٠٠٠

انتهت بوصول مياه الفيحة الى الدور .

- طبال (٢٨٨/٢) ويقال له « المطبل » ، وهو

من يضرب على الطبل بكيفية معروفة ، يتوارثها

أهل بالتعلم من المهرة فيها ، ويعرف

بـ « بالمرجي » ٠٠٠ يدعون في الاعراس والختان

لاجل الدق في الطبل طربا ، وجمعا لاهالي القرى



قال المؤلفون : وكانت في الزمن السابق رائجة جدا ، وذلك قبل وجود الماكينات التي تخرج الحب ، الحادثة منذ خمس عشرة سنة (أي عام ١٣١٠) على الأقل ، ان لم يكن ذلك قبل .

- مقوم (٤٦٥/٢) : هو من يتعهد بمشال الركب الحجازي حين قصده السفر لجهة الحرمين الشريفين ، وصاحب هذه الحرفة يكون مستعدا لوجود عدد وافر من الجمال تكون عنده ، مع جميع ما يلزمها من عدد ، وهي : الخيم ومعدات الخيول ، والتخوت ، والمحابر ، والشباري وغيرها ، للركوب بها ، مع وجود أنواع الخدمة ، والتخوت ، من عكامة وغللمان ، وطباخين ، ومهاترة ، وسقاية ، وغير ذلك .

زالت كما زال غيرها من حرف الحج البري القديم .

- مكاري (٤٦٦/٢) : هي اسم لمن يكون عنده دواب ، من خيل وبغال يؤجرها للركوب ، وحمل البضائع عليها من بلد الى بلد . وكانت هذه الحرفة في الزمن السابق رائجة جدا ، وذلك قبل حدوث الشمندوفير (القطار) بدمشق . . . فهذا اجمعه أصبح مفقودا .

- منادي (٤٧١/٢) : هو اسم لمن يرفع صوته بالنداء ، بما يرغب مستأجره في الاسواق ، فتارة يستأجره من يكون فقد له طفل صغير ، أو حاجة مهمة ، أو دابة ، فيدور صاحب الحاجة والمنادي معا في الاسواق والازقة ، وينادي المنادي بما اصطلح عليه من النداء . . .

زالت مع تطور وسائل الاعلام : الصحف ، والاذاعة ، والتلفزيون ، وغيرها .

جملا ، وعليه المحارة ، يركبها شخصان ، يسحب الجمل بهما في الطريق ، ويتولى خدمتهما ، وكل ما يلزم الراكبين المذكورين من طبخ وغيره في انحاء سفرهما . . .

زالت بزوال الحج على الجمال .

- قولجي (٣٧٢/٢) : من يحافظ على بيادر الغلال ، يستأجره العشار . . .

انتهت بتولي الدولة الجباية مباشرة .

- قاووقجي (٣٧٣/٢) : هو صانع «القواويق» التي انقرضت من نحو نصف القرن الماضي ، وانقرض صناعتها ، ولم يبق الا رسمها . . . هذا ما قاله المؤلفون .

- مزركش (٤١٩/٢) هذه الحرفة أصبحت في عصرنا هذا مفقودة بالمرة . . . ذلك ان الاقدمين كانوا يرغبون بوضع عروق وقطع مصنوعة من خالص الفضة على المفروشات - جهازات العرسان - فغب أن يصنع الصانع تلك العروق الفضية وينقشها ، تسلم الى المزركش مع وجوه الفرش ، فيوقع عليها تلك العروق الفضية وينقشها ويخيطها . . .

- محابري (٤٢٠/٢) : هو من يصنع المحابر وهي من الخشب ، على صفة السرير ، تعمل محامل الحجاج حين سفرهم للمحار ، وتسمى الواحدة محارة ، تسع الشقة .

- من المحارة فراش شخص واحد ، مع ما يلزمه من الثياب ، ومطرة للماء ، وغيره . . . انتهت بحدوث الوسائل الحديثة لنقل الحجاج .

- مدري (٤٢٤/٢) : هو من يخرج الحب من التبن . . .



مئة وخمسون ليرة انكليزية ، ونحوها من خمس وعشرين ليرة عثمانية ، ومن الفضة نحوها من ألفي غرش .

- وفي مادة الاجاتي (٣٩/١) عدد الذين يتعاقبون على العمل حتى يتم صنع الالاجا ، فكانوا : الكبابة - والفتال - والمسدّي - والصباغ - والملقي - والمزايكي - والصائك - والدقاق ، وشار الى العلاقات القائمة بين هؤلاء جميعا .

- وفي مادة انتكجي (٤٠/١) عدد المتعاملين بهذه الحرفة فكانوا : المتسوق - والبائع - والسمسار - والواسطة - والترجمان - والمشتري ، وانها تروج في أيام زيارة القدس الشريف .

- وفي مادة بغجاتي (٤٥/١ - ٤٧) اشار الى أن هذه الحرفة تروج أيام الاعراس وأيام النشاط ، واولقات الصفا ، وفي الاعياد .

- وفي مادة البوايكي (٥٥/١) تحدث عن مساوئ تسليف الفلاحين .

- وفي مادة بوابيجي (٥٧/١) أشار الى انتعال نساء الشام البوابيج ، ثم الكنادر في عام ١٣٠٩ - ١٩١١ ، وقبل ذلك لم يكن يعرفن ذلك .

- وفي مادة تراب (٦٨/١) أشار الى أن بعض النساء الجاهلات كن يضعن التراب على أفخاذ الاطفال خيفة حدوث الالتهابات . قلت : وقد ادركت ذلك في طفولتي بنفسني ، عند بعض جيراننا .

- وفي مادة شلاج (٧٢/١) ذكر المؤلف الضرمة شكر ، أي ما نسميه اليوم : البوطة .

- مهتار (٤٧٤/٢) : المهتار يستخدم عند المقوم حين موسم الحج . ووظيفته القيام على خيم الحجاج الموجودين عند المقوم ، من أمر نصبها عند النزول الحجاج الى الراحة ، وفكها عند سير الركب . . .

انتهت مع ما انتهى من حرف الحج البري القديم .

- نخاس : هو من يتجر بالرقيق ، وهذه الحرفة كانت رائجة ، أما الآن فقد بطلت بحمده تعالى ، وأصبح من يختلس الاتجار بالرقيق نادرا جدا . ومتى شعر به يجازى ، ويحرر ذلك الرقيق .

- لالا (٤٩٩/٢) : هو مربّي أولاد الوزراء والامراء والكبراء . . . انتهت بتعميم التعليم الابتدائي .

- ياسرجي (٥٠١/٢) : هو دلال القبيد والاماء . . .

قال المؤلفون : وبهذا الزمن نسخت بالجرة .

د - شؤون متفرقة

في الكتاب شؤون كثيرة متفرقة نشير الى بعضها ، في حدود المختصر الوافي :

- ففي مادة اجير أوضح المؤلفون أن الصناعات في دمشق كان للمشتغلين بها ثلاث مراتب : المعلم ، والصانع والاجير . وأوضحوا صفات كل واحد منهم (٣٥/١) .

- وفي مادة اسكافي (٣٨/١) وهو من يخصف النعال القديمة اشار المؤلف الى أن حصر تركة اسكاف ، اخرجوا من بين المتروكات كيسا فيه



دمشق المسمى بـ « الدقايق » ، وقد ازيل منذ سنوات ، وصار مكانه قهوة ، وسبب ازالته ان الجيرة تضجرت من كثرة الدق ، وزعم رؤساء البنائين بمجلس البلدية ان هذا الدق يضر بالبنيان والجدر ، فازيل لهذا السبب ، ثم تفرقت اهل هذه الحرفة الى خانات مخصوصة .

- وفي مادة ديمجي (١٤٨/١) اشار الى انها حرفة رائجة جدا ، الا انها كسوة اهل بلدتنا وغيرها من الفقراء .

- وفي مادة دهان (١٤٨/١) ذكر الى حدوث تزيين جدران البيوت بالصور .

- وفي مادة راعي (١٥٢/١) خص المؤلف ذكرها ومنافعها .

- وفي مادة رمال (١٥٧/١) ذكر مساويء ضرب الرمل ، الذي يتعيش به هؤلاء الدجالون .
- وفي مادة زجاج (١٦٤/١) ذكر قيام اول معمل للزجاج عام ١٣٢٨ - ١٩١٠ ثم التآمر على هذه الصناعة الوطنية العظيمة ، واغلاق المعمل .

- وفي مادة زمار (١٦٨/١) تحدث عن الجعيدي الذي يلعب القُرود ويزمر لها .
(٢٢٨/٢)

- وفي مادة زهوراتي (١٦٩/١) اشار المؤلف الى شرف هذه الصناعة ، واشاد بذوق أهلها ، وبذوق الشاميين في تزيين بيوتهم بأنواع الزهور ، وعنايتهم بها ، وان أكثر القائمين بهذا العمل ، هم من أهل الصالحية .

- وفي مادة سائس (١٧٦/١) ذكر ان أكثر السياس من المصريين .

وتوسع في الموضوع في مادة ضررمجي (١٨١/١) وذكر انها محدثة ، وكيفية صنعها .

- وفي مادة حبال (٩٠/١) ذكر اصل المثل القائل : « طالعة على قلب دوما » وهو المثل الذي يضرب حينما يخون أحد الشريكين شريكه الآخر ، ويظهر الشركة بمظهر الخاسر .

- وفي مادة حمامي (١٠٧/١ - ١١٢) اشار الى أوضاع الحمامات وعمالها ، وعددهم ، وأوضح عمل كل واحد منهم : الناطور - والتبع - والمصوبن - والقهوجي - والاجير - والوقاء - والزبال .

وتحدث عن حمامات النساء وعائلاتهن وهن : المعلمة - الاسطة - والبلانة - وزقافة البارد - والناطورة .

وأشار الى تحول حمام القيشاني الى سوق ، وهو من أجمل حمامات دمشق وأشهرها . وكان تحوله عام ١٣٢٥ .

- وفي مادة حكواتي (١١٢/١) اشار الى ان غالب الناس ينكبون على استماعه أكثر من انكبابهم على العلم ، وانه كان الناس يأتون بالحكواتي الى البيوت ليؤنسهم بقصصه بأجرة مخصوصة ، وقد بطل ذلك من زمان بعيد .

- وفي مادة خياط (١٣١/١) تحدث المؤلف عن آلة الخياطة (الماكينة) وما احدثت من ثورة في عالم الخياطة ، وهي من اشعار الفرنج ، ذات دولاب ، وآلات ، مما يبهر العقول .

- وفي مادة دقاق (١٤٤/١) قال المؤلف : ولهذه الحرفة السوق الكائن برأس البزورية من بلدة



- وفي مادة سائل (١٧٧/١) تحدث المؤلف عن أنواع السائلة واقسامهم ، وتوسع في سرد احوالهم وأوضاعهم ، وكشف حيلهم ودسائسهم ، بأسلوب مسجع جذاب ، فكان مما قال :

فمنهم من يظهر المشيخة والتلبيس ، ويأخذ مالهم بحيلة التكبيس .

ومنهم من يدعي الافلاس ، ويظهر ورقة تحكي انه من ابناء الناس .

ومنهم من يدخل على الكبار بمجمع تمر أو مجموعتين ، ويدعي انه من اكابر أهل الحرمين .

ومنهم من يأخذ بالسفه والفجور ، وهي من أفضح الامور .

ومنهم من يأخذ بثنكيس رأسه ، وبتصعيد أنفاسه .

ومنهم من يأخذ بالخشوع والخضوع ، وكثرة البكاء والدموع .

ومنهم من يأخذ بالتخليط والرجف ، ويظهر انه من أهل الولاية والكشف .

ومنهم من يحتال على كثير من الناس بكشف البدن والرأس .

ومنهم من تراه كالعلوج ، يظهر للناس انه مقعد أو مفلوج .

ومنهم ... ومنهم ...

قلت : وربما كان هذا البحث جديرا بدراسة مستقلة .

- وفي مادة اشناني (٢١٦/٢) اشارة الى ان بعض الفقراء يفتسلون بهذه النبتة (الاشنان) .

- وفي مادة برازقي (٢١٨/٢) اشارة الى عناية الناس بالبرازق في شهر رمضان .

- أما مادة تهلجي (٢٢٢/٢) فقد أوضح المؤلفون فيها ما هي « الهليلة » ؟ انها عنوان على الاجتماع على قراءة القرآن والاذكار التي تقام بعد وفاة المتوفي . وشرح المؤلفون ما يقدم فيها من الحلوى كالعوامة (يراجع قلا العوامة ٣٦٢/٢ ، وعواماتي ٣٢٤/٢) وذكر أنواع ما يقرأ كآناشيد الششتري والاكرامية ومنظومة الدريد أو البكري ، ووصف ضجة الذاكرين ، وأوضاعهم وهم قعود أو وهم قيام .

- وفي مادة شعباني (٢٢٤/٢) اشار المؤلفون الى هؤلاء الذين يدجلون على الناس بلعبهم بالشعابين ... (راجع أيضا : عقاربي ٣١٥/٢) .

- وفي مادة جرادقي (٢٢٧/٢) أكد المؤلفون انها لا تصنع الجرادق ولا تباع الا في رمضان .

- وفي مادة حميماتي (٢٢٩/٢) تحدث المؤلفون عن هؤلاء الذين يطيطرون الحمام (راجع ايضا مادة طيوراتي ٢٩٧/٢) .

- وفي مادة راقي والمكبس (٢٣١/٢) اشاروا الى حيلهم ومساوئهم .

- وفي مادة سفره جي (٢٣٧/٢) ذكروا انه لا يوجد الا عند الاكابر في اللوكندات .

- وفي مادة شحاذا (٢٥١/٢) اضافوا الى ملفات مؤلف الجزء الاول في مادة سائل (١٧٧/١) .

- وفي مادة شربتجي (٢٥٢/٢) اوضحوا صنعة الذي يحمل 'لحق ويدور في الاسواق يسقي الناس الشرابات .

- وفي مادة شماع (٢٥٨/٢) ذكروا ان أهل الزوج يحضرون ليلة العرس شمعة كبيرة .



- وفي مادة قواد (٣٦٩/٢) تحدثوا عن
عرصة الاكابر وعرصة العامة .

- وفي مادة فوال (٣٧٠/٢) اشاروا الى ان
غالب الفوالين من المصريين .

- وفي مادة قاووقجي (٣٧٣/٢) وصف لجميع
انواع اليبسة الرأس التي كانت معروفة في دمشق .

- وفي مادة قلبقجي (٣٧٩/٢) وصف للقلب .

- وفي مادة كركوزاتي (٣٨٤/٢) وصف لعمل
خيال الظل الطريف .

- وفي مادة كلاب (٣٩١/٢) حديث عن
كلاليب الحبائز وأفاعيلهم .

- وفي مادة كندرجي (٣٩٤/٢) حديث عن
دخول الكنادر الى مدينة دمشق .

- وفي مادة مجلخ (٤١٦/٢) اشارة الى ان
الذين يتعاطون هذه الحرفة في دمشق هم فقراء
الافغان .

- وفي مادة مجرى (٤١٧/٢) وصف لعمله
يوم ختان الطفل .

- وفي مادة مزعبر (٤٣٤/٢) تعداد لانواع
الزعبرة كالسيمياء والرنجيات وغيرها ، وحديث
عن غزو المزعبرين الافرنج لمدينة دمشق
واعمالهم .

- وفي مادة مسحر (٤٣٩/٢) وصف لواجباته
في رمضان .

- وفي مادة مشبب (٤٤٣/٢) حديث عن
عزفه على الناي .

- وفي مادة صناديقي (٢٧٢/٢) تحدثوا
مفصلا عن تجهيز العرائس .

- وفي مادة صيدلاني (٢٧٩/٢) بينوا الفرق
بينه وبين الاجزاجي - انزل يهتم بالعقاقير
العربية القديمة ، والثاني عالم يهيء العلاجات
الاوروبية التي يصفها اطباء .

- وفي مادة عجائبك عجائب (٣٠٢/٢)
يصف المؤلفون صندوقه وما فيه واقبال الصغار
عليه خاصة .

- وفي مادة عراف (٣٠٤/٢) يتحدثون عن
المنجمين وأباطيلهم (راجع مادة رمال ١٥٧/١) .

- وفي مادة عشا (٣١١/٢/١) اشاروا الى
انه لا يوجد الا عند الاذوات وفي اللوكندات .

- وفي مادة عطري (٣١٣/٢) اشاروا الى
كساد هذه الصناعة بعد ان زاحمتها (اللاونده)
الاوروبية .

- وفي مادة علبى (٣١٨/٢) تحدثوا عن
المجامع التي يصنعها العلبى لوضع اصناف
السكاكر الهدايا والاعراس والاولاد المختونين .

- وفي مادة غرابيلي (٣٢٦/٢) اشاروا الى
ان صنع الغرابيل من اختصاص النور .

- وفي مادة قانونجي (٣٤٦/٢) تحدثوا عن
الافراح في البيوت وعن نوبة الآلات .

- وفي مادة قباقيبي (٣٤٨/٢) ذكروا انواع
القباقيب التي رالت ، سوق القباقيب ، وان
القباقب الحالي مقتبس عن الشراكس .



- وفي مادة مصور (٤٤٥/٢) اشارة الى تاريخ التصوير بالفوتوغرافيا .

- وفي مادة مضمك (٤٤٩/٢) حديث عن المهرج وعن المسخن ، وعن نفاق امره عند الاكابر .

- وفي مادة مغني (٤٥٩/٢) حديث عن رواجه في الربيع والصيف في المنتزهات وكذلك في البيوت شتاء .

- وفي مادة مقرئ (٤٦٢/٢) حديث عن واجباته في المآتم .

- وفي مادة ممثل الروايات (٤٧٠/٢) حديث طويل عن رواج هذه الصناعة عام (١٢٩٥ - ١٨٧٧) .

هذا ما أستطعت العثور عليه من الفوائد في كتاب قاموس الصناعات الشامية فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي لمدينة دمشق ، وربما فاتتني اشياء يمكن ان يعثر عليها محيري من الباحثين .

- (١) راجع على سبيل المثال مادة بوابيجي ٥٧/١ .
- (٢) ٣٧/١ .
- (٣) ٣٧/١ .
- (٤) ١٣٤/١ وما بعدها .
- (٥) ١٥٤/١ .
- (٦) ٤٠٣/٢ وهي الفاتحة الواردة ذكرها في ٤٧٨/٢ .
- (٧) ٤٠٨/٢ .
- (٨) ٤٢١/٢ .
- (٩) ٤٦٩/٢ .
- (١٠) ٤٨٧/٢ .
- (١١) ٦٩/١ .
- (١٢) ١٠٣/١ .
- (١٣) ٢٢/٢ .
- (١٤) ٢٣٠/٢ .
- (١٥) ٢٣٩/٢ .
- (١٦) ٢٧٤/٢ .
- (١٧) ٣٢٣/٢ .
- (١٨) ٣٦٤/٢ .
- (١٩) ٢٤٩/٢ .
- (٢٠) ٣٦٧/٢ .
- (٢١) ٤٢٩/٢ .
- (٢٢) ٤٧٩/٢ .

يصدر قريبا عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

عدد خاص من مجلة

الآداب الأجنبية

« عن الحركة الشعرية في العالم »

وتوجه المجلة الى الاساتذة المترجمين في الوطن العربي
لموافاتها بترجمات وابحاث حول هذا الموضوع



الوحدة في الحضارة العربية

د. عفيف بهنسي

المديرة العامة للآثار والمتاحف



وتتركب شخصية كل أمة ليس من التكوين العرقي لأفرادها ، بل من مجمل عطاءات هذه الأمة وعقائدها ، فالدين والفن والعلوم والسياسة والتركيب الاجتماعي هي صورة الأمة المشخصة . ومن هنا كان التلازم قويا بين الأمة والحضارة ، فالأمة قوية وعظيمة ليس بنقاوة سلالاتها ولكن باتساع وعمق حضارتها وثبات هذه الحضارة .

فلقد كانت الحضارة المصرية عظيمة لان الطبيعة والانسان اندمجا في صورة خالدة تجسدت في أوابد راسخة تتحدى الفناء . وكانت الحضارة الراهدية والسورية خالدة لانها مستمدة من قوة الانسان المؤمن بالمستقبل المتمثل بالالهة السماوية . أما الحضارة الاغريقية والرومانية فلقد كانت عظيمة بمقدار ماكان السبب عظيما ، فهي نتيجة دائمة للسؤال الفلسفي والبحث المنطقي أو نتيجة للرغاء المادي ، ولقد زالت بزوال الاسباب العارضة ، واذا استمر شكلها فلان ورثة الفكر الاغريقي كانوا يبحثون عن ملجأ لافكارهم المكرورة والموروثة عن سابقينهم . وهكذا فان الحضارة العربية قد خضعت لفكرة

عندما نتحدث عن الحضارة فان المعنى يشمل آثار الانسان في مجموعة بشرية معينة نطلق عليها اسم الأمة . فالحضارة عطاء قومي له شخصية وطابع الأمة التي ينتسب اليها ، سواء اكان هذا العطاء معماريا أو تشكليا أو فكريا أو عقائديا .

ان حصيلة هذا العطاء عبر العصور أو عبر الحضارات المتعاقبة يشكل ما يسمى بالتراث وعلى اختلاف الظروف التاريخية واختلاف التأثيرات الطارئة التي تسببها التحولات السياسية فان هذا التراث يرتبط برباط قوي بمعنى الأمة . بل أن خصائص الأمة وشخصيتها أصبحت تعرف من خلال مفردات هذا التراث الذي يتجلى على سطح أو باطن رقعة معينة من أرض كانت في فترة معينة مهدا لأمة من الامم .

ولسنا من القائلين بالتفوق العنصري لاية أمة من الامم ، ولكن لابد من القول بأن لكل أمة خصائص متميزة تتجلى في تاريخها وحضارتها .

العربية تتسم بصفة الاستمرار والمقدرة الخارقة على البقاء ، على الرغم من جميع ظروف التخلف والجمود ، ويكفي أن تكون هذه الحضارة ، أقدم حضارة وجدت على الأرض ، وأطول الحضارات عمرا ، وأقدرها على التغلب على عوامل الانحطاط والاندثار .

ومن حسن حظ الامة العربية أنها تحتفظ بتراث حضاري كشفت عنه الآثار المعروفة أقل ما يقال فيه أنه يمتاز عن غيره بالامور التالية :

أولا - الاصالة :

تمتاز الحضارة العربية بارتباطها بأمة أصيلة ما زالت قائمة حتى اليوم ومنذ بداية التاريخ ، محتفظة بخصائصها وتقاليدها وعقائدها ولغتها وبملاحمها العرقية .

فلقد سكن بلاد الرافدين وسورية شعوب عربية أطلق عليها اسم الاكاديين والبابليين والعموريين والاشوريين ، ثم الاراميين والمناذرة والغساسنة والعرب المسلمين ، وجميعهم من أرومة واحدة لا مجال للطعن فيها ، وهم يتكلمون لغات اذا لم تكن واحدة ، فهي أشبه باللهجات ، فيها من الكلمات الموحدة أكثر ما بينها من الكلمات المختلفة .

وهذه اللغات او اللهجات ، اذا كتبت بالخط المسماري أولا ، فأننا نرى تطورها عبر الكتابة الاوغاريتية الى الكتابة الآرامية ، والنبطية المصدر الاساسي لكتابتنا العربية القائمة حتى الآن ، وقد بلغت من العمر حوالي ألفي عام على الأقل . واذا دققنا في اسلوب العمارة والفن ، فأننا

المصير وليس لهبدأ العلية . وليست فكرة المصير بعيدة عن مفهوم الحضارة في العصر الحديث ، بل هي تأخذ شكلا أكثر وضوحا ، ذلك أن المصير بتفسيره الحديث هو وحدة الفرد مع الكون . أي أن المصير ليس الكون كذا هو ، بل هو كذا يمكن أن يكون بفعل الانسان ، لذلك فإن المصير هو عمل ابداعي مستمر ، وبهذا المعنى يمكن أن نفسر الحضارات والحضارة العربية بصورة خاصة والتي قامت على موقف الانسان من الكون وما وراء الكون وعلى التعامل مع هذا الكون عن طريق الحدس والروح وليس عن طريق المنطق الرياضي والقوانين العلية ، انه يتعامل مع الكون على أساس أن الفرد هو جوهر الكون لان الفرد هو الزمان ، وكل ما عداه هو المكان أو ما يقرب من المكان ، حتى الحيوان فانه يخرج عن معنى الزمان لانه لا يدرك دوره في الحياة . ومع ذلك فإن الانسان يخشى ويهاب الزمان الحقيقي ، والزمان بذاته ، لانه العلامة الوحيدة لتجاوز المقدرة البشرية . ولذلك فإن الانسان يسعى وراء المثل الأعلى المتجسد بمفهوم الرب لكي يتخطى تحدي الزمان . ونستطيع القول أن الحضارة العربية منذ نشوئها في بلاد الرافدين وحتى اليوم ، انما ترتبط بمثل أعلى ، أو بمعنى آخر ، هي من صنع الانسان الذي يسعى وراء المثل الأعلى الذي يتصوره من خلال الاله في السماء ، والذي يسمو على كل قوة وارادة . وهو فوق الزمان والمكان وعلى ذلك فإن المصير ذاته مرتبط بالله أي بالمثل الأعلى ، والانسان في الحضارة العربية ما هو الا القوة التي تنفذ ارادة الله ، ولان الله قوة سرمدية خالدة غير قابلة للفناء والضعف ، فأننا نرى الحضارة

صغيرة تمثل آلهة الخصب ، وعلى أواني من الطين المشوي ، وهذا يعني أن العبادات كانت موجودة منذ أحد عشر ألف عام ، وأن صناعة الطين المشوي كانت قائمة قبل التاريخ ، وأن ثمة فنونا على غاية من الروعة الابداعية كانت قائمة ، كل هذا يدل على أن هذه الارض تبقى أكثر مناطق العالم عراقا وقدماء .

ثالثا - وحدة التاريخ :

ان هذه الحضارة الاصيلة العريقة ، تمتاز بوحدة عبر الزمان مهما اختلفت العصور ومهما تباعدت المناطق ، ويكفي القول ان المنشآت التي تنتشر اليوم في شمالي سورية وهي قباب عالية من اللبن ، هي نفسها بشكلها ومادة انشائها ، القباب التي كانت تقام قبل خمسة آلاف عام ، كما ان مفهوم البيت بانفتاحه الداخلي ، ومفهوم الزيقورة الذي تطور الى مذنة وأساليب التغطية التي تطورت فيما بعد بشكل عقد أو قوس أو قبة ، أو مفهوم التمثال الرمزي الذي وجدناه عند الاكاديين والاموريين والكنعانيين ، كل هذا يعطينا الدليل على الوحدة التراثية الواضحة بين الآثار على اختلاف اساليبها التي تنتسب الى عصور النطوف أو عبيد أو تل حلف أو الوركاء أو الى عصور البرونز اللاحقة .

رابعا - التشكل الكاذب :

ان هذه الحضارة تحتوي شواهد وآثار كانت قد وفدت مع السلطة المحتلة أو الحاكمة ، وقد أدى هذا الاحتواء الى تطعيم الفنون والعمارات المستوردة بالشخصية القومية ، نرى ذلك واضحا

نرى أن تقاليد الفن الراهدي استمرت قائمة حتى يومنا هذا مؤثرة ايضا في الفنون الساسانية والبيزنطية ذاتها ، التي كثيرا ما تردد تأثيرها على الفن الاسلامي ، دون أن يخطر في ذهننا الحديث عن مصادرها العربية الراهدية القديمة . أما العقيدة فلا بد من القول أن العبادة السماوية كانت قائمة منذ عهد الاكاديين في الالف الثالث ، وأن ابراهيم الخليل الذي ولد في اوركان قد نقلها الى البلاد المقدسة واصبحت اساسا للعبادة التوحيدية في الديانات كلها .

ثانيا - القدم :

لقد كانت آثار الراهدين ومصر فاتحة التاريخ ، وان الحضارة التي وصلت اليها هذه المنطقة العربية كانت من الضخامة والتقدم حتى أننا نعجز اليوم عن مضاهاتها في غناها وتنوعها والتفنن فيها .

ولقد كان على الغرب ان ينتظر آلاف السنين حتى يقيم ما يسمى بالحضارة الاغريقية الرومانية التي تجمدت في قوالب نظرية وهندسية لم تستطع الخروج عنها والتطور الى ابعد منها حتى القرن الماضي .

ويكفي القول أن الحفريات الاخيرة التي اجريت على ضفاف الفرات في سورية قد أثبتت أن التجمع السكاني البشري وجد منذ الالف التاسع قبل الميلاد . فلقد عثر على مستوطن مبني من اللبن المدعم بالخشب في موقع المريبط ، وتبين أن جدران هذه المساكن كانت مطلية بالفريسك الملون ، وعثر في الانقاض على تماثيل

سكان الرافدين على الطين لفقدان الحجر
ويتعرضون الى الطوفان الساحق كل عام . ولقد
كان لهذه الظواهر اثرها على العقيدة ، فالناس
في العراق القديم يراقبون السماء ويستجلون
الانواء ويسبحون بحمد الكواكب التي تكشف لهم
اسرار الغيب ، أما الناس في مصر فيتأملون النيل
الذي يغمرهم بخيرات ثابتة فيرون فيه حبات
دموع ايزيس باكية على زوجها اوزيريس .

وتتأثر العبادات بهذا الواقع الطبيعي ، كما
تتأثر العمارات والفنون مما يكون شخصيتين
متميزتين . على ان اللقاء لم ينقطع بين هذه
وتلك ، سواء عن طريق الحروب أو عن طريق
المصاهرة وتبادل الهدايا والتجارة ، وتشهد على
ذلك اللقى الكثيرة من جعران وأثاث وتمائيل
مصرية عثر عليها في سورية كما تؤكد ذلك
كتابات ورسوم عثر عليها في واجهات وجدران
المعابد المصرية .

كما يشهد على ذلك التقارب في الاسلوب
الفني الذي نراه واضحاً في كثير من الاعمال
القديمة أو التأثير الواضح بالفن المصري الذي
كانت سورية وسواحلها الغربية حيث استمد
الاوغاريطيون والفينيقيون الكثير من مظاهر الفن
المصري . وكانوا نقلته الى غيرهم من الشعوب .

سابعا - وحدة اللغة :

اذا كان الاسلام ذروة من ذروات الحضارة
العربية ، فان هذه الحضارة كانت قائمة منذ أن
كان الوجود العربي ، بل منذ أن انطلق اسلافنا
العرب من جزيرتهم العربية الى بلاد الرافدين

في الحضرة (العراق) وتدمر (سورية) وفيلكا
(الكويت) وفي معابد دندرة وفيلة (مصر) حيث
ظهر التأثير الهلنستي والروماني بقوة السلطة
مكونا تشكلا كاذبا ، ولكنه لم يلبث أن أخذ طابع
الشخصية المحلية التي تميزه عن مفهومه
الكلاسيكي المعروف .

خامسا - وحدة الاسلام :

لقد اعطت هذه الحضارة العريقة خصائصها
الى الحضارة العربية الاسلامية التي
استطاعت في فترة وجيزة جدا أن تصل الى أعلى
عهود الازدهار والى أن تكون شخصية جديدة
تأخذ مبادئها من خصائص الامة العربية ، ومن
معاني الدين الاسلامي ثم تشع على أكبر رقعة
تمتد من الفانج الى الاطلسي ، تدين بدين واحد
وتتنسب الى مفاهيم فنية واحدة ، وتتغذى من
مصدر قومي عربي ، فلقد وصل الفن الاسلامي
الى أسمى آياته في بلاد فارس وبلاد الاندلس ،
حاملا معه هوية الامة التي رفعت لواء الاسلام
ونشرته بلغتها وخطوطها التي ترسخت في كل
مكان .

سادسا - وحدة الارض :

ان هذا التراث الحضاري الذي تكشف عنه
الآثار قد نشأ على أرض محددة تمتد من الرافدين
الى النيل ، وهو اذ تجلى بشخصيتين متميزتين ،
الشخصية الرافدية - والشخصية المصرية
القديمة ، فانما يرجع ذلك لاختلاف الظروف
الجغرافية والطبيعية فحيث توجد مقالع الفرائيت
وتزدهر السهول بخير النيل العظيم ، يعتمد

زالت قائمة حتى الآن في بعض المدن والقرى العراقية والسورية والمصرية ولكن بلهجات مختلفة . واللغة الآرامية هي تطور للغة الأكادية والعمورية وقريبة من اللغات الكنعانية وهي مرحلة الى اللغة العربية الحالية ، بل ان كتابتها هي أصل الكتابة العربية المعروفة .

وعندما ظهر الاسلام وتحقق التوسع العربي الكبير انتشرت اللغة العربية في كل مكان كان العرب فيه هم السادة ، بل لقد استمرت مع استمرار الاسلام والعروبة في فارس والهند وأذربيجان وتركيا وفي بلاد الاندلس . فكان انتشار اللغة العربية رمزا لانتشار الثقافة العربية .

ولقد تغلب العرب على الفرس في حملات ضمت أربعين ألفا من الرجال والنساء والاحداث واحتلوا دولة الفرس وسلطانهم وقصورهم وحلت العروبة محل الفارسية وأصبحت اللغة العربية هي السارية وأصبحت لسان الادباء والعلماء ولغة الثقافة ، بل هي لغة أكثر العوام . وعلى الرغم من ظهور النزعة الفارسية في عهد العباسيين وظهور قوى فارسية معادية كالقرامطة ، فان الاعلام من الفرس كانوا يفتخرون بانتسابهم الى العربية وما كانوا يكتبون ويؤلفون الا بلغة القرآن ، وأصبحت العروبة كما يقول ايتنهاوسن مرادفا للحضارة التي نشأت في الامبراطورية الاسلامية الواسعة في القرون الوسطى وكانت في البداية قوة عسكرية وسياسية في الجزيرة العربية والتي ارتبطت الى حد كبير برباط اللغة العربية ، (لغة الدين ، والادارة ، والعلم ،

سعياء وراء الماء والكلأ فأنشأوا فيها الحضارات المتتابعة التي ما زالت آثارها قائمة حتى الآن ، هالحضارة العربية لم تبتدىء في القرن السابع بل هي موجودة منذ الالف الثالث ق.م واستمرت تحمل جميع خصائص الامة العربية حتى يومنا هذا . وتتجلى شخصية هذه الحضارة الموحدة في عاملين : عامل وحدة اللغة وعامل وحدة العقيدة .

فلقد تبين بعد أن تمكن راولنسون من حل رهوز حجر بهابفستون أن الكتابة المسمارية قد استخدمت للغات أخرى غير اللغة السومرية . واذا كانت هذه اللغة ما زالت مستقلة ، فان اللغات الأخرى التي كتبت بالمسمارية كالاكادية والآشورية والعمورية والاوغاريتية لم تكن في الواقع الا لهجات للغة واحدة استمرت شائعة عند الكنعانيين والآراميين والاحباش ، وتعتبر اللغة العربية الحالية ، اكمل هذه اللغات وهي اللغة المقاييس لتحديد العلاقة بين هذه اللهجات التي تختلف فيما بينها ببعض المفردات وتتقارب في جذر الافعال وصيغ الماضي والحاضر والضمائر والاعداد وأسماء اعضاء الجسم ، ولقد استطاع الاوغاريتيون والفينيقيون ابتكار الابجدية ، وهي مؤلفة من اثنين وعشرين حرفا مسماريا ، ثم انتقل الحرف من الشكل المسماري الى الشكل اللين ولقد سرت اللغة الآرامية في بلاد آشور وطغت على اللغة التي كانت شائعة وهذا ما دعا الى تسمية اللغة الآرامية باللغة السريانية نسبة الى آشور . ثم اصبحت الآرامية لغة الهلال الخصيب كله والمتمد من رأسين البصرة شرقا وطيبة في مصر غربا . واستمرت هذه اللغة الى عهد المسيح وما

والبرتغالية ذات الاصل العربي ويذكر سيديو Sédillot « أن اللهجات السائدة لولاية اوفرن وولاية ليمون الفرنسيتين مليئة بالكلمات العربية ، وان اسماء الاعلام فيهما ذات مسحة عربية » .

ثامنا - وحدة العقيدة :

اما وحدة العقيدة فانها تتجلى في العبادة التوحيدية التي وجدت جذورها الاولى منذ بداية وجود الرافدين .

منذ الالف العشرين قبل الميلاد تعرضت الجزيرة العربية لتغيرات مناخية حبست عن اجزاء خصبة منها المطر ، ثم توالى الفترات الجافة على هذه المنطقة مما أدى الى هجرات متواصلة نحو الشمال لعل أحدثها هجرات قبائل شمر وعنثرة ، وكانت قبلها قد نزحت قبائل أخرى عرفت بالمناذرة والفساسنة وقبلهم الانباط ، والتي شكلت حضارات هازالت آثارها واضحة في الحيرة (العراق) وبصرى (سورية) والبتراء (الاردن) . على أن الهجرة الأكثر أهمية كانت في الالف الثالث ق.م حيث استطاع الأكاديون الذين نزحوا من أطراف الجزيرة العربية الشرقية الى جنوبي وادي الرافدين ، حيث وجدوا شعبا أطلق عليه اسم سومر ، كان قد وصل الى مستوى جيد من الحضارة منذ منتصف الالف الرابع قبل الميلاد ، فلقد عرف الزراعة والرعي ، وعرف صناعة المعدن والتجارة مع مصر ووادي السند ، ولقد عرف السومريون الكتابة التي أطلق عليها اسم المسمايرية وهي حفر على ألواح الطين بحسبما عرف السومريون التقويم والحساب والموازين وأقاموا المعابد على شكل صوامع

والشعر) ، وهذه الحضارة لم تتكون استنادا لعصبية قومية ، وانما بوجود وعي واضح بين المسلمين في العصور الوسطى على اختلاف قومياتهم ، وهو وعي يؤكد بانتمائهم الى حضارة عربية قدسية المنبع ، وربما هذا الامر هو الذي عبر عنه العالم الكبير البيروني (المتوفى ١٠٤٨م) والذي جاء من منطقة متاخمة هي خوارزم (التي تقع اليوم في جمهورية قرقول باك السوفياتية المتمتعة بالاستقلال الذاتي) والذي قال : ان ديانتنا وامبراطوريتنا عربيتان وتوأمان ، الاولى تحمينا قوة الله ، والثانية تحرسها يد السماء فلطالما حاولت طوائف من الرعايا أن تتألف سوية لاصفاء الصفة غير العربية على الدولة لكنها لم تنجح في هدفها ذاك . لقد كانت اللغة العربية بالنسبة له هي لغة الدين والعلم ، وهي أعظم وسيلة للتماسك ، وقد أعرب عن غيرته على هذا العنصر الحيوي في حضارته بقوله « من الأفضل له أن يشتم بالعربية من أن يمتدح بالفارسية » ولقد استمرت الكتابة العربية سارية في اسبانيا بعد نزوح العرب عنها وكان المسلمون المغاربة (الموريسك) يتداولون هذه الكتابة في نطاق الادب والتعليم الدينية وقد أطلق عليها اسم الادب الاعجمي أو الجبيادو Literatura aljamiado ، ولقد عثر على مخطوطات كثيرة جدا في أرغن وهي محفوظة حاليا في مكتبة في مدريد ، وتضم هذه المخطوطات وثائق قانونية واشعارا في مدح الرسول وصلوات واساطير وقصصا كتبت كلها بحروف عربية ولكن بلغة اسبانية ، وترسخت المصطلحات العربية في اللغة الاسبانية وما زالت حتى اليوم ، فلقد ألف دوزي وانغلن معجما للالفاظ الاسبانية



(زيقورة) ذات طبقات في أعلاها حرم لاله الهواء
 أنليل ولقد عثر على آثار هذه الزيقورة في نيبور ،
 وما زالت الابحاث جارية للتأكد من هوية
 السومريين وتحديد منشأهم ، وتفيد الابحاث
 الالهيرة التي نتجت عن حفريات في المنطقة الشرقية
 في العربية السعودية عن احتمال هجرات في الالف
 السادس ق م أي في نفس العصر الذي ازدهرت
 فيه حضارة عبيد في جنوبي العراق ولقد استطاع
 الأكاديون فيما بعد السيطرة على بلاد سومر
 بقيادة صرغون الذي وصل بتوسعاته من الخليج
 العربي الى شواطئ البحر الابيض المتوسط وقام
 حفيده نرام سين بمتابعة فتوحاته في الفرات
 الاعلى ولعل صرغون كان أقدم زعيم عربي أكادي
 استطاع ان يقيم حضارة واضحة أصبحنا نعرف
 عنها الكثير من خلال الرقم والاختام والحفريات
 الاثرية ، وكان مركزها الاساسي مدينة أور ، وفي
 مناطق مختلفة من بلاد الشام ، كانت شعوب
 عربية تعيش منذ الالف الخامس ق م أطلق
 عليها فيما بعد اسم العموريين (أي سكان الغرب)
 ولقد أثبتت الحفريات الاخيرة في تل الحريري
 (هاري) وفي تل مردوخ (ابيلا) وفي تل عطشانة
 (الااخ) وفي عمريت وغيرها على حضارة متقدمة
 وبعيدة المدى ولعل المكتشفات المقبلة ستبين
 حقائق مذهشة ، ففي عام ١٩٧٤ عثر الاثري
 مورتغارت في تل خويرة (شمالي سورية) على
 كتابة أبجدية ترجع الى الالف الثالث فاذا تأكد
 ذلك فان هذا سيقدم الدليل على عراقة الحضارة
 السورية القديمة مما يجعلها تسبق الحضارة
 السومرية ، ثم ظهرت دولة بابل في منتصف القرن

الحادي والعشرين والتي أنشأها العرب العموريون
 أنفسهم وكان حمورابي ١٩٤٨ ق م ثاني حاكم
 عربي عظيم بعد صرغون اشتهر بطول حكمه
 (٥٧ عاما) وبعهده العادل الذي قام على قوانين
 موضوعة ما زالت مصدرا لجميع القوانين حتى
 اليوم .

ومنذ منتصف الالف الثاني ق م أقام
 الآشوريون دولتهم شمالي الرافدين على أساس
 حربي دفاعي لصد عدوانات البابليين والحثيين
 والميتانيين ، وكان الآشوريون من العرب الذين
 نرحوا من الجنوب واختلط بهم الآراميون العرب
 الذين كانوا قد انتشروا في أنحاء سورية وبخاصة
 في الفرات الاوسط وفي الساحل السوري . وكانت
 المدن العربية الكنعانية قد اشتهرت بملاحتها
 الواسعة التي قامت على صناعة السفن الضخمة ،
 فانتقل التجار الفينيقيون الى شواطئ بعيدة
 وسيطروا على طرق الملاحة في البحر الابيض
 المتوسط وكانت لهم مراكز في قبرص وصقلية
 وسردينيا وكورسيكا وفي مالطا واسبانيا وعلى
 طول الساحل الشمالي الافريقي وكانت مدينة
 قرطاج في تونس أهم مركز فينيقي أو بونيقي
 كما هو معروف في شمالي افريقية . كما وصل
 الفينيقيون الى شواطئ الخليج العربي وما زالت
 قائمة مدن تحمل اسمها الفينيقي القديم ، ومن
 الفينيقيين أخذ الانعريق آلهتهم واستمدوا من
 فلاسفتهم وادبائهم ومشرعهم وعلمائهم ويذكر
 هيرودوت أن الفينيقيين هم الذين اكتشفوا ليبيا
 عندما طافوا حول افريقيا عام ٦٠٠ ق م .
 ويتحدث المؤرخون عن رحلة حانون القرطاجي في
 غربي افريقية .

وعلى ضفاف العاصي وفي الجبال كانوا قد جعلوا
(ايل) في مرتبة سامية بين الالهة •

ولقد اتخذ الهكسوس وهم من العمالة العرب
البائدة الاله (ايل) ولعلمهم نقلوا ذلك الى مصر
حيث تبناه أختاتون على شكل اله الشمس آتون
الواحد الرحيم ويؤكد ذلك أن ايل عند السوريين
القدماء كان مقره الشمس في حالة الغروب وكان
ايل اقرب الى مفهوم اله • ولقد آمن الاشوريون
بالهمم التقليدي آشور وهو باعتقادهم اله
الشمس ايضا ولقد رمزوا اليه بصورة الشمس
المجنحة ، وكانوا قد أخذوا ذلك عن الحثيين الذين
أخذوه بدورهم عن مصر ، كما أخذوا اله الحب
عشتار عن البابليين •

□ □

ولقد اتجه الرافديون القدماء الى السماء
يراقبون الكواكب ويقدسونها ويستجلون اسرار
الكون من خلالها وكانت الزيقورات صوامع يسلكها
الناس سودا على طبقات كل طبقة تمثل كوكبا
مقدسا يتدرج في الاهمية حتى يصل الى القمة
حيث يمثل الاله شمش أي الشمس وهناك يقف
المتعبدون لتقديم الاضاحي الى السماء آنو وهي
اقدم اشارة للعبادة التوحيدية في الوجود • ولقد
كان الكنعانيون في رأس الشجرة وفي المقاطعات
الفينيقية والبونيقية (شمالي افريقية) يعبدون
الاله (ايل) وهو الاله العلي العظيم اله الغيث
والمطر والخصب القادر على كل شيء وارادته فوق
كل ارادة وهو يحمي البشر من الشر والقحط •

ويمارس الاوغاريتيون عبادة هذا الاله ايضا
كما أن الاراميين الذين عاشوا في داخل سورية

صدر حديثا

من اتحاد الكتاب العرب بدمشق

زمن الاحتلال

ترجمات في ادب الأرض المحتلة

خليل السواحري

دراسة

موارد الوهم في تخطيط الكتاب

صلاح الدين الزعبلوي



لاشك أنه ليس على كاتب العربية أن يكون من جهاذة اللغة ، الراسخين في علومها ، المتضلّعين من فنونها ، المحيطين بأصولها وفروعها ، لكنه لا معدل له على كل حال ، أن يلم بأهم قواعدها ، ويتعرف أظهر مذاهبها ، ويتبين أشهر أساليبها ، ذلك لتبرأ كتابته من شوائب الخطأ ، وتنزه عن الابتدال واللفو ، وإلا فقد ينأى عن الفصحى ، أي نأى ، ويدنو من العامية : أي " دنو ! وإذا استقرّ هذا ، فلننا مع النقاد الذين أترفوا على أنفسهم فاعتزوا بعلمهم وإحاطتهم ، وقطعوا بفساد كثير مما جرت به أقلام الكتاب ، وطاعت به ألسنتهم ، بلا تأمل ، أو فضل ثبت وتحقيق . فقد اقتادهم هذا أن يحجروا من كلام الكتاب ، الصحيح الظاهر ، وينموا من أساليبهم المستقيم السائغ ، وفي ذلك مافيه من تنفير للكتاب بلغتهم ، وصرفهم عن إتقانها ، ونهيمهم عن المضي في تدارك ما ينبغي أن يحصوه من مسائلها ، أو يستبطوه من حقائقها ، من حيث قصدوا إلى إغرائهم بها ، وإرهاف عزائمهم على تخصيلها .

— فمن موارد الوهم في التخطيط مثلا أن يوجب

النقاد على الكتاب الأخذ بالأشهر والأفصح ، والصحيح أنه من أخذ بالجائز الذي لم يناهز حدّ الكثرة والشهرة ، فقد أخطأ المشهور ، لكنه لم يخطئ ، الصواب على كل حال . وليس يحل الكتاب على تخير أجود اللغتين في سائر ما يتفق لهم من صنوف الكتابة . ودونك ما جاء في المزهر للسيوطي ، وفي الخصائص والمحتسب لابن جني ، حول هذه المسألة : ففي المزهر (١ / ١٢٦) : (قال ابن درستويه : وليس كل ماترك الفصحاء استعماله بخطأ ، فقد يترك استعمال الفصحى لاستغنائهم بفصح آخر ، أو لعلّه غير ذلك) .

وفي الخصائص (١ ، ٢ ، ٣) (اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ) وفيه : (أعلم أن المذهب في هذا ونحوه أن يُعتقد الأقوى منها مذهبا ، ولا يتمتع مع ذلك أن يكون الآخر مراداً) ، وفيه : (والقول في هذا واضح ، ألا ترى أن العالم قد يجب عن الشيء الواحد أجوبة ، وإن كان بعضها أقوى من بعض ، ولا تسعه قوة القوي من إجازة الوجه الآخر ، إذ كان من مذاهبهم وست كلامهم) . وفيه : (ووجه الحكمة في الجمع بين اللغتين القوية والضعيفة في كلام واحد ،

أن يترك أن جميع كلامهم وإن تفاوتت أحواله فيما ذكرنا وغيره ، على ذكر منهم ، وثابت في نفوسهم . . . وهذا يدل أنهم قد يستعملون من الكلام ما هو أثر في نفوسهم منه ، سعة في التفسيح وإرخاء للتنفس) .
وفي المحاسب (٢٣٦/١) : (ليس ينبغي أن يطلق على شيء له وجه من العريضة قائم ، وإن كان غيره أقوى منه ، أنه غلط) .

— ومن موارد الوهم في التخطئة أيضا أن يتعلق النقاد بظاهر النص ، المدرج في المعاجم على قصد وإجمال ، وعلى اختصار وتجريد ، وفي غير تبسط وتدقيق وانطلاق . وظهور دلالات الكلم مرهون بالوقوف على قرائنها المختلفة ، والإطلال على مناحيها المتعددة ، وتبين مواقعها المتباينة في التركيب والاستعمال . ومن هنا كان من الخطأ أن يظن ظان أن عدة اللغوي : معاجم اللغة وحدها ، وأن مفاته : نصوصها المنقولة ، ومصادره : كتب النحو ومطولات الصرف وما إليها ، والصحيح أن مراجع اللغوي : كل ما ذكر : ، وهي إلى هذا وذاك : متون التفسير والحديث ، وكتب الأدب ، ودواوين الشعر ، وصحف الرسائل والرقاع ، ومصنفات القوم في التاريخ والأخبار والأسفار ، بل مؤلفاتهم في مختلف العلوم والصناعات .

فعلى الناقد ألا يتلصص معاني الكلم في نصوص المعاجم وحدها ، بل عليه أن يبتغيها من معالمها الأخرى ويتطلبها من مآتيها المتباينة ، ويؤديه هذا إلى البحث عن أوجه تصرف الكلم في متنوع النصوص المنقولة ، وحدود دلالاتها في سائر الموضوعات المطروقة . كما يؤديه إلى التماس وجوه التقلب التي تلابسها على مر الزمن وصور التجدد في أغراضها وراميها ، وتحولها عن أرومتها التي انبعثت منها ثم تناءت

واتبذت حتى خفي أمرها . وأنت قد تنكر هذا التجدد والتحول في معانيها ، أول الأمر ، لو اتفقا لك مجردين ، وتسيغهما بالبشر والإيناس ، لو ظفرت بهما في وضع من التركيب تشفى بقرائنه وجه الانحدار إليهما . ومن موارد الوهم في التخطئة . أن يلمح بعض أصحابنا مثالا قد ذكر في المعاجم على جهة التمثيل فيحسب أنه على جهة الحصر والتخصيص ، ويقطع بقصر ما جاء منه على المثال المنقول ، وهو لو أعمل الفكر وعارض النص بالنص ، والتبس تصرف المعنى وتدرجه في مختلف كتب الأدب ، لأدرك خطأ ما ذهب إليه ، في غير كلفة أو عناء .

ومن موارد الوهم . أن يقسو بعض النقاد فينكر على الكتاب ما لا يشك في صلاحه وصحته من صور المجاز لشيوعها في اللغات الأجنبية ، بل يشتد حتى لا تطيب نفسه بأسلوب الكلام حتى يسمع مجازة عن العرب بنصه ولنظمه ، وهو ما يستبعد الأخذ به والتعويل على سننه . فالذي تلاقت على قبوله أكثر الأئمة أنه لا يشترط في الكلام المتجاوز به أن يسمع أو ينقل ، بل يكفي فيه أن يحمل على مألوف العرب في تجاوزاتهم . وهم قد حددوا جهات المجاز وتقلباته في كثير من التبسط والتحصيص ، ليسهل الأخذ بما نهجوه ، ويتهيأ النسيج على غرار ما حكموه ، فيكون هذا عيارا في جميع ما يرد على الكتاب من صوره .

★ ★ ★

هذا وأكثر ما يعيب به النقاد كتابنا تصرفهم في استعمال حروف الجر ، في غير تدبر أو تحقيق . وسترى أنهم قد أنكروا عليهم في ذلك ، سائفا لاشبهة فيه لناظر ، ومستقيما لاطمن به لغامز ، ونسقتصر الكلام هاهنا ، على ما يتصل بهذه الحروف ، ونأتي

في الأول ، والمساعد عليه في الثاني ، فهو (الصعوبة) التي تعترض (الانشاء والادارة) غالبا ، وإنما اكتفي من ذكر (الصعوبة) بذكر متعلق يغني عنها لظهور الغرض به . ونحو ذلك ما جاء في التنزيل : (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر - الأنفال / ٧٢) فانه على الظرفية المجازية ، والمستنصر عليه هاهنا أعداء الدين ، وقد حذف لظهور الغرض بما ذكر .

واظر الى قول الرسول الأعظم ﷺ : كل سلاقي عليه صدقة كل يوم يمين الرجل في دابته يحامله عليها ويرفع عليها متاعه ، صدقة) . قال الشيخ المدوي الحمزاوي في شرح صحيح البخاري : (قوله يحامله بالحاء المهملة أي يساعده في الركوب) .

وفي حديث الأضحية : (كلوا وأطعموا وادّخروا) فان ذلك العام كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا فيها) . وقد قيل إن الضمير في (فيها) عائد الى المشقة المفهومة من الجهد ، فيكون تحرير القول : (فأردت أن تعينوا الفقراء في المشقة) ، وهكذا قول علي رضي الله عنه : (فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الإعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه) .

وغريب بعد هذا أن يمنع الأستاذ أسعد داغر قول القائل (يعاونهم في إنشائها ، ويساعدهم في إدارة شؤونها) ، قال : (وتعدية هذين الفعلين بفي خطأ صوابه بعلی) ، والصحيح ما ذكرناه ، وليس الأمر على ما قال ، فاظر الى قول قيس بن الحطيم الأوسي : وساعدني فيها ابن عمر بن عامر : زهير فادّى نعمة وأفاءها .

قال أبو علي المرزوقي في شرح ديوان الحماسة (١٨٦) : (ويكون المعنى ساعدني في هذه الطغنة زهير بن عمرو ...) . وليست (في) في العبارة بدل

بأمثلة وشواهد وبيانات متفصح عما أردنا وتبين عما ذهبا اليه ، وسنجلو في مقالات تالية ما يظهر مكنون ما هو لنا عليه ومضمون ما اتحنياه فيما قدّمنا من موارد التخطئة ، ليستبين القصد ويستبصر الطريق .

فالقاعدة في استعمال حروف الجر أن يؤخذ فيها بالسماح والقياس جميعاً . أمّا السماع فيأتي النص عليه في المعاجم ، وهي لا تتجاوزها غالباً ولا تتعداه . وأمّا القياس فمرجه كتب النحو والأهملات اللغوية والأدبية ، ففيها وجوه تصريف هذه الحروف في دلالاتها المطردة . فاذا نصّ المعجم على استعمال فعل بحرف من الحروف سماعاً ، دلّ ذلك على وقوع الفعل على الوجه المخصوص الذي حدّد له ، فاذا أريد للفعل أن يتصرف فيبين عن وجوه أخرى فلا بد من إعمال حروف استقرت فيها دلالات هذه الوجوه طرداً وقياساً .

وقد يكون من هذه الحروف المتعملة قياساً ما ينحو بالفعل الى النحو الذي يتفضى اليه الحرف المنصوص عليه سماعاً ، فيستعمل الفعل بحرفين قياسي وسماعي لقصدين متماثلين .

فأنت تقول سماعاً : أجبت عن السؤال ، ولكنك تقول الى ذلك : أجبت في الكتاب ، وبالكتاب ، وأجبت عنك ، وعلى ورقة بيضاء ، ولأمر مهم ، وعن الأسئلة من أولها الى آخرها ، كل ذلك على جهة القياس والاطتراد .

وهكذا تقول : (أعاونهم على إنشائها ، وأساعدهم على إدارة شؤونها) على التعدية السماعية ، ولكنك تقول قياساً : (اعاونهم في إنشائها وأساعدهم في إدارة شؤونها) و (في) هاهنا للظرفية المجازية ، وتخريج الكلام أن (المعاونة) تآنت في (الانشاء) ، وأن (المساعدة) اتفقت في (الادارة) . أما المعاون عليه

على ما يقع فيه اللبس أو الخفاء فتكشف عنه . لكنها لا تعاب ولا تنتقص بالقصور عن الاستيفاء اذا أغفلت القياس الظاهر المتقاد في الاصل . وانما يؤخذ القياس المطرد ويعرف مسراه بالاطلاع على ما قرره النحاة في أسفارهم بالبحث والاستقراء .

واذا أريد الاستظهار على صحة القول (يعاونهم في إنشائها) في المعاجم نفسها ، فانما يراجع فيها ما جاء عن معاني (في) ومصارفه . ففي الصحاح مثلاً : (في ، حرف خافض ، وهو الوعاء والظرف ، وما قدر تقدير الوعاء ، تقول : الماء في الإناء ، وزيد في الدار ، والشك في الخبر) . فـ (في) في قولك (الشك في الخبر) ، كـ (في) في قولك (المعاونة في إنشائها) ، وخلاصة القول أنه لا بد في الحكم على صحة تعدي الفعل بحرف من الحروف ، من مراجعة كتب اللغة من أجل استقراء وجوه استعمال الحروف الجارية في المعاني المطردة قياساً ، واعتناء نصوص المعاجم والأهمات للوقوف منها على ما خص به الفعل من هذه الحروف سماعاً . ولا يمنع استعمال الفعل بحرفه السماعي المنصوص عليه في وجهة معينة ، أن يجيء بالحرف القياسي في منحى يشابه الوجهة المذكورة أو يداليها ، وكل ذلك يحتاج الى تروئة وتدقيق .

هذا وقد قضيت العجب كيف وقع الخلاف من النقاد على تعديه (أسف) ، هل يصح أن يمدى باللام كما يمدى بعلی ؟ فنص المعاجم أبداً على تعديه (أسف) بعلی . قال صاحب الصحاح : (الأسف أشد الحزن ، وقد أسف على ما فاتته ، وتأسف أي تلهف ، وأسف عليه أسفاً ، أي غضب) ونظيره قوله تعالى : (يا أسفا على يوسف - يوسف / ١١١) . وكذا قول الشاعر :

(على) ، وإنما أغنت منهاها ، وانظر الى قول المرزوقي أيضاً (١١٧٤) : (استعن بالصبر في كل ما تزاوله وتراوده ، فان الأمور اذا انسدت طرقها وأعيت الحيل في تحصيلها ، فان الصبر يسهل مدارجها ، ويوسع موارجها ، ويفتح ما انفلق منها ، ويفتح ما ارتقت من أسبابها) ، فان (الاستماعة) بالصبر إنما أرادها : في كل أمر يزاول أو يراود ، فأغنى (في) في الكلام عن (على) واستقام القول .

وأغرب من ذلك وأذهب في العجب ، اعتراض الأستاذ داغر على قول القائل : (ويذلل عنايته في طبعها) ، قال : (والعناية إنما تكون بالشيء لا فيه) . ونحن لا نعارض الأستاذ في أن تعديه الفعل إنما تكون بالباء ، لكننا ننازعه في تعليق الحكم بصحة قول القائل ، على استعمال التعدية السماعية ، ذلك أن تحرير القول يمكن أن يكون : (ويذلل في طبعها عنايته) فيكون تعلق (في) بـ (البذل) لا بـ (العناية) ، قال الحريري في مقدمة مقاماته : (وبذلت في مطاوعته جهده المستطيع) .

هذا وقد ذهب الدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العراقي في رده على الأستاذ داغر المذهب الذي نهونا اليه في تصويب قول القائل (يعاونهم في إنشائها) لكنه قال : (فقال الناقد صوابه : على إنشائها ، لأنه لم ير تعدياً عاون في المعاجم اللغوية ، وهي غير مستوفاة البحث ولا مستقصاة التحري) .

أقول لا وجه ثمة لما عاب به الدكتور جواد معاجم اللغة في هذا ، لأن المعاجم لم تؤلف لتذكر القياس المتقاد في كل شيء ، وانما قامت لتنص على السماع ، بل على ما لا يتأتى الاهتداء اليه بالقياس . وقد تشير الى القياس لاستبانة وجه من الوجوه ، أو التنبيه

غير مأسوف على زمن

ينقضي بالهم والحزن

وقد اقتاد هذا كثرة الناقدين الى تخطئة القائل (أسفت له) وجعل الصواب (أسفت عليه) . قال الاستاذ أسعد داغر : (ويقولون هذا مما يؤسف له ، وهو شائع كل الشيوع ، فيعدون أسف باللام ولم يسمع تعديته عن العرب الا بعلى) . وقد تابعه في ذلك الدكتور مصطفى جواد فقال في كتابه (دراسات في فلسفة النحو ..) : (فانه يقال أسف على الانسان وعلى الشيء لا أسف لهما) . وقد أتى بشواهد من الشعر والنثر على تعدية الفعل بعلى . وخالف الاستاذ محمد العدناني صاحب (معجم الأخطاء الشائعة) جواداً وداغراً فأتى بما يشير الى تعدية الائمة الفعل باللام كقول أبي علي القالي في نواتره : (فوجد زوجته الثانية قد ماتت حزناً عليه وأسفاً لفراقه) . فما صواب المسألة اذا ؟

أقول اذا عدي الفعل في المعجم بحرف فليس يلزم من هذا ألا يتعدى بسواه اذا اقتضى معناه ذلك . وقد قدفصلنا القول بما قدمناه ، وأشرنا اليه غير مرة في كتابنا (أخطاؤنا في الصحف والدواوين) المطبوع عام (١٩٣٩) . ولننقل هنا ما حكاه الامام السيوطي في الأشباه والنظائر عن أبي نزار (١٧٦/٣) ، قال : (ان الفعل قد يتعدى بعدة من حروف الجر على مقدار المعنى المراد من وقوع الفعل ، لأن هذه المعاني كامنة في الفعل ، وانما يشرها ويظهرها حروف الجر) . فسا معنى الأسف في الأصل ؟ الأسف بمعنى الحزن تارة والغضب أخرى . قال ابن القوطية : (أسف أسفاً حزن ، وأيضاً اشتد غضبه) . وقال الراغب في مفرداته : (الأسف الحزن والغضب معاً ، وقد يقال لكل واحد

منهما على الافراد) . وجاء في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني (٥٠٦/٤) : (سئل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، عن الحزن والغضب ، فقال : أصلاهما واحد وذلك وقوع الامر على خلاف المحبة ، وأما فرعاها فمختلفان ، فالمكروه من فوقك ينتج حزناً ، ومن دونك ينتج غضباً) وجاء فيه أيضاً : (قال يعقوب الكندي أسباب الحزن فقد محبوب أو فوت مطلوب) . ومثل ذلك الأسف ، فكما يكون مما اتفق على المرء من فقد محبوب أو فوت مطلوب ، فقد يكون مما فرط منه من فعل فكرهه بعد أن فعله ، فيقع (أسف) موقع (ندم) أيضاً . ففي الافصح : (الندم الأسف ، ندم عليه يندم ندماً وندامة وتندم : أسف ، وندم على كذا : كرهه بعدما فعله فهو نادم) . وفي المتن : (ندم يندم ندماً وندامة : أسف ، فهو نادم وندمان) .

فاذا صح هذا ، وعديت (حزن) و (أسف) بعلى سماعاً ، كما عديت (تأسف وتلف وتحسر وغضب وندم وتندم وصبر وجزع ..) ، وأنت تقصد أن تذكر الامر الذي كان الحزن والاسف بسبب فقدته أو فوته فلك أن تختار اسلوباً آخر تقول به على القياس (حزنت لفقد فلان وأسفت لفراقه) أي بسبب ذلك أو من أجل ذلك . فافطر الى ما جاء في محاضرات الادباء للراغب : (اذا أبصروا حالي ولم يأسفوا لها : ولم يأتفوا منها أنفت لهم مني - ٣/٣٨) وقوله : (المتأسف لقلبي حيب له - ٣/٧٦) ، وما جاء فيه أيضاً : (قال الشاعر : فقد حزنت لفقدهم الشهور - ٥١٦/٤) .

وتأمل ما جاء في شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي : (لا آسف لما أرى من الحرمان أسف من يبكي ويبكي غيره) وقوله : (الصدر من البيت تحسر

سداده ويشهد بصحته . واستعمال اللام فيه قياس لا شأن فيه للسماح كما أسلفنا . وهو كقولك (تأسفت له وحزنت له وجزعت له وأسيت له وصبرت له وتوجعت له ..) .

وقد أورد الأستاذ محمد العدناني (ونعتمد أيضاً على رأي ابن جني الذي أفرد بحثاً رائماً في الخصائص عن استعمال الحروف بعضها مكان بعض ، يجيز لنا أن نقول : أسف عليه وأسف له ، راجع مادتي : لا يخفى على القراء ، واعتقد ، في هذا المعجم) . أقول ليس لقولك : (أسفت عليه وأسفت له) صلة بالباب الذي عقده ابن جني في الخصائص (٣٠٦ / ٢ - ٣١٥) على استعمال الحروف بعضها مكان بعض . وإنما يردّ مضمون الباب المذكور الى ما أسموه بحمل الكلام على المعنى أو التضمين والاشراب . وليس شيء مما ذكرنا أو بسطنا القول فيه ها هنا من قبيل الحمل على المعنى أو التضمين الذي قصد اليه ابن جني في كلامه أو عناء الأستاذ العدناني بقوله : (راجع لا يخفى على القراء ، واعتقد ، في هذا المعجم) . فالكلام الذي قلناه في جواز (أسفت له) إنما هو في جملته وتفصيله تصريف لحروف الجر مع الفعل في المعاني التي عرفت بها ، واجراء لها في مجاريها التي رسمها النحاة بالاستقراء ، وفصلوا القول فيها ، في مختلف المظان .

وشيء آخر لابد من التنبيه عليه . فقد عرف المعجم الوسيط والمعجم الكبير (أسف) ، فلم يأت تعريفهما جامعا مانعا كما يقول أصحاب المنطق ، وهما معجمان حديثان أشرف على تأليفهما المجمع القاهري . فقد جاء فيهما (أسف له : تألم وتندم) ، وهو تعريف فيه من القصد والاجمال ما يوجب اللبس ، فإذا قلت (أسفت للأمر : تألمت وتندمت)

لما أصاب الفقراء واليتامى بعد موته) وقوله : (وهذا الجرع الذي نهاها عنه ليس يريد به الحزن لفقده ، وإنما يريد الحزن لسلامة الوائر / ٨٦٦) .

واقتر الى قول مهيار ، وقد استشهد به المعجم الكبير ، على تعدية الفعل باللام :

أسفت لحلم كان لي يوم بارق
فاخرجه جهل الصبابة من يدي

ومعناه أن الشاعر قد تحسر من أجل حلم كان له ثم خرج من يده ، فبات يتلهف لفقده .

هذا وليس العجب أن يلحنوا قول القائل (أسف له) وهو القياس المنقاد في استعمال اللام ، بل العجب أن يحتاج لتصويب هذا الى دليل يؤنسه وشاهديته . فغريب أن ينحو المعجم الكبير هذا النحو فيستشهد بشعر مهيار الجواز - أسف له . وأذهب في الغرابة وأمضى قول الأستاذ محمد العدناني في معجم الأخطاء الشائعة : (وانفرد المعجم الوسيط بقوله : أسف له : تألم وتندم ، دون أن يذكر المعجم أن مجمع القاهرة وافق على ذلك .. ثم أصدر المجمع نفسه الجزء الأول من المعجم الكبير ، وقال فيه : أسف له أسفاً وأسافة تألم وتندم ، واستشهد بقول مهيار : أسفت لحلم .. ونحن لا نستطيع الاعتماد على قول شاعر طوق الحماية : فيا عجباً من أسف لأمري ثوى : وما هو للمقتول ظلماً بآسف ، لأن الضرورة الشعرية قد تكون السبب في الاتيان باللام بعد آسف ، بدلا من على ، ولكننا نعتد على قول المعجم الكبير ، وأبي علي القالي) .

أقول إن (أسف له) عربي فصح لا غبار عليه ، وليس هو في حاجة الى مجمع يقر صوابه ويدل على

و (حزنْتَ له) شيء آخر . ف (حزنْتَ لفلان) بمعنى رقت له وعطفت ، وهو غير حزنْتَ عليه ، فأنظر الى ما حكاه الراغب في محاضرات الأدباء (٥٠٨/٤) : (ولما مات ذرُّ بن عمر بن ذرٍّ ، قام أبوه على قبره فقال : يا ذرُّ شَعَلْنَا الحزنُ لك عن الحزن عليك ... اللهم انك قد ألزمت طاعتك وطاعتي ، فاني قد وهبت له ما قصر فيه من حقي ، فهب لي ما قصر فيه من طاعتك . اللهم ما وعدتني من الأجر على مصيبي به فقد وهبته له ، فهب لي من فضلك ...) . فكان حزنك على الرجل توجع عليه وجزع ، فهو انفعال ليس غير ، أما حزنك له فهو رثاء لحاله وعطف عليه واهتمام بأمره ، فهو انفعال وفعل . وقد جاء في الأساس : (هؤلاء حزانتك أي أهلك الذين تتحزن لهم وتهتم بأمورهم) ، وتحزن في الأصل صار حزيناً . وليس كذلك حزنْتَ لفلان وعلى فقدته ، فإن اللام هاهنا في موضع على كما قال المرزوقي .

وفي اللغة : (أسي عليه اذا حزن) ، قال الفيومي : (وأسي أسي من باب حزن فهو أسي مثل حزين) . فأنت تقول : (أسيْتَ عليه كحزنت) ، لكنك تقول أيضاً : (أسيْتَ للرجل اذا حزنْتَ له أي رقت له فشغلت بأمره) . فأنظر الى ما حكاه الراغب في المحاضرات (٥١٦/٤) : (قال الموسوي : يموت قوم ولا يأسى لهم أحد : وواحد موته هم لأقوام) . فكان فحواه : يموت قوم فلا يهتم لموتهم أحد ، ويتضي فرد فيهم لموته أقوام .

وأنظر الى قول قراد بن سُلَيْم بن ربيعة : أولئك لو جزعت لهم لكانوا : أعز علي من أهلي ومالي .

لم يسخ قولك دوماً ، واذا قلت (أسفْتُ للرجل) تأملت وتندمت) ، أشكل كلامك أيضاً ، والا أفصح قولك مثلاً (أسفْتُ لفلان أو أسفْتُ لمرافقه : تندمت) ؟ ذلك أن (التندم) لا تأتي الا من عمل قام به الأسف نفسه ، تقول : (أسفْتُ لما فرط مني أي تندمت) ، قال ابن القوطية : (ندم ندماً وندامة كره ما فعله) لا (ما فعله سواء) ! فني كل (تندم) أسف أي حزن ، وليس في كل (أسف) تندم ، ومن هنا كانت نصوص المعاجم (الندم : الأسف) كما نقلناه لك عن الافصح والمتن ، لا العكس .

ولنعد الى ما كنا عليه وبسييله من الكلام على قياس استعمال (السلام) فيما جعلت له ، قياساً لا يشكر ، فأنت تقول (صبرت على البلاء واصطبرت) ولكنك تقول أيضاً (صبرت لما أصابني منه واصطبرت) ، قالت امرأة من بني عامر :

سيتركها قوم ويصلني بحرّها

بنو نسوة للشكل مصطبرات

قال أبو علي المرزوقي في شرح هذا البيت (٧٤٩) : (وقد تمود الشكل أمهاتهم ، فلا يجوزن لقتلهم ، وألف الأئمة نساؤهم فلا يحزن لموتهم . ومعنى للشكل : من أجله) . وأردف : (وهذه اللام في هذا الموضع قد تؤدي معنى على فاعله) . وأنظر الى قول المرزوقي (٩٨٩) : (ولا شيء من أعلات المتى يحزن له اذا أبيت ^(١)) .

واذا كانت تعدية (حزن) و (أسف) باللام فد تؤدي مؤدي تعديتها بعلى اذا ذكر الامر الذي كان الحزن أو الاسف لفقدته أو فوّته ، فليس الحال كذلك اذا ذكر الانسان الذي كان مصدر الحزن وموضع الاسف ، فقولك (حزنْتَ على الرجل) شيء ،

(١) ماته الشيء يموت ، وأمانته أياه غيره .

كما جاء في محاضرات الأدباء للراغب (٢٣٦) :
(وغضب الرشيد على رجل فقال له جعفر : غضبت لله
فأطع الله في غضبك بالوقوف الى حال التبيين ، كما
غضبت له) . وفي شرح الحماسة للمرزوقي قول قتراد
بن عباد (٦٧٠) :

(اذا المرء لم تغضب له حين يغضب
فوارسٌ إن قيل اركبوا الموت يركبوا
ولم يحببه بالنصر قوم "أعزّة"
مقاحيم في الأمر الذي يتهيبُ

تهفّسه أدنى العداة ولم يزل
وان كان عَصًا بالظلامة يثُرب (١)

ويتحصل من ذلك أنك تقول أسفت على فلان اذا
حزنت عليه أو غضبت ، وأسفت على الشيء اذا تلهفت
أو تحسّرت على فقدّه ، وأسفت على ما فرط مني : اذا
تندمت ، كما تقول : اسفت لفلان اذا حزنت أو غضبت
له . وأسفت لفقده اذا أسفت من أجل فقدّه ، وأسفت
لما فعلته : اذا لدمت .

وهذه أمثلة أخرى : تقول في (حسد) على
الاصل : (حسدت فلانا على نعمته) ، ولكنك تقول
الى ذلك (حسدت فلانا لنعمته) وهو بمعناه . فقد
جاء في المحاضرات قول الشاعر : (لا ينزع الله عنهم
مالهم حَسِدُوا) أي ما حَسِدُوا لأجله وبسببه ، وهو
ما حَسِدُوا عليه . وقال الراغب في عنوان له (المحسود
لفضله ، أي بسبب فضله أو على فضله .

وفي (لام) ، تقول على الاصل (استحق فلان

(١) اي اذ غضب المرء ولم ينتصر له فوارس يطلبون
الموت ، واهزة متاديم لا يخشون الصعب . ظلّه
أدنى العداة ، ولو كان اهلا للقتال .

والمعنى على ما ذكره ابن جني في التبيه : (لو
جزعت لهم لكنت معذورا في ذلك ، لانهم أعز علي من
أهلي ومالي) . وقال أبو علي المرزوقي في شرح ديوان
الحماسة (١٠٠٤) : (لو أعطيت الجزع حكمة لكان
حالي حينئذ بخلاف حالي الساعة ، ولكن لي عذر في
ذلك ، لانهم أعز علي من أهلي ومالي ، لكنني تركت
ذلك اقتداء بالناس في جَزَعهم لمصائبهم) . والذي
ينبغي الكشف عنه هنا ، قوله (جزعت لهم) افتراء
يؤدي مؤدى (جزعت عليهم) ، ام يعني الى ذلك شيئا
آخر ؟ الذي أراه ان استعمال (اللام) هنا يضيف
الى (الجزع) الاهتمام والمبالاة بمن فقدوا والحفل
لهم ، وهم أعز على الجازع من أهله وماله أو ليس
هذا ما يقوله الشاعر ؟

ويبدو الفارق بينا بين (غضبت عليه) و (غضبت
له) ، فغضبت عليه اذا سخطت ، أما غضبت له فمعناه
غضبت من أجله . واذا غضبت لانسان فقد اهتمت
به واتصرت له . وقيل (غضب به) بمعناه اذا كان
المغضوب له ميتا . والباء هنا للسبب . وقد أشار الى
ذلك ابن قتيبة في (أدب الكاتب / ٢١٦) ، وفصله
الحسن بن قاسم المرادي في (الجسّى الداني في
حروف المعاني / ٣٩) .

وجاء في الاساس : (وللشماخ :

وقد آتاني بأن قد كنت تغضب لي

ووقعة "منك حق غير ابراق

فسرّني ذلك حتى كدت من فرح

أساور الطود أو أرمي بأرواق (١)

(١) رمى بأوراقه على الدابة : ركبها وعلاها .

(حفظ) بـ (اللام) • وقال المرزوقي في شرح الحماسة (١٥٣٥) : (وحفظت عليها صيانة نفسها) ، لكنه قال (٥٥٧) : (وحفظت لها وعليها مياها وبلادها وماراعها ومرادها) • وليس هذا صريحا باستعمال الحرفين حسب ، وانما هو دليل على ان لكل منهما منحي ومتجها ، فاذا قلت (حفظت له المال) فقد عنيت به أنك حرسه له وصنته من أجله أو ما مائل ذلك • واذا قلت (حفظت عليه المال) فقد أردت به أنك قد أبقيته عليه وصنته من أذى وحافظت عليه بالرعاية • وهو من القوة بحيث لا يؤدبه معنى (حفظت له) • وكذلك قولك : (حفظت عليه أحواله) فهو على معنى المراقبة والمحاسبة • فانظر الى ما جاء في اللسان : (والحفيظ المحافظ ، ومنه قوله تعالى : وما أنا عليكم بحفيظ) ، وفي الأساس : (وهو حفيظ عليه : رقيب) • قال الزمخشري في كشافه حول قوله تعالى : (وما أرسلوا عليهم حافظين / المطففين / ٣٣) : (أي حافظين موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيئون عليهم) • وفي ذلك معنى المراقبة • وانظر الى ما أنسى به اللسان : (وقد حفظ على خلقه وعباده ما يعملون من خير أو شر) ، فان فيه معنى المحاسبة ، وما أورده أيضا (والحفظة الذين يحصون الاعمال ويكتبونها على بني آدم من الملائكة) ا

ومن شواهد الدكتور جواد ، ماجاء في سيرة ابن هشام • قال رسول الله (ﷺ) : (مَنْ رَجُلٌ يَحْفَظُ عَلَيْنَا الْفَجْرَ لَمَلْنَا نَامَ) ، قال بلال : (أنا يا رسول الله أحفظه عليك) ، وما حكى عن سيدنا علي ، قال : (فان نسيت مقالي حفظها عليك غيرك) والاول على معنى المراقبة ، والثاني على معنى المحافظة ، كما أسلفنا • ويتبين بذلك أنك تقول : (حفظت على فلان أمره) و (حفظت على الشيء سدا) ، فاذا

اللوم على فعلته تلك) • قال المرزوقي في شرح الحماسة (٣٧٣) : (ويلومهم على ما كان منهم من القصور عن نصرته •) • وتقول الى ذلك : (استحق فلان اللوم لفعله) أيضا • قال المرزوقي : (٧٦٦) : (فعدت امرأته تلك الفعل منه ، وما اتفق عليه ، سفها وذنبا ، يستحق لهما اللوم ، فطفقت باكرة عليه تمجّزه وتؤتبه) أي يستحق اللوم بسببهما ومن أجلهما •

★ ★ ★

ونظير ما نحن بسبيله منع الدكتور مصطفى جواد قول القائل (حفظ له الشيء) والاقتصار على (حفظ عليه الشيء) • فقد عاب على الشيخ رؤوف جمال الدين قوله (حقوق الطبع محفوظة للمؤلف) • قال في كتابه (دراسات في فلسفة النحو والصرف واللغة •) : (والفصح بل الصواب محفوظة على المؤلف ، يقال : حفظ فلان عليه الشيء حفظا فالشيء محفوظ عليه) • واستظهر بكلام كثير من الأئمة كالامام علي ، والامام زين العابدين علي بن الحسين ، وغيرهما • قال علي رضي الله عنه : (فان نسيت مقالي هذه حفظها عليك غيرك) • وقال زين العابدين في دوائه : اللهم احفظ علي سمي وبصري الى انتهاء اجلي) • وأنت تعلم أن دليله هذا انما يقوم على اثبات تصرف الفعل بـ (على) ، ولا ينفي جواز استعماله باللام ، قال صاحب اللسان : (الحفيظ من صفات الله عز وجل ، لا يعزب عن حفظه الاشياء كلها ، مثقال ذرة في السموات والارض ، وقد حفظ على خلقه وعباده ما يعملون من خير أو شر •) ، فعدت (حفظ) بـ (على) • لكنه قال أيضا : (ويقال استحفظت فلانا مالا إذا سأله أن يحفظه لك) فعدت

له حقه) و (حقه محفوظ له) أي مصون ، وحفظ في هذا كحافظ في قول ابن منظور (المحافظة الوفاء بالعقد والتسك بالود) . والذي يحدث اليقين بما قلناه أن استعمال اللام مع الفعل فيما قدمنا جميعا مقيس مطرد لاجابة به الى اجتهد أو سماع . وإنما سقنا الشاهد ليؤنس ما ذهبنا اليه ، وأوردنا الدليل ليسلكنا الى ما نبتغيه . فاقتر الى قول الشيخ نصر الهوريني في شرح ديباجة القاموس : (ومودع بالضم اسم فاعل من أودعه الشيء جملة عنده وديعة يحفظه له) أفكنت تحتاج الى سماع يقر قولك (حفظت له الوديعة) ، أو اجتهد يسبغ النطق بما ينتجه القياس ؟ ثم انظر الى قول مسكين الدرامي :

فإني سأخلي لها بيتها

فتحفظ لي نفسها أو تذر

وقد أورده الراغب في محاضرات الأدباء من قصيدة (٢٣٢/٣) . وهذا قول عليّ كرم الله وجهه من نهج البلاغة (١١١/٣) : (واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل له قسما من بيت مالك) !

ونحو من (حفظ له الشيء وحفظه عليه) : (توفر له الشيء وتوفر عليه) .

فقد أنكر الاكثرون (توفر) في غير صورة واحدة أوردها الاساس وسواه . قال الزمخشري (ومن المجاز . . توفر على صاحبه اذا رعى حرمانه ، وتوفر على كذا اذا كان مصروف الهمة اليه) . وقد جاء الصحاح والتهذيب واللسان والمصباح والتاج بشل هذا النص فتماثلت فيه نقولها وتشابهت مروياتها وتناصرت ، فوقف الناقدون عند النص ، ولم يتعدوه أو يستشفوا قرائنه فيستنبطوه . قال الاستاذ أسعد داغر في تذكرة الكاتب

قلت (حفظت على فلان) أو (حفظت على الشيء) فهو اما على حذف المفعول ، أو على إيقاع (حفظ) موقع (حافظ) كما توقع هذا موقع ذلك ، وهما هنا بمعنى . فمن الاول ما جاء من نهج البلاغة (١١٧/١) : (حافظاً على عهدك ، ماضياً على نفاذ أمرك) من حفظ عليه كحافظ عليه . وفي التنزيل : (وربك على كل شيء حفيظ - سبأ / ٢١) . قال الزمخشري : (محافظ عليه ، وفعل ومفاعل : متآخيان) . ومن الثاني قول المرزوقي (٥٨٥) : (فلم يراعوا ذمة ، ولم يحافظوا حرمة) ، من حافظ كحفظ . وكذا قوله (٧٤٠) : (واذا حافظنا الحقوق وراعى الوسائل والحظوظ تناسقت الابوة والامومة ، وتلاظمت البنوة والأخوة) . ويحمل الشنتمري تعدية (حافظه) ك (حفظه) ، على حذف الجار وإيصال الفعل . ففي الكتاب (٩٧/١) :

أخذت بسجلهم فنفتحت فيه

محافظة لهن إixa الذمام

قال الشنتمري : (الشاهد فيه نصب إixa الذمام بمحافظة ، والتقدير لأن حافظت إixa الذمام أي راعيته وقارضت به ، والمعنى على إixa الذمام فحذف حرف الجر ووصل المصدر لما فيه من معنى الفعل ، وأراد إixa الذمام فقصر ضرورة . والسجل الدلو ملأى ماء فضربت مثلاً في المطاء والحظ لأن العيش بالماء ، ومعنى فنفتحت : أعطيت . .)

هذا وقد اقتصر الدكتور جواد في استعمال (حفظ) مع اللام ، على صورة واحدة ، اذ ارتضى قول القائل (أحسنت الى فلان فحفظ لي ذلك) أي ذكره . ويمكن أن يرد هذا الى معنى الصون الذي ثبت للفعل في الأصل . تقول : (حفظت له العهد) اذا صنته بالبر والوفاء . فما بال الاستاذ أساغ هذا وأنكر (حفظ

تنقصه ، فوفر هو . ففي الصباح : (قال أبو زيد : وفرت له طعامه توفيراً ، إذا أتمته ولم تنقصه ، ووفرت عليه حقه : أعطيته . فاستوفره واستوفاه) . وفي الصباح : (ووفر عليه حقه توفيراً واستوفره واستوفاه) .

فاقتصار الزمخشري وسواه على القول (توفر) على صاحبه إذا رعى حرمانه . (لا يمنع مجيء (توفر) في مصارف أخرى كما رأيت . ذلك أن الزمخشري قد أورد كلامه على أنه مجاز فلم ينتبه كثرة الناقدين له . ولو قدروا أن لهذا المجاز أصلاً لا يبد من ابتغائه والتماس وجهه لظفروا به من غير كلفة أو عناء . ذلك أنك تقول من (وفر) مثلاً : (وفرني فلان على كذا) أي وفرت جهدي ووقته عليه . و (توفرت على كذا) إذا وفرت جهدي وجمعت عليه ، وصرفت همتي إليه . قال المرزوقي (١٣٢٠) : ولم توفروني على ما أهم به) . وهكذا تقول : (توفرت على صاحبي) إذا وفرت همتك على ما تستقيم به أموره وتصلح أحواله . وهذا ما ابتغته المعاجم حين تناقلت النص الذي أوردنا (ومن المجاز : توفر على صاحبه . وتوفر على كذا .) .

هذا وقد أصبح (التوفر) بالمجاز مرادفاً للعناية بالامر والانصراف إليه والاهتمام بالإنسان وتقديره وحسن رعايته . فاقترأ الى قول المرزوقي (لحسن توفرننا عليه واحتفالننا بسوق الخير اليه / ١٣١) . وقوله : (وان التوفر على الضيف واکرامه . . . من الخصال المحموده / ٧٠٠) . وقوله : (وازدادوا توفراً عليهم وتقدا لهم / ١٠٨٥) ، وقوله : (متوفرون علي ، حسب ما يقتضيه كرمهم / ١١٥٩) وظائره كثير .

(١) في كتابيه (دراسات . .) و (قل ولا تقل) .

(ويستعملون الفعل توفر بمعنى وفر أو توافر أي كثر ، فيقولون يجب أن تتوفر فيه الخبرة ، وهذا لم تتوفر فيه الاسباب الكافية . وفي اللغة توفر عليه رعى حرمانه وصرف همته اليه) . ومالاه الاستاذ محمد المدناني في مجبه فقال : (ويقولون توفّر الذكاء والاجتهاد والصواب : وفر أو توافر أي كثر : لان معنى توفر عليه رعى حرمانه وبره وصرف همته اليه مجاز) .

وخالفهما الدكتور مصطفى جواد (١) إذ أقر (توفر) كوفر لازماً ، لكنه منع (توفر له) وارتضى (توفر عليه) وأنت لا تملك الا استغراب ما ذهب اليه في هذا التفريق ، وقضاء المعجب منه !

أما اقرار (توفر) فدليله على ما ذكر الدكتور جواد قول بشار ، فيما حكاه صاحب الاغانبي (١٤٥/٢) : (ان عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر اليه من الاشياء فيتوفر حسه) . وقول المرتضى في أماليه (٥٦/١) : (فيتوفر اللبن على الحلب) وكلاهما شاهد بصحة (توفر الشيء) إذا وفر وتجمع .

ويؤيد هذا ، وينزع منزعه ، قول أبي حيان التوحيدي . في كتابه (البصائر والذخائر - ١٧٠/١) : (يقال من أكثر الخير سار به ذكره ، وتوفر عليه أجره) . وقوله في كتابه (المقابسات - ٢٣٨) : (ولهذا لا تتوفر القوتان للإنسان الواحد) . وقال أبو علي المرزوقي في شرح الحماسة (٧٩٠) . (توفرت عليه الرحمة) ، وقال أيضاً (٨٦٦) : (وان العناية متوفرة من جهتهم) . وقال (٧٩٤) (ليتين كيف توفر الجزع عليه) .

فثبت بذلك أنك تقول (وفرت الشيء) إذا أكلته ولم تنقصه ، فتوفر هو إذا تحصل دون نقص . وذلك ك (وفرت) بالتخفيف ، إذا أكلته وأتمته ولم

ولكن ما بال الدكتور مصطفى حداد يلحن قول القائل (توفر له) في كتابيه (دراسات ٥٥٥) : (قل وولاتقل) : (وقد أخطأ حفظه الله باستعمال اللام مع الفعل توفر ، وإنما قال الفصحاء توفر عليه لاله ، وتوفر فلان على فلان ٥٥) وإذا كان الاستاذ جواد قد أكثر من شواهد على استعمال (توفر عليه) فليس هذا سنداً له في حظر (توفر له) بحال من الأحوال . وهو قياس منقاد لا شأن فيه لحكاية أو رواية أو سماع .

فقد رأيت أبا حيان يقول : (ولهذا لا تتوفر القوتان معا للانسان الواحد) ٥٥ يؤديه قول المرزوقي (١٥٥٧) : (خبروني أي العادتين أقرب الى الكرم وأجرى في وفاء الشيم ؟ أعادة من يستنزل الأضياف عن أموالهم وينقص ما توفر لهم ، أم عادة من يزيدهم ويشر ظروفهم ؟) .

وإذا قال صاحب المصباح (وفرت له الطعام توفيراً إذا أنتمته ولم تنقصه) أفلا تقول في إثره (فتوفر له الطعام) . والا فكيف يسوغ قولك (وفرت له) ويستنع (فتوفر له) ؟

وليس هذا حسب ، فإذا أعملنا الفكر في تصرف الفعل بالحرفين ألفيناً لكل وجهة وقصدا . فإذا قلت : (توفر له المال) فقد أردت تجمعه في يديه أو صيرورته الى ملكه وحوزته ، وإذا قلت (توفر عليه المال) فقد لحظت الى تجمع المال ، فضل النعمة وضمفوها بل تمامها وسبوغها عليه .

وإذا كان (توفر) ك (وفر) لازماً ، فهل جاء (توفره) متعدياً ك (وفره) ؟ أقول لم أر هذا في معجم ، لكنني ظفرت به في شرح الحماسة (٢١٨) ، قال المرزوقي : (يقال ودّيته فاتدى ، كما يقال وهبته فاتهب أي قبل الهبة . وفي الحديث همت ألا اتهب

الا من قرشي أو أنصاري . ومثله : قضية الدين فافتضاه أي قبله وتوفره) ٥٥ . ويعني هذا أن (توفره) كاستوفاه واستوفره . وقد أوردته مورد النص ، فتأمل !

هذا وقد أخذ الاستاذ صبحي البصام في رسالته الاستدراك على استاذي العلامة الدكتور مصطفى جواد بعض ما جاء في كتابه : قل وولاتقل ، لكنه لم يمرض لشيء مما نحن فيه .

وإذا تجاوزنا من حروف الجر (اللام وعلى) فهناك (من) . ومن معانيها كما ذكر الغني (١٤/٢) التعليل ، وقد مثلوا له بقول الفرزدق :

يُغْضِي حَياءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ

فلا يكلم الا حين يتسهم

وتأليساً على هذا تقول (أسفت من حسدك إياي) ، ولا ترجو أن تجده في معجم لتراتح الى سداده وتسكن الى صوابه . قال صاحب المحاضرات (٧٤/٣) : (تأسف من هجر محبوبه) . وقد جاء فيه (٣٩٤/٤) قول الشاعر :

وقد يأسف المرء من فوت ما

لعل السلامة من فوت

وقول آخر :

لم أبك من زمن شكوت صروفه

الا بكيت عليه حين يزول

وقول آخر (٢٨٧/٣) :

لا تجزعن من الهزال فطالما

ذبح السنين وعوفي المهزول

جاء في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (٩٦١) :

بكت دارهم من فقدهم فتهللت

دموعي فأني الجازعين ألوم

وقال أبو الطمحان القيني (١٢٦٦) :

وقبل غد يالهِف نفسي على غد

إذا راح أصحابي ولست برائح

قال المرزوقي : (يروى : يالهِف نفسي من غد ..

وهذا تلهف من غد) .

وهكذا القول في استعمال (في) و (الباء) قياسا

مطرداً فيما كانا له . فانت تقول مثلاً (جزع فيه

وبه) ولا تحتاج فيه الى نص يشهد بصحته . قال

المتنبي :

أجد الحزن فيك حفظاً وعقلاً

وأراه في الخلق وعراً وجهلاً

وجاء في شرح ديوان الشاعر لأبي البقاء الكميري

(١٢٤/٣) : (قال الواحدي المراد بالعقل الاعتبار

بن مفسى ، فان العاقل انما يحزن بالميت اعتباراً به

وعلماً أنه عن قريب يتبعه . وحزن غير العاقل انما

يكون خوفاً من الموت ، وهو جهل لانه ميت لا محالة

وان حزن) . وقال أبو البقاء : (والمعنى انما تحزن على

من تصاب به ممن أحبك ، حفظاً لذمتهم ورعاية

لخدمتهم وانصافاً وعقلاً ووفاء وكرماً ، وأراه في غيرك

خوفاً وجزعاً وجهلاً) .

وقال : المرزوقي (٨٠٤) : (وانها ما يقاسونه من

الجزع فيهم) . وقال : (أو أحزن في اثر فانت أو

أجزع بتولي مدبر) وقال (٨١٧) : فيشقى بالجزع

له وفيه) .

وحكى الراغب في المحاضرات (٥٠٧/٤) عن

خالد بن صفوان قوله (صبرك في مصيبتك أحمد من

جزعك ، وجزعك في مصيبة أخيك أحمد من صبرك) .

واظنر الى قول هشام بن عتبة العدوي : فلم تسني

أوفى، المعيات بعده : ولكن نكء القرع بالقرح وأجمع

قال المرزوقي (٧٩٥) : (وبه بهذا الكلام على أن

الجزع بأوفى لم يزل ما تمقه من المصائب ولكنه زاده

اشتداداً) ، وأردف : (فالهلع بموت أوفى وقد أمد

بمصاب آخر يكون أتم وأكمل) . وفي موضع آخر

(٨٠٠) : (ففيه دلالة على تمكن الجزع بالمصاب من

كافة الناس) .

★ ★ ★

فيستبين بما قدمنا أنه اذا حرص الكاتب ان يتحامي

الخطأ في تصريف حروف الجر ، فقرأ كتابته من الطعن

وتخلو من الخطل وتحفظ دون الا بتذال ، ، فلا يغنيه

العودة الى المعجم ليحتوي نصه فيقف منه على وجه

الصواب في استعمال هذه الحروف مع الافعال ، ولو

كان ذلك أسهل مأتى وأقرب مأخذاً . اذ لا بد له من

الاحاطة بمعاني هذه الحروف فيما فصلته كتب النحو

ومختلف المظان ، ومولاة قراءة نصوص الأدب ثراً

وشعراً بغية الاطلاع ، بالاستقراء ، على مصارف

الحروف في تحقيق ما يتسع له الفعل من دلالات ، وما

يتجه اليه من قصود ، فيتعرف مواقعها ويتبين قواعدها

ويتشيز مسالكها ، فيكون من ذلك على رشد ، ويقبس

منه باحتياط ، ولا يصرفه اعتياد نهج أو ألف اسلوب

عن تدبره واستجلاء وجه صحته .

وليس للكاتب ، بعد هذا ، أن يجزم في ذلك

حكماً ، حتى يضع يده على دليل تسعفه رواية وتشهد له

دراية . فقد رأيت أن ما صرفنا القول فيه قد رفدناه

بالحجة وعززناه بالبينة ، ولا يقعد بالقارى عن استشفاف ما

تضمنه هذا الفصل أنه ليس سلس المطلب ، داني المنال

في كل وجه . فالعلم سهل وعويص ، وذلول وجموح ،

وهو لا يدرك الا بمواصلة البحث والموازنة والمكايلة ،

وان طال نفس المهلة في تحصيله ، واستفراغ الوسع في

السمي له ، والله الموفق للصواب .

□ □



عبد الغني النابلسي بين العدمية والحياة

هدى النعماني

- ١ -

« قال تعالى : وأسجدوا لخالقكم .
 هما سجدة .
 الأولى أن تسجد بك فيه .
 الثانية أن تسجد به فيك .



والثانية سبت باسم الاقتراب . ولم تسمي
 باسم السجدة .

مع أنها سجدة في الحقيقة . لأنها معها بدلت
 الارض غير الارض والسموات ، وهي حقيقة قباب
 قوسين . وعندها تذهب نقطة الغين عن العين والله
 الهادي والموفق .»

النابلسي (١)

بهذا التيقظ للتيقظ والفهم ، اشتغل بعض الأئمة
 ومنهم العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي باطنًا وظاهرًا ،
 ومالت أهدابهم نحو الضوء ، حتى أعظم الذنوب .
 بهذا التيقظ للغفلة عن هذه الغفلة ، كتبوا الأراجيز
 بذهب « كان الثاني منه أشد من الأول ، ولم يرفعوا
 شعرة بيضاء عن شعرة سوداء ، بل لم يرفعوا البصر

عن مسبوكة كانت أقرب الى الجنون ، وقلوبهم حنطة
 ترقص وتدور ، حسب ايقاعات أشبه بالغرور في
 الاكوان ، وجزموا ونفوا أن كل شيء « هو » حتى
 هم ، وسكروا وأذنبوا وغمروا الفجر وهتفوا ،
 وهتكوا الفجر ، واستتروا ، ودكوا الجبل عن الظهر
 الناري ، وسجنوا تحت اسم الرحمن عشبة تطلب
 الري مقام الذنب ، مستعينة عن المطر المطر بالطاعة
 والتجلي ووضع العرش ان قلبت حروفه ، وسوا
 بالمتصوفة .

وما زالوا حتى اليوم عبر فتح السنين ورقائنها ،
 بتصانيعهم ودراساتهم ، بأشعارهم ونفحاتهم البسمة
 للفر على ثغر الاسلام فيما كان الاسلام ملتها تارة
 بيد الغزاة والجبر ، او ممزقا تارة بيد المعصية والجهل ،
 وما فتئوا ، مهما فاضت الارض درا ولدى ، باصفرارهم
 وعقايرهم واشتياقهم وصبواتهم ، المغفرة الطاهرة
 على شمس الحب .

- ٢ -

« ان من بعض ماهي الأطوار
 لي مقام فيه اسمه الأغيار



وهو زيد كذا وعمره وبكر
وبهم فيه تشدد الاشمار

فاذا قلت فيه قال فلان
وفلان فانها استنان

لعم القائل الذي قد ذكرنا
لكن الكثر نحن وهو الجدار

وهو جفن من الجفون لعيني
وأنا الجسم منه وهو شمار

وأنا اللب والبرية قشر
وأنا الوجه والجميع خمار

كلهم في مدار روجي حروف
وأنا الشمس والسوى أقمار

والذي عندهم من العلم طل
والذي منه عندنا فبحار

بنة" غردت عليها طيور
أنا وحدي من بينهن الميذار

أنا عبد الفني مع من ممي في
هذه الحال والفنى افتقار

ربنا الله في جميع المجالي
ما على وجهنا الجميل غبار

والأحباء حضرة البسط تجلّى
من هوانا عليهم الاسرار »

النابلسي (٢)

(هو الشيخ عبد الفني ابن اسماعيل بن عبد الفني
ابن اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم المعروف كاسلافه
بالنابلسي الحنفى الدمشقي النقشبندية القادري

استاذ الاساتذة وجهذ الجهابذة ، ولد في دمشق في
الخامس من ذي الحجة سنة خمسين وألف ، وكان
والده مسافرا الى بلاد الروم ، فبشر والدته به
المجذوب الصالح الشيخ محمود وقال سيه عبد
الفني فانه منصور ...

شغله والده بقراءة القرآن ثم بطلب العلم .
فقرأ الفقه واصوله على الشيخ أحمد القلمي الحنفى ،
والنحو والمعاني والبيان والصرف على الشيخ محمود
الكردي نزيل دمشق ، والحديث ومصطلحه على
الشيخ عبد الباقي الحنبلي ، وحضر دروس والده في
التفسير بالمدرسة السليمية وفي شرح الدر بالجامع
الاموي ، ودخل في عموم اجازته ، وحضر دروس
النجم الغزي ودخل في عموم اجازته ، وقرأ ايضا
وأخذ على الشيخ محمد الاسطواني والشيخ ابراهيم
القتال ، وأجاز له من مصر الشيخ علي الشبراملسي ،
وأخذ الطريقة القادرية عن الشيخ عبد الرزاق
الكيلاي ، وأخذ طريق النقشبندية عن الشيخ سعيد
البلخي ...

وابتدأ في قراءة الدروس والقائما والتصنيف لما
بلغ عشرين عاماً وأدمن المطالعة في كتب الشيخ محي
الدين بن عربي وكتب السارة الصوفية كابن سبعين
والعفيفي فعادت عليه بركة أنفاسهم فأتاه الفتح
اللدي ...

تأليفه ومصنفاته كثيرة وكلها حسنة ومتداولة
مفيدة ونظمه لا يحصى لكثرة ...

كان عالماً مالكا أزمة البراعة والبراعة فقيهاً
متبحراً ، يدري الفقه ويقرره ، والتفسير ويحرره ،
غواصاً على المسائل ، خبيراً بكيفية الاستدلال
والدلائل ، ذا طير منقاد وبديهة مطواعة .
هذا مع اقبال الناس عليه ومحبتهم له واعتقادهم



فيه ، ورأى في أواخر عمره من العز والجاء ورفعة القدر
ما لا يوصف ، متعة الله بقوته وعقله حتى بعد أن جاوز
التسعين ... (٢) .

يمثل هذا التقرُّب الذي أورده المرادي في
« مسلك الدرر » يضيف المؤرخون الشرقيون
والغربيون (٣) كالجابرسي ، والمحيبي ، وهرثان ،
وبروكلمان ، وجليميستر وغيرهم ، الشيخ الكبير عبد
الغني النابلسي الذي يجتو اليوم بجوار أستاذه الشيخ
الأكبر ابن عربي ، تحت قبة خضراء في مسجد بنه
لنفسه في المهاجرين ، طابوا بخط دقيق كان يمشقه ،
سينينا من الجهد والاثارة والعكوف والاعتزال
والانسلاخ والرهبة والوله وبسط الاعين والنشوة ،
تاركاً ما يزيد عن مئتي مؤلف من جنة ونار ، وبركة
وقناديل وزيت يفيض ، ورفعة قوافي وتجريد وتفريد ،
في مدائح ورياض ومسالك وتراجم وقصور وبلدان
ورسائل وألحان وكؤوس رحيق ، فتميز برأي الجميع
في الأدب أدباً ، وفي الفقه فقيهاً ، وفي التفسير اماماً ،
وفي التصوف قطباً ، حتى ليحسبه المرء أكثر من رجل ،
وأكثر من مسلك ، وأكثر من نسائم وأكثر من عاصفة .

وهكذا في غوص ليس بالغوص ، وقبض ليس
بالقبض ، يصل النابلسي بين نقطة البدء والعناصر
الأربعة في أعينه السالكة الى المحجة : ؟ الخلق ؟
الأرض والسموات ؟ ويطفئها . ماذا عن ؟ ماذا عن ؟
وتأتي أجوبته قيد يمار ، وكلماته أثواب تشف ،
والحقيقة أحجية تتمثل في المشق والذات الأخرى
شجرة تظل الدل والدوح والجدول والحلم والمدام
والجارية والغلام والكأس والطير والبرق ، بينما التيه
ضوء في العقل وشموس في الوري ، لا يينه في بنية
الا اذا خرج هو وخرجوا به عنهم وعنه ..

وفي هذه المثابة ، من الغيب المطلق عن سائر
المقول ، تتأمل وتتعاظم لديه .
الكيف :

كيف أمكن للعقل أن يؤمن ؟ ، وحقيقة الذنب
بحسب الباطن بعد وصول التبليغ عن نفسه بنفسه
عن نفسه ؟ ، ومن امتثل ثم خالف الأمر ...
وكلام العلماء من أهل الرسوم ؟ وأقسام الذنب
وحدّ الاصرار والتوبة التي تجب على الفور ؟ والتي
هي خلقه ؟ كذلك النفس التي هي الروح ...
باعتبارها كيفية بسبب اتصالها المخصوص ؟ ثم التوبة
من التوبة ؟
فينهر :

« بل ليصدق الوعيد . مقام التوبة هو الدخول
في هذا السير مع هؤلاء السائرين .
وما ثمّ الا رفع حجاب ومصادفة حجب أخرى . وكل
تجليّ رفع لحجاب وسدل لحجاب آخر » يقول في
كتابه الفتح الرباني والفيض الرحماني ..
ثم ماذا ؟ ماذا عن ابن غانم المقدسي ، وزيين
العابدين البكري ، والشيخ الأكبر قدس الله سره ،
ومحمد البكري ، والساقى في التائية ؟
ثم ماذا ؟ ماذا من حرف الصاد ، وعلام عن حرف
اللام ؟

والحلم ؟ ماذا عن الدقيق والشمس والعشب
والبحر .. تسائله دمشق ، وتسائله مكة ، وتسائله
بغداد ، وتسائله القدس . فينهر :
« ان تأس من رحمة ربك إياك ... وإياك ! »
وينجلي ، لكان مرآته من الذهب المقنطر
وينازل ، ويتكبر ، ويتحدى :
وقلّمت ديوان التنزل كله
فيهم بلفظ معجب وقلام



وأنت فيه بكل معنى رائق
 في كل جارية وكل غلام
 والقصد أتم بالجميع وذكرهم
 هو ذكركم عندي على الإيهام
 فأسير سير الغافلين بقولهم
 أبداً وأقصد مقصد الاقوام
 وأنا الذي في ظاهري متمسك
 بشريعتي في سائر الأحكام
 وأنا الذي في باطني متحقق
 بحقائق التوحيد والإيهام
 أنا مجمع البحرين موسى ظاهر
 والباطن الغضر الأجل السامي
 هيهات أن تنجو فراعين العدا
 مني وبحري بالمعارف طامي
 وعلي من أعين السراقد أعين
 للحق تحفظني مدى الأيام
 وأنا لأمليار الحقيقة مخرس
 وأنا الامام بها لكل امام
 والعارفون ريعتي في قبضتي
 والفوت والأقطاب من خدامي
 نحن الشموس وماخفافيش الوري
 تستطيع تبصر غير محض ظلام
 النابلسي (٦)

ثم يكسر الطوق في صور رشيقه وملتحمة
 حيناً ،

أشعاع شمس من قرارة ماء
 أم جسم نار في قيص هواء
 وقضيب بان فوق غصن من نقا
 أم بدر ثم طالعه بسماء (٧)
 مسترسلة وحنونة حينا بمداعبه وأنس ..
 جفونك ثم خصرك ثم جسي
 نحيل " في نحيل في نحيل
 وردفك والعدول وشوق قلبي
 ثقیل " في ثقیل في ثقیل (٨)
 جائية مرة برقة وخفر ،
 لاخبطت خالاً تحت صفحة خده
 متوارباً خلف اللهب النافذ
 فسألته ماذا المقام ، فقال لي
 هذا المقام المستجير العائد (٩)
 متهاذلة مرة في عدو نحو العطر ..
 من لي بظبي وما للظبي لفتة
 تقاسم الحسن في خلق وفي خلق
 كأنما الورد منشور " بوجنته
 والدر من فيه منظوم " على نسق (١٠)
 منصرفة كالدخان مراراً حتى اللانهاية ،
 تبارك الله ما في الدار ديار
 إنما هي نيران وأنوار
 قد أماطت سلسي عن براقعها
 فوجهها مشرق والطرف سحار
 وما الجميع سوى اشراق بهجتها
 دوائر كلهم عنها وأدوار



إن أومات كانت الاكوان ظاهرة
عنها وإلا ففيها الكل اسرار^(١١)

عائدة كأنهار غسل الى راحتنا ،
قف على باب حاتسي يانديمي
علّ يرضى دخولك الخمار

واستمع صوت قينتي تنغني
حيث جسي في كفتها مزار
وجميع الوجود ليل لقوم
جهلوا وهو عند قوم نهار

وجنان النعيم عند اناس
واناس « ذا » عندهم هو نار^(١٢)

ضاربة يداً بيد ، همساً بهمس ..
ان السماع سماع الناي والوتر
يسقي اراضي نفوس الناس كالمنطر^(١٣)

حلقيه السقم والشجا والاحشاء الى الهاوية ،
هلالاً غنيتم بما غنى به الوتر
فتسمعوا منه يا عشاقه وتروا

فإن في نفحة الطنبور بارقة
من البروق التي في القلب تستعر
واستنطقوا الدف ينطق بالاشارة عن
معنى بدا وهو في الاكوان مستتر

وهي المعاني تراءت في السماع لنا
عنها لقد كان محجوباً بها البصر

واخبرتنا اشارات الصنوج بها
نهم القلب منّا ذلك الخبر^(١٤)

جائشة مع ملب غيث الجواهر كفجر كصارم
تجرّ دعن غمد ، كما يقول ، بين شمس ضحى كدّس

من العسل يحوي المجد والطيب والاجناس ، بين
لقاءات في الفقه والشعر والنحو ترق كنوز المطاء في
غليل لا ينضب ، بين تفحات تاريخ من أعاجيب الوجود
هي ميراث وأيام ميراث ...

ويقرر أن يرحل ...
فيرحل للتبرك والنفع العام . ويرحل . كي يعود
بشاشة « ورواية » :

أشرق بدر السبا على البحر
كشل عقد الميع على النحر

تصقله الريح وهو يصقلها
تجري به وهو تحتها يجري

والبحر أمواجه ترددها
وسوسة المستهام في الصدر

او درجات الى علا شرف
او عقد النافثات في السحر

زهت بيناتها « طرابلس »
زهو رداح برقة الخصر

والزهر فينا يث تفتحه
مع النسيم الذي أتى يسري

ونحن في الانس والسرور بلا
أسمع الصخب بهجة العمر^(١٥)

كذلك دقة وتصنيفا

وقد رأينا على حافة المينا أنواع المراكب والسفن
وقد ذكر لنا اسماءها صديقنا الحاج نور الدين
الطرابلسي المذكور ... لا بأس بذكر ذلك لتسم
الفائدة . فاعلم أن انواع المراكب واسماءها كثيرة
بلغت عدتها عشرين نوعاً :

الاول ماعونة ، الثاني غليون ، الثالث غراب ،

بينة ويسرة ، شيئا فوق شي . القسم الثالث سورها وما فيها وحوله . وكأنها في وصفها طائر أبيض في مرج أخضر يرشف ما يصل اليه من الماء أولا فأولا » (١٨) غير العلم والشرع والمحاورة .

« ودعانا حضرة المفتي حفظه الله تعالى الى داره ، فذهبنا لمجلس وابتهجنا بأنواره وأنشدنا من لطائف الأشعار ... وجرت بيننا وبينه ابحاث علمية ومسائل فقيمة وقواعد نحوية ، فمن ذلك مسألة السرقة ، وأنه يقال في السارق « أخذ » لاسرق محافظة على السر ، ولأنه لو ظهرت السرقة لوجب القطع . وقد أورد حكاية لطيفة عن هارون الرشيد ذكرها صاحب « البحر الرائق شرح كنز الدقائق » وعبارته قوله ... فمجبوا منه وانتهى ... » (١٩) .

غير النقد في الحكم والعمارة .

« وقد رأينا في بلدة بيروت المحمية زوايا كثيرة وجوامع وحمامات فلا بأس نذكر محاسنها السنية ، فمن الزوايا زاوية مشرقة الانوار تسمى بزاوية ابن القصار ، وهي نيرة مرتفعة البنيان يجتمع فيها الحفاظ مابين المشائين يتدارسون بها القرآن ، ومنها أيضا زاوية تسمى بزاوية ابن الحمرا يقام فيها الذكر والاوراد ، وبها حفاظ تقرأ ، وهي متسعة ، بها ايوان به محراب كبير ، وفيها بركة ماء بجانبها بئر يستخرج منه ماء غزير ... »

والجوامع التي بها أربع : الاول الجامع الكبير وهو يشتمل على اثني عشر عضاضة كل عضاضة يحوملها رجال . وهي عظيمة العمارة ، يقال أنه كان في الاصل كنيسة ... واما حماماتها فأیضا أربعة : الأول حمام الأمير فخر الدين بن معن ، الثاني حمام القيشاني الثالث حمام الوزاعي ، الرابع قديم لا يعرف له اسم ، وكلها مهجورة ، ماعدا حمام الأمير فخر الدين

الرابع قرامرسل ، الخامس زربونة ، السادس شائعة ، السابع غليظة ، الثامن سنبكليّة ، التاسع قايق ، العاشر قياصة ، الحادي عشر معاش ، الثاني عشر تقيرة ، الثالث عشر شختورة ، الرابع عشر فلوكة ، الخامس عشر تقليبة ، السادس عشر شوطية ، السابع عشر شنبر ، الثامن عشر قارب ، التاسع عشر برقة ، العشرون شكنباية . » (١٦) .

أيضا اسطورة ومطرافه ...

« واخبرني بعض الناس أن في جبل الدروز قلعة كانت في اعلى الجبل ، فبات أهلها في ليلة ، فلما أصبحوا ، وجدوا القرية وجميع ما فيها مع أهلها كلهم وبيوتهم صاروا في أسفل الوادي هناك ولم يخرب منها شيء ، ولا تضر أحد ولا سقطت شجرة ، وهي الآن باقية واسمها الزاحلة » (١٧) .

غير الفراة والتقنية والوصف ،

« وقد اطلعنا حضرة الباشا في هذا اليوم على كتاب عجيب وأسلوب غريب يسمى : « نجمة الدهر في عجائب البر والبحر » لابي طالب الدمشقي . ذكر في الباب السابع في الفصل التاسع محاسن دمشق وجامعها المعمور ، ان من خصائصه انه لا يوجد فيه عنكبوت ولا في سقفه ولا في حيطانه ، ولا يفرخ فيه المصنور مع كثرته فيه ، ولا يمشعش فيه وزعة .

ثم قال دمشق مقسومة ثلاثة أقسام . قسم مبثوث العمارة في غولتها ، لو جمع لكان مدينة عظيمة ما بين شواحق وقصور وقاعات وطواحين وحمامات وأسواق عظيمة وجوامع ومساجد ومشاهد غير القرى والضياح . القسم الثاني تحت الارض . ومنها مدينة أخرى من متصرفات المياه والجداول والقنى والمسارب والقنوات تحت الارض حتى لو حفر الانسان أين ما حفر وجد الماء مشتبك طبقات



نفسه وهما الاول للعالم الفرنسي دي مونكوني
De Maucony والثاني للانكليزي بemd النابلسي
روبرت Robert Uood *

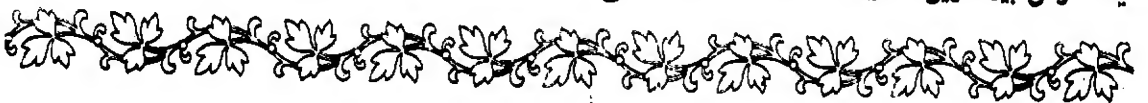
كما يؤكد Burse ان مآثر « الحضرة الانسية في
الرحلة القدسية » تكمن في وصفها المزارات الاسلامية
في القدس ، وان كتاب « الحقائق والمجاز في رحلة
بلاد الشام ومصر والحجاز » يحدد المواقع الجغرافية
في شبه الجزيرة العربية آخذاً بالوصف واحداً وثلاثين
مركزاً (٢١) ساهبا وتقصد هنا Burse عن
التنويه كجميع أقرانه مثل جلد مايستر ، وجراف
وفون كريم او حتى الصحفي المصري (٢٢) ديبشري
نقولاً ، عاينته هذه الرحلات في انعكاساتها من
ميادين سياسية أو غايات روحية ودينية تغلف هذه
المآثر وتتجهر فيها .

بينما أن النابلسي نفسه يذكر في مقدمات هذه
الرحلات ، أن كل ما أورده من كرامات ومعجزات
ورسم مساجد وكنائس ، وأضرحة واستراحات ومآكل
ومشارب وروايات منقولة ومجادلات علمية وفقهية ،
صبها في قوالب أدبية ترمي في الظاهر الى غايات
اجتماعية وسياسية ، الا أنها تخدم في الحقيقة الخاطرة
الكشف التي بوده أن يزفها الينا ، والموعظة الأزلية
التي يحن الى الارتواء والارواء منها ، نافذاً من خلال
الزمان والمكان والانسان في سميح اليومي الى رحلة
النفس الى الكل ، التي هي رحلة التقوى ، بعد الرحلة
الى الداخل (نذكر هنا باعتكاف النابلسي في داره
سبع سنوات كاملات لا يخرج فيها ولا يقص شعره
ولا يقلم اظافره حتى ظنه الكثيرون أنه جن) حيث
تفتتح في قلب السالك اخضرار الكلمة ، عظمة الخالق
والخلق ، وقداسة الخطوات .

وسبب ذلك الظلم من الحكام . فان هذا حمام للميري ،
ويؤجره الحاكم في كل سنة ، هو وقهوة هناك بألف
قرش ومئتي قرش ! وهذا الحمام مبلط بالرخام الملون ،
يشتمل على شاذروان في داخله ، يحوط بجوانبه
الاربعة اربعة ايوانات . كل ايوان بقبو وقوس ، وفي
مسلكه بركة ماء مشتمة ، ويشتمل على قبة مرتفعة
على اربعة عواميد ، يحوط بتلك القبة اربعة أقبوة
على أسلوب جامع الأمير عساف غير أن الجامع يزيد عليه
بالقبة وفي هذا القدر كفاية ونسأله تعالى الغنامة» (٢٠)

لذلك ، لا يسعنا بعد هذا السياق كله ، الا أن
نشيد بما أكده هربرت بوسه Vou Herbert Burse
في تقديمه للرحلة الطرابلسية على أن كتب ومخطوطات
العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي مصدر من مصادر
معرفة البلاد العربية ، وان هذه الكنوز الحجة المنتشرة
في الشرق والغرب (والتي يصفها كارل برو كلسان
بمائة وخمسين كتاباً ويلحظ الخالدي بأنها تقارب
المائتين وخمسين) مازالت محجوبة في معظمها وتنتظر
أن يبين نشرها أهمية النابلسي وتأثيره آنذاك ، فترسم
لنا صورة واضحة للحركة الادبية في دمشق وجوارها
في القرنين السابع عشر والثامن عشر (٢١) .

الا أن بوسه Burse كأكثر المستشرقين ، يركز
اهتمامه بالدرجة الاولى على كتب الرحلات ، لما تحمله
هذه الرحلات من معلومات علمية وفنية . فيروي عن
« رحلة الذهب الأبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز »
التي ألفها النابلسي في ذي القعدة عام ١١٠٠ هـ بعد
رحلة قام بها الى بعلبك ان هذا الاثر أثار اهتمام
غوستاف فلوجل Gwolauf Flugel فنشر فهرساً
لمحتويات هذه المخطوطة لوصفها معبد بعلبك من
حيث الزمن بين أثريين أوربيين تناولا هذا الموضوع



مع ذلك يظل يحير في الحدس والفكر وينهمر

— ٦ —

موجود في نفسه ، وهو بالنسبة الى وجود النهار
معدوم ... (٢٥) .

هابطاً الى اللحظة المحرقة بين اللب وهذب العين
التي هي العدمية وفي الآن ذاته هي الحياة .

محاورة محاوراً دون كلل :

« ان سَبَقَ الكلمة بالسعادة هي المركز .
والمركز تردد وحشي » في طلب الآيات ظليز مقام
الادلالات في القرب المحمود . والشيطان (مبتدأ) في
الحس (خبر) في المعنى . والحس هو السائر للاتحاد .
والستر مستور فكيف يستر » (٢٦) .

موجها مع الزمن ، هذا الاحتراق الكامل
والرؤى ، من الابهام المحض الى التبسيط ، محولا
العجز الشرعي وتفكك المنازلات الى العمل الجماعي
الهادف في صيرورة خلايا الذكر والتواجد المنظم
المشترك ، باعاً من الظلمة والخوف والحيرة هالات
من البراءة الضمنية والطهارة وانهر من الحنان
والعطاء ، باعاً في كل لحن ينشد له ، فضيلة صوفية ،
تجد صدى لجوارحها ، في ذلك العشق الالهي الباعث
الى الطمأنينة ، والفرح والحياة .

والى الغد ، والى مابعد الغد ، سنظل نراه في
حضرة تلاميذه ، ضارباً بالدف ، ضابطاً الايقاع .
سيدا ، منشدا ، متنعماً ،

« ياساقي الله الساقي اسقينا من خمر الباقي
ياساقي

محبوبي ظاهر يتجلى بالوجه الباهر للعشاق
في حكمة قاهر

ياساقي ياساقي

« اذا قيل لنا ما السبب في أن العقل التام لا يمكنه
ان يدرك الرب سبحانه وتعالى ، مع انه قدر ان يدرك
كل شيء . قلنا له : الله تعالى في غاية اللطافة ، والعقل
بالنسبة اليه في نهاية الكثافة . واللطف يدرك الكثيف
والكثيف لا يدرك اللطف . ولهذا ترى الجسم لا يمكنه
أن يدرك العقل لشدة لطافة العقل بالنسبة اليه . وأما
العقل فيدرك الجسم . وقد قسم الله الى لطيف
وكثيف . وحجب الاول عن الثاني . ولم يحجب
الثاني عن الاول » (٢٣) .

النابلسي

فيذوب هذا الرجل القطب جارحة وحجة ، حول
عميق المعاني ، قلائدها ومكنوناتها ، مقتصا من جسيم
المصنفات واغترابها لطفاً واعتدالاً . فنراه يقف بين آراء
السلف والخلف ، مواقف المعتزلة والأشعرية ، القدرية
والعبرية ، علوم الطريقة الشريفة والحقيقة ، موقفاً
حازماً واثقاً ثابتاً انما فيه كثير من الحكمة والتيسير .
فنجده آخذاً تفحات اولياء الكلمة كابن العربي (٢٤)
وابن الفارض والبيضاوي والبركلي وارسلان
والاشعري والماتردي وغيرهم الى صدره ، قاسماً
بطريقة مميزة العلوم الى قول فهم وشهود ، سائراً
بالسليم نحو التأويل وفي آن مما بالتأويل نحو التسليم ،
صارفاً اللفظ الى أكثر من معنى والإحتمال الى أكثر
من احتمال . كصفة اليد والايدي والقدرة والارادة
والسخرية والفرح والضحك وما اليه من صفات أزلية
ومستوفاة لله ، مسلماً ان وجود العبد اولاً وآخره
وجود في ذاته وهو بالنسبة الى وجود الرب عدم
محض ، لا يمكن ان يختلط أحدهما بالآخر ، كما الليل



اكشف لي عنك في ذاتي وافتح لي دثك
واجعلني يا حيي انك
يا ساقى ...»

محطما بصوته الحنون تماثيل التحجر والجمود
في عيون جميع الذين يذكرون الله قياما وقعودا وبالرفع
وبالانعام والترديد .

اولئك الذين ينادون إيل ، وينادون لاهها ،
ويذكرون بالخلق حي ، ويسكرون بالحرف الواحد
كقولهم كاف اوهاء او ياي^(٢٦) ويتجاذبون ،
ويتحاضنون ، ويتماسكون بالايدي ، ويرزعون الاقدام
في الارض ، ويقولون هو ، ويقولون ها ، ويقولون
هي ، ويفردون الاجنحة ويطيرون .

المراجع:

- (٨) المصدر نفسه ص ٢٨ .
- (٩) المصدر نفسه ص ٢٨ .
- (١٠) المصدر نفسه ص ٢٩ .
- (١١) « ديوان الحقائق ... » ص ١٥٦ .
- (١٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .
- (١٣) المصدر نفسه ص ١٥٣ .
- (١٤) المصدر نفسه ص ١٥٥ .
- (١٥) « التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية » ص ٦٩ .
- (١٦) المصدر نفسه ص ٧١ .
- (١٧) المصدر نفسه ص ٢٧ .
- (١٨) المصدر نفسه ص ٢٧ .
- (١٩) المصدر نفسه ص ٦٢ .
- (٢٠) المصدر نفسه ص ٤١ - ٤٤ .
- (٢١) المصدر نفسه المقدمة .
- (٢٢) « الحضرة الانسية في الرحلة المقدسية » للنابلسي
وقف على طبعها ديمتري افندي نقولا . جريدة
الاخلاص سنة ١٩٠٢ (المقدمة) .
- (٢٣) « الفتح الرباني والفيض الرحمانى » ص ١٠٩ .
- (٢٤) « شرح جواهر النصوص في حل كلمات النصوص »
للنابلسي على كتاب نصوص الحكم لابن عربي .
مطبعة الزمان . امام سراي منصور سنة ١٣٠٤ هـ .
- (٢٥) « الفتح الرباني ... » ص ١٠٧ .
- (٢٦) المصدر نفسه ص ٦١ .
- (٢٧) « الالهامات الالهية على الوطيفة الشاذلية
البشرية » تأليف محمود ابو الشامات . مطبعة
بيروت سنة ١٩٦٠ . ص ٦٢ .

□ □

- (١) « الفتح الرباني والفيض الرحمانى » للنابلسي .
نشره وعلق عليه الاب انطونيوس . المطبعة
الكاثوليكية بيروت . ص ٦٨ .
- (٢) « ديوان الحقائق ومجموع الرقائق » للنابلسي
المطبعة الشرفية في مصر . خان ابي طافية سنة
١٣٠٦ هـ . ص ٨ .
- (٣) « مسلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر » لابي
فضل محمد خليل المرادي مطبعة مصر سنة
١٣٠١ هـ . صفحة ٣٠ - ٣٨ .
- (٤) « التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية »
للنابلسي . حققه وقدم له هريوت بوسه المعهد
الالماني للابحاث الشرقية في بيروت ١٩٧١ (المقدمة) .
- (٥) « الفتح الرباني ... » ص ١٠٨ .
- (٦) « ديوان الحقائق ... » ص ١٠ .
- (٧) « الفتح الرباني ... » ص ٢٥ .



انفصال اسبوع العلم التاسع عشر بالقرن الهجري الجديد

د. دلال السُلطي



ضمن الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري اقيم اسبوع العلم التاسع عشر ، وهكذا كانت الاهمية التي حملها اسبوع العلم هذا العام ، أهمية مزدوجة : الجانب الاول : هو تقديم المكتشفات العالمية الجديدة من خلال محاضرات السادة الاساتذة وتثبيت هذه المكتشفات الهامة ، والجانب الثاني : هو ما حملته الاسبوع في طياته وخاصة محاضرات تاريخ العلوم وما تحويه من الاشارة الى مرور اربعة عشر قرنا على هجرة الرسول العربي . ولهذا فقد جاء اسبوع العلم التاسع عشر المنعقد بدمشق في العاشر من شهر تشرين الثاني حافلا بالموضوعات العلمية والتاريخية العالمية لمكتشفات رائعة ، وشمل الاسبوع ندوات صباحية وأخرى مسائية مخصصة للبحث في المواضيع التالية :

١ - « البحث العلمي عند العرب » للدكتور

عزة مريدن الاستاذ السابق في كلية الطب بجامعة دمشق .

٢ - « رسم البيكاريين ومعاني النجوم » للدكتور عفيف البهنسي المدير العام للآثار والمتاحف .

٣ - « فضل العرب في تقدم العلوم » للدكتور نشأت الحمارنة الاستاذ بكلية الطب بجامعة دمشق .

٤ - « نحو تاريخ جديد للرياضات عند العرب » للدكتور صلاح الاحمد الاستاذ في كلية العلوم بجامعة دمشق .

تلك كانت المحاضرات المسائية والتي انعقدت في قاعة المجلس التنفيذي لمحافظة مدينة دمشق والتي تتعلق بتاريخ العلوم .

أما المحاضرات الصباحية فقد انعقدت في مدرجات كلية الطب بجامعة دمشق . كانت كما يلي :



المخطوط للعربية العباس بن سعيد الجوهري في زمن الخليفة المأمون ، وقد قدم الدكتور البابا لمحاضراته بمقدمة رائعة تتضمن تاريخا لعلم السموم واستعمالاته المختلفة وأنواعه وقال لقد طرأ تحول على علم السموم على يد الاطباء العرب والمسلمين حين تحول من اداة للانتقام والقتل الى وسيلة للشفاء وتخليص الناس من الالم .

٢ - وقدّم فريق من الباحثين في كلية الطب (شعبة امراض العين) بحثين هامين - ألقت البحث الاول الدكتورة لين الخير حول التعابير الفنية في طب العين التي ابتكرها العرب في القرن التاسع كما استعرضت مراحل التطور في التعبير العلمي الفني ، وقد استفادت الدكتورة الخير من التعابير الطبية العربية القديمة التي يمكن ان يعتمد عليها الآن في التأليف والتعبير الطبي .

أما الدكتور عتيق استانبولي فقد ألقي البحث الثاني واستعرض فيه التغيير الكبير الذي أحدثه المؤلفون العرب في طريقة تناول موضوعاتهم وتضيف الامراض في مؤلفاتهم والتي كانت تهدف للتدريس أو التأليف الموسوعي . وقد بين الدكتور استانبولي ان تصنيف امراض العين المعتمد حاليا ، انما يعود الفضل فيه الى الطبيب العربي علي بن عيسى الكحال البغدادي الذي عاش في نهاية القرن الرابع الهجري ثم قدم الباحث اقتراحا حول اعادة تسمية بعض المصطلحات الحالية بتسميتها القديمة .

● هذا عن المحاضرات الصباحية المتخصصة أما المسائية - فقد ألقى الدكتور عفيف البهنسي محاضرة استعرض فيها تاريخ الزخرفة بالنجوم

١ - « علم السموم في الطب العربي » للدكتور محمد زهير البابا - كلية الصيدلة - جامعة دمشق .

٢ - « كتب ابن زهر الطبية » للدكتور ميشيل خوري - مجمع اللغة العربية .

٣ - « حول التعابير الفنية في الكحل في المصادر العربية » - الدكتورة لين الخير - كلية الطب - جامعة دمشق .

٤ - « حول الرمد في المصادر العربية » الدكتور عتيق استانبولي كلية الطب - جامعة دمشق .

٥ - « الصلات الطبية بين العرب والصين » الدكتور محمد التونجي - كلية الآداب - جامعة حلب .

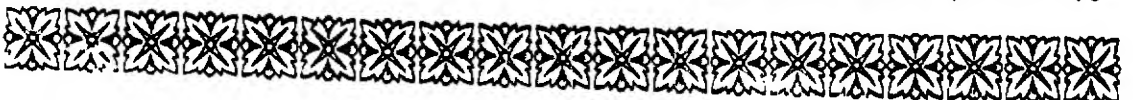
٦ - « الحركة العلمية في دمشق عاصمة الامويين بين القرنين الاول والثاني الهجريين » للاستاذ صلاح الدين الخالدي - مدرس في ثانويات دمشق .

وقد كانت المحاضرات على نوعين : الاول : متخصص

والثاني : عام .

ضمت المحاضرات المتخصصة :

١ - محاضرة الدكتور زهير البابا : وتركز بحث الدكتور زهير البابا حول مخطوط شانان في علم السموم وهو المخطوط الموجود في المكتبة الظاهرية بدمشق والذي يعتبر أساسا لتعرف العرب على علم السموم الهندي وقد ترجم



عند العرب » والتي نأمل نشرها بالرسوم
الايضاحية قريبا » .

أما المحاضرة المسائية الثانية فقد كانت
للاستاذ الدكتور صلاح الاحمد بعنوان (نحو تاريخ
جديد للرياضيات عند العرب) وهي من أهم
المحاضرات التي عرفها اسبوع العلم حيث وضع
فيها أكثر اكتشافات العرب أهمية وتركز حديثة
في المسائل التي تتعلق بقانون نيوتن - ومثلث
باسكال والهندسة التحليلية وغيرها . وقد حرص
المحاضر على تقديم الحقائق العلمية بحياد تاريخي
وأكد سبقيّة العلماء العرب في هذه الاكتشافات
اعتمادا على الوثائق التاريخية والمخطوطات
المكتشفة حديثا . والتي قام بتحقيقها وتحليلها
عدد من الباحثين العرب المعاصرين .

وكشف الدكتور صلاح الاحمد حقائق مثيرة
وهامة في علم الرياضيات . وأكد على أهمية
التناول التاريخي الأمين للأسبقية في هذا المجال
ومن أطرف ما قاله في هذا الموضوع : أن مؤلفي
الرياضيات العرب في العصور الوسطى لم يكونوا
ينسبون هذه الفتوح العلمية الا الى أول من عرفت
عنه دون أن يؤكدوا على أنه صاحب الابتكار ، في
حين نجد أن بعض مؤرخي العلوم ينسبون تلك
الاكتشافات لعلمائهم متجاوزين الامانة التاريخية
لأسبقية الاكتشاف العلمي .

وقد أورد الاستاذ الدكتور صلاح الاحمد
مجموعة من الحقائق على رأسها أن قانون نيوتن
الذي يعود برهانه الى القرن السابع عشر قد
استخدم في القرن العاشر من قبل العالم العربي
محمد بن أبي بكر الكرخي وكذلك انشاء المثلث

المعروف بمثلث باسكال الذي يعود أمر اكتشافه
الى نفس العالم العربي محمد بن أبي بكر الكرخي
وحول هذا الموضوع أشار الاستاذ صلاح الاحمد الى
نقطة هامة الا وهي : ما دام اكتشاف هذا القانون
يعود لعالم عربي وفي القرن العاشر أي بسبق
زمني علمي قدره سبعة قرون فعلى أي اساس
يسمى هذا الاكتشاف الى يومنا هذا باسم نيوتن
- باسكال ؟ ولقد صدر عن وزارة التعليم العالي
كتاب حول هذه المسألة وهو كتاب «الباهر في الجبر»
للسموعل المغربي (الكتاب من تحقيق وتحليل الدكتور
صلاح الاحمد والدكتور رشدي راشد) . كما أشار
الى نقطة ثانية وهي أن الهندسة التحليلية والتي
كانت من مفاخر ديكارت حيث اعتبر مبدعها
وسيدها ، لم تكن أيضا كذلك ، فقد كان أول من
تكلم بها هو العالم العربي شرف الدين الطوسي
في كتابه (المعادلات) واستدل ببراهن مقنعة
وعلمية . ثم ذكر أن هذه الرياضيات والتي اعتبرت
من مكتشفات القرنين السابع عشر - التاسع
عشر ، إنما كانت موضوعا يدرس للمبتدئين
العرب في القرن العاشر الميلادي .

هذا عن المحاضرات المتخصصة اما عن
المحاضرات العامة والتي تهتم جمهرة المثقفين
فمنها محاضرة الاستاذ الدكتور ميشيل خوري
وهي محاضرة استعرض فيها كتب ابن زهر
الطبية - والتي تعتبر من أهم ما كتبه العرب .
ويقوم الدكتور حاليا بتحقيق كتاب (التيسير)
لابن زهر وقد اصبح الكتاب جاهزا للطبع ، ولا
شك أن نشر الكتاب يعتبر من أهم الاحداث
الثقافية التي ستضيف الى المكتبة الطبية
العربية ابعادا تاريخية وعلمية .



بعنوان « فضل العرب في تقدم العلوم » • وقال في بداية المحاضرة ان موضوعا كموضوع تاريخ العلوم مسألة في غاية الاهمية لان هذه المسألة تتداخل مع الامانة العلمية العزيزة على قلوب الباحثين • وهذه في اوليات وبديهيات اخلاقيات البحث العلمي حيث يجدر بالباحث ان يكون ملما بالفكر متفهما لامور بحثه بكل ما يتطلبه البحث من موضوعية ودقة خصوصا وأن بحثا كالتراث يبين ما وصل اليه العرب من تقدم علمي وفضل في تقدم العلوم • ومن المؤسف ان الباحثين في هذا التراث هم قلة قليلة من أولئك الذين يحرصون على التراث ويقومون بجهود فردية محضة تبقى قاصرة أمام بحث كهذا ، الذي هو بحاجة الى جهود كبيرة تشارك فيها كافة المؤسسات الثقافية وأشار الى جهود بعض الاساتذة الذين يقومون الآن بترجمة الكتب الى العربية حيث ان هذه الكتب تبحث في تاريخ الطب وتراث العرب ككتاب لوكليز في الطب العربي وكذلك الموسوعة الاسلامية وهي ما زالت في طريق الاعداد •

واضح ان البحث في التراث العربي ما هو الا استكمال للشخصية القومية للعرب • ولاستكمال هذه الشخصية لا بد من فهم ومعرفة التراث العربي بكل ما يحوي من علوم كانت اساسا في تطور العلوم في العالم • وقد أشار الدكتور الى نقطة هامة جدا وهي البحث عن المخطوطات العربية الموجودة أو المتوفرة لدينا ثم دراستها بدقة وترتيبها وفهرستها والحصول على المخطوطات الكثيرة الموجودة في مكتبات

● بعد ذلك قدم الدكتور محمد التونسي محاضرة استعرض فيها مدى تأثير الاطباء العرب على تطور الطب الصيني واهم ما في هذا الامر ان الاستاذ المحاضر اثبت وجود هذه الصلة وهذا التأثير بنفسه وبجهوده الخاصة • كما أنه قدم ما يؤكد على آرائه حول هذه المسألة التي يعود تاريخها الى القرن العاشر الميلادي •

ثم أتت محاضرة الاستاذ صلاح الدين الخالدي لتدرس الوضع العلمي ومستوى تطور الطب والكيمياء في عاصمة الامويين قبل عصر الترجمة مبينا الاثر الكبير والتاثير الهام للذين كانا لعرب الشام ابان الفتح الاسلامي وأشار الى مستوى التطور العلمي في دمشق ، قبيل الاسلام والذي يدل على ارتقاء مستوى العلوم وخاصة في الشام « الحضارات القديمة ابتداء بالبابليين وانتهاء بالسريان » •

● وحول موضوع البحث العلمي عند العرب قدم الدكتور عزة مريدن العميد السابق لكلية الطب بجامعة دمشق ، محاضرة كان لها صدى كبيرا حيث استعرض أهم منجزات العرب في شتى العلوم وبين فضلهم في تقدم الفكر والحضارة الانسانية - واعطى عشرات الامثلة • وعلى هذا فقد كانت محاضرة الدكتور عزة مريدن موضوعا للاستشهاد لبعض المحاضرات كما بين ارتقاء مستوى البحث العلمي عند العرب وتطور سوية المشافي عندهم كما بين دقة وأمانة حركة الترجمة عن اللغات القديمة ومدى التشجيع الرسمي الذي حازت عليه هذه الحركة •

● وقدم الدكتور نشأت الحمارنة محاضرة



استانبول والمغرب وغيرها والتي ما زالت بعيدة
عن الدراسة والبحث مما اتاح الفرصة للمتعبين
الاوربيين ان يحوروا الحقائق ونسبتها اليهم -
وقد أكد الدكتور على ضرورة ايجاد المعاهد التي
تعد الباحثين من أجل القيام بهذه المهمة .

وتحدث الدكتور الحمارنة عن أسباب رقي
العلم عند العرب ومقوماته والعوامل التي ينبغي
ان تتوفر لكي تنهض مرحلة علمية جديدة ، في
أمة سجلت في التاريخ أثارها الحضارية .

● هذه هي أهم المواضيع التي ضمها اسبوع
العلم التاسع عشر والتي تتعلق بتاريخ العلوم
عند العرب ولسنا بصدد تكرار واعادة ما قدمه
العرب وما ساهموا به في تقدم العلوم ابان العصور
الوسطى حيث كان الغرب غارقا في جهله وانما
نحن بصدد تسجيل بعض ما اكتشف حديثا من
حقائق علمية عالمية نسبها المؤرخون الاوربيون عن
غير حق لعلماء غير العرب ولحضارة غير الحضارة
العربية .

صدر حديثا

من اتحاد الكتاب العرب بدمشق

الهروب من القومية

محاولات لي الرد على مناهضي الوحدة العربية

صفوان قسبي

دراسة

المحتوى

الصفحة

الإهداء	١
هذه المجلة - علي عقله عرسان	١٧
تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية - د. مصطفى الراعي	٢١
ابن مسافر : اخذ وعطاء - د. بشار عواد معروف	٣٨
من تاريخ التاريخ الكبير - مطاع الطرايشي	٤٤
ابن النفيس واكتشاف الدورة الدموية - د. سلمان قطاية	٤٥
ملف الندوة العالمية للدراسات الاوغاريتية - اعداد : علي القيم	٤٦
٢ - افتتاحية الندوة للدكتور هيف بهنسي	٦٢
ب - ملف الندوة	٦٩
الجلس والانس للمعاني بن زكريا الجبريري - سكتة الشهابي	٦٩
السيرة النبوية في التراث الاندلسي - د. محمد رضوان الداية	٩٦
الامر العربي الشرقي في القانون الروماني - اللاتيني	١٠٩
اعلام عربية : القمقاع بن عمرو - محمد أمين الميداني	١٢٦
المظاهر الاجتماعية في كتاب : قاموس الصناعات الشامية	١٤٠
- طاهر القاسمي	١٤٨
الوحدة في الحضارة العربية - د. هيف بهنسي	١٦١
موارد الوهم في تخطيط الكتاب - صلاح الدين الزميلوي	١٧٠
مبد الفنى النابلسي : بين العدمية والحياة - هدى النعماني	
التقرير الفصلي : احتفال اسبوع العلم التاسع عشر بالقرن الهجري الجديد - د. دلال السلطي	

تسوية :

- ١ - المواد الواردة الى المجلة لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .
- ٢ - يفتح ترتيب المواد لامتحانات فنية وطباعة .
- ٣ - آراء الباحثين ليست ملزمة للمجلة ، والباحث مسؤول عن اقتباساته وبياناته التاريخية والادبية .

الموزعون

- الجمهورية العربية السورية : المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات .
 الجمهورية الجزائرية الشعبية الديمقراطية : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
 الجمهورية التونسية : الشركة التونسية للنشر والتوزيع .
 بقية الاقطار العربية : المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات .

سعر العدد

سورية	١٠٠ ق.س	لبي	٨ دراهم
لبنان	٤٠٠ ق.ل	ليبيا	٥٠٠ درهم
الكويت	٥٠٠ فلس	تونس	٨٠٠ فلس
الأردن	٤٠٠ فلس	المغرب	٨ دراهم
مصر	٨٠٠ فلس	الجزائر	٨ دينار
قطر	٨ ريال	السودان	١٠٠٠ مليم
البحرين	٨٠٠ فلس	العراق	٥٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	مصر العربية	٦٠٠ مليم
ابوظبي	١٠ درهم	الخليج العربي	٨ دراهم

صمم الغلاف : محمود حماد

طبع في مطبعة الكاتب العربي
 دمشق - شارع خالد بن الوليد
 هاتف : ١١٩٧٢٨